د. موفق مهدي جاسم

أين تبحث

عن مصدر الأخلاق



دار روافد
للطباعة والنشر والتوزيع


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

أين تبحث عن مصدر الأخلاق؟

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م

ISBN 978-614-426-485-0



للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
ت: 71/868980
darrawafed@yahoo.com

التنفيذ الطباعي : دار المحجة البيضاء

أين تبحث عن مصدر الأخلاق؟

الدكتور موفق مهدي جاسم



دار روافد



المقدمة

في بداية الخلق كان هناك حساء من زلال هو الأصل. تعاون بين الجزيئات كَوّنَ جزيئات أكبر، بعض الجزيئات استنسخت نفسها وتغلفت بغشاء وقائي. خلايا متعاونة اندمجت لتُكون خلايا معقدة، بعدها عناقيد من الخلايا تعاونت لتشكّل الكائنات الحية.

«سورة العلق ـ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ . . .»

الحياة أصبحت أكثر تعقيداً، الفرد يضحي بمصلحته الشخصية في سبيل الجماعة. لكن الكائنات المتعاونة حسب تركيبها البيولوجي تتعاون داخل الجماعة وليس بين الجماعات. التعاون تطور كسلاح دفاعي كاستراتيجية للتغلب على الخصم. لذلك التعاون في ذروته هو تحت ضغط ومقاومة القوى التي تفضّل جماعتنا على جماعتكم. الحيوانات لديها أدمغة تمتص معلومات من البيئة التي تعيش فيها وتستعملها كدليل لسلوكها. معظم هذه الأدمغة هي تلقائية غير مفكّرة. لكن نحن البشر نمتلك التلقائية بالإضافة إلى عقول مفكرة قادرة على حلّ مشاكل معقدة لا يمكن حلّها بالتلقائية.

نوعان من التفكير في أدمغتنا: واحد بطيء، وآخر سريع، اجتماعهما يولّد خطراً.

بعقولنا نحن هزمنا معظم أعدائنا الطبيعيين. بإمكاننا أن ننتج غذاءً يسدّ حاجاتنا، أن نبني بيوتاً تحمينا من الظروف الطبيعية. نحن أذكى من معظم مفترسينا، من الأسد وإلى البكتيريا. اليوم أعظم عدوّ طبيعي مرعب هو أنفسنا. تقريباً جميع مشاكلنا الكبيرة سببها هو اختياراتنا، والإنسان بمقدروه أن يختار ما يمنع هذه المشاكل. حديثاً قمنا بتقدّم كبيرٍ في تقليل العداء بين البشر، استبدلنا الحروب بين الدول بالتجارة، الحكم الفردي بالديمقراطية، والشعوذة بالعلم. لكن يبقى هناك مجال للتطور. لدينا مشاكل عالمية مزمنة (الجوع، الأمراض، الحروب، الاستغلال، العنف) ومشاكل عالمية جديدة تظهر للعيان (التغير المناخي، الإرهاب) ومشاكل أخلاقية تخص الحياة العصرية مثل (دور الدين في الحياة العامة، الإجهاض، حقوق المرأة، تعدد الزوجات، الحجاب) كيف نعيش حياة أفضل؟ أدمغتنا وجميع أعضاء جسمنا تطورت لكي تخدمنا لكي نعيش ولنشر الجينات الوراثية والتكاثر. لأسباب مألوفة أدمغتنا وهبتنا حوافز أنانية مبرمجة غريزياً تدفعنا للحصول على ما نحتاجه للعيش وللتكاثر. كذلك أدمغتنا تمتلك القدرة على التعايش فهي تدفعنا للاهتمام بالآخرين. نحن نملك مشاعر شفقة، حب، صداقة، غضب، اشمئزاز، عرفان الجميل، انتقام، شرف، شعور بالذنب، ولاء، تواضع، خشية، مقاضاة الناس، نميمة، خجل، نقمة.

هذه الميزات السيكولوجية للبشرية تسمح لنا أن ننتصر على الـ«أنا»، تضع «نحن» قبل الـ«أنا» لتلافي المشاكل داخل الجماعة. هذا السلوك

الغريزي يستعمله كلّ إنسان سليم العقل، لكن نحن نستعمله بطرق مختلفة. والجماعات تتعاون وفق شروط مختلفة. نحن نملك أفكاراً ومشاعر مختلفة حول ما يتوقعه كلّ إنسان من الآخر، وعن كيف يدافع الإنسان الحرّ عن شرفه وعرضه وماله ودينه وبلده؟. نحن ندين بولائنا لسلطات محلية مختلفة، لأحزاب مختلفة، لمرجعيات دينية مختلفة، لقبائل مختلفة، عقولنا صُممت لخدمة وحماية الجماعة التي ننتمي إليها. نفضّل «نحن» على «هم»، حتى عندما نفكّر بصورة عادلة، نحن بصورة غير واعية نفضّل العدالة التي تلائم مصلحتنا.

لذا نحن نواجه مأساة الخلافات الأخلاقية بين الجماعات: أخلاقية جماعات لا تتفق على ما هو صح أو خطأ. حل أي مشكلة بعض الأحيان يتطلب صياغتها بطريقة صحيحة. في هذا أنا حاولت أن أزوّد هيكلاً للتفكير حول أكبر مشكلتين أخلاقيتين نواجههما في عصرنا الحديث:

الأولى: مشكلة الفرد ضدّ الجماعة.

والثانية: مشكلة الجماعة ضدّ الجماعة.

كذلك نحن كبشر نمتلك نوعين مختلفين من التفكير الأخلاقي:

الأول: تفكير سريع تلقائي.

الثاني: بطيء ومتعقل.

عندما تكون المشكلة الأخلاقية التي نواجهها هي أنا ضدّ الجماعة نستعمل التفكير التلقائي السريع. لكن عندما تكون المشكلة الأخلاقية هي جماعتنا ضدّ جماعتكم، نستعمل التفكير البطيء العقلاني.

الجماعات المتنازعة في عصرنا الحديث بحاجة إلى التفكير العقلاني البطيء والصحيح. إذا استعملنا هذا التفكير لوصف أو تبرير أو تعليل أفعالنا الغريزية التلقائية فإننا سوف لا نصل إلى حلّ لمشاكلنا واختلافاتنا. بدل من تنظيم وتبرير أفعالنا الغريزية، نحن بحاجة إلى أن نسمو فوق نطاق خبرة ومعرفة الأفعال الغريزية.

الحل لمشاكلنا يبدو واضحاً: يجب أن نضع جانباً المشاعر التي تفرّق بين الجماعات وأن نعمل كلّ جهدنا للحصول على ما هو جيد ومفيد لكلّ الجماعات المتنازعة، لكن ما هو هذا الشيء الذي تستفيد منه كلّ الجماعات؟

الإنسان المعاصر مهدّد بعالم خلقه لنفسه. هو يواجه ميول العقل إلى المذهب الواقعي الذي هو عقيدة دنيوية ومخالفة للاعتقاد بوجود عالم روحي. لكن الإنسان على الرغم من تلك الميول هو بدأ يرى بأن هذا الكون هو ليس وجوداً مادياً فقط، هو ليس ما يراه ويدركه فقط، ولكن هو اتحاد بين الخالق والمخلوق، الفاعل والمفعول به المادة والروح؛ وإن الحاجز بينهما لا يمكن إذابته كنتيجة للتجارب التي أجراها علماء الفيزياء لأن في الحقيقة ليس هناك وجود لمثل هذا الحاجز. الإنسان دائماً يواجه السؤال: ما هو معنى الحياة؟ أو لماذا خُلِقنا؟ هذا يستدعي النظر بعين فاحصة واكتشاف الثابت غير القابل للتغيير والدائم البقاء الذي هو القوة المحركة لهذا الكون، أساس وحدته واختلافه؛ على الإنسان أن ينهي الخلاف بينه وبين ذاته الشخصية والعالم من حوله، بين ذاته القلقة والذات الثابتة. هو سوف يدرك هبوط كلّ شخص بطريقته الخاصة وصعوده متجهاً

صوب مصدر الخلق، ذلك المكان الذي يرقد في داخله والذي ابتعد عنه وأصبح غريباً عليه. إن أملنا هو أن يكتشف الإنسان ذاته وأن يقود عامة الناس في الطريق لاكتشاف الله. الإنسان المتنور هو لم يحاول فقط السؤال بصورة نزيهة عن طبيعة الله ولكن هو على الأقل أعاد إلى حياة الإنسان الإله المفترض وجميع الرموز المنسوبة إليه. إن المنظور الديني الحديث يحاول أن يُظهِر للإنسان الذي يواجه الأسئلة التي تخص ما وراء الطبيعة (عالم الغيب) حقيقة الدين عندما هو يبحث عن حلول لحياته العملية. إن القصد من الدين هو الإشارة إلى مشاعر، طموحات وأفعال الإنسان وعلاقتها بالحقيقة الأبدية. المنظور الديني الحديث يتغذى على الطاقة الروحية والفكرية لقادة العلم والفكر والأخلاق في هذا العالم، هم ليسوا متفرجين ولكنهم فاعلون ومنغمسون بعمق في المشاكل الحساسة التي تخص جميع الأديان. هؤلاء المفكرون وجدوا أن أخلاقية الإنسان ومُثله العليا تنمو بقوة فقط عندما توضع في سياق العالم الروحي للدين وذلك بالإشارة إلى أن أساس وحدة الكون، والطبيعة المشتركة لجميع المخلوقات من خلال التجربة الدينية للإنسان، فإن الطبيعة الأساسية للدين يمكن تعريفها. لذا هم تعهدوا بإعادة تقييم معنى الأبدي، هي تجربة فُقِدَت والتي كانت التركيب الأساسي لجميع الأديان. هي ذوبان الفرد بصورة أبدية في اتحاد نهائي. اتحاد فيه تتدفق الروح الإلهية على الدوام. هذا التوحد يتألف من يقين ينبعث من طبيعة إنسان يبحث عن الله وطبيعة الله التي تبحث عن الإنسان.

هذا اليقين يستحم في إدراك تلقائي للأفعال المشتركة مع الجوهر الإلهي والمرتبطة بالعالم الروحي للمعرفة. هذا لا يعني أن المنظور الديني الحديث هو مساوٍ لجميع الديانات في عصور البشرية. هنا يجب التأكيد على التمييز

بين ما هو روحي وما هو دنيوي شيء تعترف به جميع الأديان. إن أمد الأفكار يتألف من لحظات، هي أسمى من الوقت، أفكار تلقائية لوجود أبدي وحقيقة هي الماضي والحاضر والمستقبل. المنظور الديني الحديث يتمثل في تجربة الانغماس في اللحظة الحاضرة الأبدية. هي المركز غير القابل للتغير والتي فيها الفاعل والمفعول به وعملية الفعل تصبح واحدة.

إن ما يهم جميع الأديان هو الانفصال بين الإنسان والإنسان. وبين الإنسان والإله، وانعدام المحبة، لكن الحقيقة هي أن الإنسان بإمكانه وكذلك يتوق إلى إيجاد الله، عند ذاك فالظلام وبرودة وانجماد الشقاء الروحي لعصرنا الحاضر سوف ينكسر ويذوب ويبدأ بالتحرك فاسحاً الطريق للجهود الرامية إلى التغلب على التمرد الروحي والشلل الأخلاقي. بهذه الطريقة سوف يكون هناك أمل لآلام ومعاناة وحزن الإنسان في الوقت الحاضر أن يُحَوّل إلى انتصار روحي وأخلاقي. المنظور الديني الحديث يتولى استكشاف معنى الإله الذي هو استكشاف جوهر الإنسان. هو تحرير الطاقة الخلاقة للإنسان التي تمثلت في الاكتشافات العلمية والتقدّم في مجال التكنولوجيا. الله لا يحب النظر إليه من المنظور الروحي فقط، إنه مصدر المعرفة والعلم وجميع الطاقات الكامنة للإنسان.

الشعور بالحرية الشخصية، العناية الإلهية، الإرادة، والضمير هي تعبير عن أن المعرفة الكونية، لها اتصال مباشر مع العقل الباطني للإنسان صاحب الذات المتوحدة، المنظور الديني الحديث يحاول أن يُظهر الفكرة الخاطئة التي تكونت عن مفهوم الإله في العصور القديمة.

* * *

الفصل الأول

طبيعة الأخلاق

ما هي الأخلاق؟

معظم الناس يعيرون اهتماماً سطحياً لمفهوم فلسفي مرعب بعض الشيء يُسمى الأخلاق. هم يفترضون بصورة خاطئة أن الفحص الدقيق للأخلاق هو مُلك الفلاسفة. معظم الناس يكتسبون شعوراً غامضاً عن الأخلاق، شعوراً حول كيف نتصرف أو لا نتصرف مع آبائنا وأمهاتنا، مع المجاميع الاجتماعية، على اختلاف انتماءاتهم السياسية والدينية. هم يعتقدون أن لديهم فهماً كافياً وواضحاً للأخلاق التي تسدّ حاجاتهم وهم لا يحاولون تحليل موضوع يبدو مليئاً بالمتناقضات. لماذا نريد تحليل مفهوم الأخلاق إذا كان كلّ إنسان يعرف أن القتل هو شيء لا أخلاقي وأن السرقة شيء لا أخلاقي؟

نحن كبالغين نتصرف بصورة غريزية بما يخص الأخلاق. نحن نمتص المبادئ الأساسية للأخلاق خلال أيام الحداثة والشباب، هل نحن حقيقةً نحتاج إلى معرفة الأخلاق بصورة أكثر من ذلك؟ معظم الأشخاص اكتسبوا العقيدة الأساسية للأخلاق من الآخرين واعتبروها كحقيقة ملزمة من دون تساؤلات. مع هذا كيف نعرف أن فكرة معينة فرضها علينا الآخرون هي

حقاً صحيحة ولها فائدة لنا؟ هل بإمكاننا أن نحسّن نمط حياتنا، من ضمنها التفاعل مع الآخرين، إذا فهمنا طبيعة الأخلاق؟ المعرفة هي قوة ومدى معرفتنا للحقيقة الموضوعية يقرر بصورة مباشرة مستوى حياتنا وسعادتنا. سعادتنا تُقرر بمدى توحدنا مع الحقيقة المطلقة، مع الحق. كلما ازدادت معرفتنا كلما تقربنا أكثر من الحقيقة وقل تضاربنا معها وازدادت سعادتنا.

كيف تعمل الأخلاق؟

عبارة الأخلاق تغطي مجالاً واسعاً من تصرفات الإنسان في المجتمع والمحيط حوله. الأخلاق تلمس كلّ مظاهر حياتنا في كلّ لحظة. أخلاقنا تسيطر على جميع اتصالاتنا مع أعضاء عائلتنا، مع زملائنا في العمل في المسجد أو الكنيسة، مع موظفي الدولة. الأخلاق تقرر موقفنا من السياسة، الحرب أو السلم أطفالنا، آباؤنا وأمهاتنا، وموقفنا من الأسئلة الروحية مثل هل هناك حياة بعد الموت؟

عندما نناقش الأخلاق نحن لا نتكلم عن مفهوم فلسفي بليد، نحن نتكلم عن وجودنا الكلي في كلّ يوم، إذا أردنا أن نكون نشيطين في تفاعلنا مع الناس الآخرين ينبغي علينا استيعاب مفهوم الأخلاق بكلّ فروقاته ومضامينه. فهم واضح للأخلاق له أهمية كبيرة في جميع تفاعلاتنا مع المحيط الذي نعيش فيه ولأجل اكتساب السعادة. كلما توافقت عملية تفكيرنا وانفعالاتنا مع المحيط الذي نعيش فيه كلما ازدادت قدراتنا لتجنّب خلاف مؤلم مع الحقيقة، وكلما ازدادت قدرتنا لبلوغ السعادة. سوف لا نجد السعادة إذا لم نفهم الطبيعة الأساسية للإنسان ومصدر الرذيلة في تصرفاته التي يحكم عليها ضميره. إذا لم نفهم بصورة كاملة ما هي

الأخلاق وكيف تؤثر على الإنسان؟ سوف نواجه مشاكل كثيرة في الحياة. الأخلاق تجهزنا بالقواعد التي بموجبها يحب أحدنا الآخر، يتفاعل أحدنا مع الآخر، وتفاعل أحدنا مع الآخر في جميع الطرق الممكنة. كثير من الناس قتل أحدهم الآخر، يتقاتلون بسبب إيمان أحدهم بأن أخلاقيتهم أفضل من أخلاقية الطرف الآخر من دون فهم واضح عن الشيء الذي يتقاتلون بسببه.

ما هي الأخلاق؟

يمتلك الإنسان وجميع المخلوقات غريزة البقاء التي تتحكم بعواطفه (الحب، الكراهية، الجوع، اليأس، الخوف، الفرح) الإنسان يمتلك وظيفة دماغية تميزه عن الحيوانات. هذه الوظيفة هي قدرته على التفكير التحليلي. العواطف تتحكم بقدرتنا على التفاعل مع المحيط الذي نعيش فيه وتلبي الحاجات الأساسية للإنسان. العواطف تقرر متى نأكل ومتى نمارس الجنس، ومتى نخاف، ومتى نشعر بالسعادة؟

التفكير التحليلي يسهل التفاعل بين البشر، غرائزنا وانفعالاتنا تشعرنا بضرورة ممارسة الجنس لكن تفكيرنا التحليلي يحدّد الظروف التي بموجبها يمكن تلبية الحاجة الجنسية. على خلاف الكلب، الإنسان لا يلبي حاجته الجنسية في منتصف الشارع.

تفكيرنا التحليلي مكننا من التأثير على واستغلال الإنسان الآخر. نحن تعلمنا كيف نجعل إنساناً آخر أن يعمل لنا ما نريد؟

الوجود البشري هو عبارة عن عملية مستمرة من الاستغلال أو التأثير

على الآخرين بدرجات مختلفة من الرقة. درجة الرقة غالباً تعتمد على الذكاء الشخصي للمستغِل والمستغَل. ساحة الأخلاق هي واحدة من المجالات الأولية التي فيها الإنسان ينتفع من استخدام تفكيره العقلاني لاستغلال إنسان آخر. نحن يمكن أن نشير إلى الشخص الآخر بالشرير أو الآثم، ننخسه لكي يغيّر طريقته ويعدّل تصرفاته حتى تنسجم مع رغباتنا. أو ربما نحن نشير إلى الشخص الآخر بالآثم إذا رغبنا بمنع الناس الآخرين من تقليده أو التفاعل معه. نحن يمكن أن نذهب أبعد من ذلك وننعت الشخص الآخر بالآثم حتى نحلل قتله أو الاستيلاء على أملاكه.

هذه الاستراتيجية من الاستغلال أو التلاعب بالأشخاص هي جزء أساسي من الدعاية خلال فترة الحروب أو خلال النزعات الدينية والطائفية بين الجماعات.

الأخلاق هي الطريقة التي يجب أن يتصرف بها الإنسان في المجتمع، هي لها صلة بمفهوم عمل الخير وعمل الشرّ، صح وخطأ، جيد وفاسد، أخلاقي وغير أخلاقي. أخلاقنا تدلنا على الطريقة التي يجب أن نتصرف بها تحت ظروف معينة.

الأخلاق والقانون ليسا مترادفين، فعل معين يمكن أن يكون أخلاقياً وقانونياً في بلد ما بينما نفس الفعل يمكن أن يكون أخلاقياً لكن غير قانوني في بلد آخر ويعاقب فاعله بالموت. هذا التباين بالقيم الأخلاقية هو واضح في العديد من النزاعات الناشئة من تشعب الديانات. مجموعة من الأشخاص في تركيبة اجتماعية هم كتلة من الأفراد البشرية اجتمعوا سويةً لتوفير الحماية والرعاية المتبادلة. جميع هؤلاء الأفراد يبحثون عن السعادة

والحرية الشخصية بطريقتهم الخاصة وهذه هي طبيعة جميع البشر. شخص ما يمكن أن يتبع حياة الهدوء والراحة، شخص آخر يمكن أن يكون له اهتمام بجمع المال والغنى. لأجل أن تسير الأمور بصورة سهلة، المجتمع يجب أن يطبق مبادئ عامة، قيم عامة يشارك فيها أكبر عدد من الناس، لكي يكون هناك نظام وأمان. سعادة وحرية وأمان المجتمع تعتمد على الامتثال للتصرف وفق المفهوم العام لذلك التجمع البشري، وفق أخلاقية الجماعة.

ليس من الضروري لجميع أفراد المجتمع أن يكونوا متطابقين في امتثالهم لأخلاقية المجتمع. بما أن المجتمع مؤلف من عدة مجاميع بشرية إذاً أصبح مهماً جداً لجميع الأفراد أن يكونوا على علم بالاختلافات في التصرف الموجودة بين المجاميع المختلفة. هذا الإجماع يُمكِّن الأفراد من تَقَبُّل ليس فقط الأفراد الآخرين في التجمع نفسه ولكن أيضاً تَقَبُّل المجاميع الأخرى التي تتبع أخلاقيات مختلفة. لمنفعة الانسجام الداخلي للمجتمع أصبح شيئاً إلزامياً بأن على جميع الأفراد والمجاميع البشرية داخل المجتمع أن تمتثل لقواعد أخلاقية أساسية عامة التي يمكن أن نسميها القوانين الطبيعية للأخلاق.

القانون الأساسي، **الأول للأخلاق هو**: جميع أفراد المجتمع يجب أن يمتنعوا عن القتل أو إيذاء أي عضو من المجتمع. هذا القانون هو بسيط جداً وجميع المجتمعات عبر العصور البشرية تبنته وفرضته بشدة. **والثاني**: هو جميع أفراد المجتمع أحرار من الاستعباد. **والثالث**: هو الحق في

الملكية الخاصة. رجال الدين يحاولون إيجاد الجواب لما هو صح أو خطأ من الناحية الأخلاقية.

هناك تفسيرات متضاربة لمبدأ الصح والخطأ في القرآن والتوراة والإنجيل. كلّ واحدة من تلك الأديان تدعي أنها الحاكم الأوحد في الأخلاق. كلّ سلطة دينية تدعي أن أيَّ شخص يتبع مبادئها سوف تكون أعماله أخلاقية.

المسيحيون ليس لديهم مشكلة أخلاقية عندما يأكلون لحم الخنزير، المسلمون واليهود لديهم أمر أخلاقي شديد اللهجة بعدم أكل لحم الخنزير. إنه مقبول أخلاقياً لدى المسيح واليهود شرب الخمر لكن إذا شرب المسلم الخمر يُقطع رأسه.

السمك الجري (cat fish) يأكله أبناء السنّة من المسلمين ولا يأكله أبناء الشيعة من المسلمين. كيف يمكننا أن نقرر أي إيحاء وصِفَ في الكتابات الدينية المختلفة هي صحيحة حتى يمكننا أن نتصرف بصورة أخلاقية صحيحة؟. لما كانت جميع تلك النصوص الدينية يناقض أحدها الآخر كيف يمكن أن نعرف أيهما هو الحقيقة وأيهما هو كاذب؟ هل التوراة صحيحة أم الإنجيل أكثر صحة؟ كيف يمكننا أن ننهي الخلاف بين الإنجيل والقرآن حول طبيعة السيد المسيح، هل هو ابن الله أم هو نبي؟ هل جميع المسلمين في العالم الذين تعدادهم المليار يتبعون عقيدة خاطئة أم أن القرآن يعكس بحق طبيعة الأخلاق الحقيقية وهو أكثر صحة من الإنجيل؟

رجل الدين يواجه مهمة صعبة جداً في اختياره الأخلاق الملائمة لأن بحثهم أصبح معقداً كثيراً بسبب تعدّد الطوائف والمذاهب والتكتلات

الدينية. هو يواجه تضارباً مستمراً لأن كلّ واحدة من الاعتقادات تدعي أنها هي الوحيدة التي تمثّل الحق وهي المصدر الوحيد للحقيقة. هذه الادعاءات المتضاربة تبدو منافية للعقل وهذا واضح لأنها لا يمكن أن تكون كلها صحيحة. واحدة من المتناقضات العالمية التي أشار إليها علم الفقه بما يخص الأخلاق هو ما يتعلق بمعضلة تعاني منها جميع الأديان: ما هي علاقة عمل الخير وعمل الشرّ بالإله الرحمن الرحيم والشديد العقاب؟

النصوص الدينية تصوغ القوانين الأخلاقية لكلّ طائفة ودين. المصدر الرئيسي لدستور الأخلاق المدفون في كلّ دين هو دائماً الله.

الله هو سلطة مركزية وقوة مسيطرة يشكّل العمود الفقري لجميع الأديان. جميع الأديان يجب أن يمثّلها إله جبار عظيم ذو وجود سامٍ وخالق للكون. هذا الإله يجب أن يكون خاصاً بديانة معينة. الأديانُ المختلفة لا يمكن أن تمتلك الإله نفسه. لهذا جميع الأديان تستمد أخلاقيتها من سلطة الإله الذي تعبده خلال وساطة الأنبياء محمد عيسى وموسى. نظام الأخلاق يعتمد على وجود شخصي للإله يكون غير عقلاني لأن هذا الإله صور بطبيعة البشر وبالتالي هذا النظام الأخلاقي ليس له أي فاعلية عامة، هو أُسِّسَ لكي يلبي حاجات كلّ دين وكلّ طائفة كلّ واحدة على انفراد. نحن نتبنّى كتاباً دينياً معيناً أو نتبع ديناً معيناً كأساس لأخلاقيتنا هذا هو اختيارنا الشخصي وقناعتنا. نحن نختار أخلاقيتنا من بين كثير من الأديان المختلفة. مرة ثانية نحن نختار أخلاقيتنا. نحن لم نبحث عن الأخلاقية المطلقة، نحن ولدنا في الدين. وآباؤنا وأجدادنا لم يأخذوا بعين الاعتبار الأخلاقية العامة المطلقة، الكونية الموضوعية ولكن أخذوا بعين

الاعتبار أيّاً من الأنظمة الأخلاقية المتعددة يجب أن يختاروا من بين الأنظمة الأخلاقية المتعددة المطروحة على الطاولة.

لذا بما أننا نقوم باختيار شخصي من بين أنظمة أخلاقية دينية متعارضة ومتعددة نحن انتهينا بأخلاقية نسبية وشخصية بدل من أخلاقية مطلقة موضوعية وعالمية.

الأخلاق هي نسبية، هي مفهوم مصطنع وجد فقط لمنفعة الإنسان بدل من أن تكون شعاراً مطلقاً وشاملاً. الأخلاق هي ظاهرة اجتماعية وبما أن الإنسان أنشأ المجتمعات فإن جميع الأخلاق هي مفاهيم خلقها الإنسان. الأخلاق تتناسب مع الظروف ولا يمكن تطبيقها على جميع الأفراد وفي جميع الأوقات. الأخلاق هي نسبية وشخصية ولا يمكن أن تكون عالمية ومطلقة. أنظمة أخلاقية متعددة موجودة بين البشر تعتمد على المكان الذي يعيشون فيه. جميع التجمعات البشرية تبنت بصورة طوعية نظاماً أخلاقياً مميزاً ومختلفاً وجميع هذه الأنظمة يتعارض أحدها مع الآخر في عدة مظاهر. سلوك معين تعتبره مجموعة ما غير أخلاقي أو محرماً، ربما مجموعة أخرى تعتبره أخلاقياً ويمدح ويبجل منفذه.

الأخلاق هي دستور للسلوك توصلت إليه مجموعة بشرية بالقبول المتبادل للأشخاص الذين اعتبروا هذا الدستور السلوكي، هذه الأخلاق هي لمنفعة الجميع داخل ذلك التجمع. لكن كلّ مجموعة لها دستورها الأخلاقي الذي يختلف عن دستور المجموعة الأخرى.

القواعد العامة للأخلاق النسبية

جميع الأخلاق وجميع دساتير الأخلاق هي نسبية وشخصية. الإنسان

أنشأ الأحكام الأخلاقية مثل: صالح وفاسد، صح وخطأ، كي يكون قانوناً ونظاماً داخل التجمعات البشرية وكذلك لكي يسيطر ويتحكم بأناس آخرين. السيطرة والتحكم بأناس آخرين تحت ذريعة الأخلاق. ربما يمثّل محاولة لجني مكاسب شخصية بواسطة تغيّر الإدراك الشخصي أو الثقة بالنفس لشخص آخر.

التحكم بالقضايا الأخلاقية ربما هو محاولة للكسب من تحريف الحقيقة في أذهان الآخرين. بما أن الأخلاق هي نسبية، المجاميع البشرية أسست دساتير للتصرف، دساتير أخلاقية لتسدّ حاجاتهم الخاصة للتحكم بأذهان الشباب. بسبب هذا التحكم واللعب بأذهان الشباب، فإن الشباب يفقدون قدرتهم على التمييز بين الأخلاق النسبية المغروسة في مجتمعهم وبين ما يسمعونه الآن من الواعظ. هم يتبنون الأخلاقية الجديدة ويعتبرونها مثلاً أعلى للأخلاق في مجتمعهم ويحاولون فرضها وتطبيقها على جميع البشرية في العالم. هذا الموقف الأخلاقي كان شائعاً خلال تأريخ البشرية. نحن بسهولة يمكن أن ندرك هذا التحريف للقيم في بداية القرن الحادي والعشرين عندما المجتمعات الغربية التي فيها الغالبية العظمى من السكان من المسيحيين واليهود يحاولون فرض أخلاقيتهم على الشعوب العربية والإسلامية تحت ذريعة الحرية والديمقراطية.

جميع المجتمعات تفرض معايير معينة من الأخلاق على أفرادها. المجتمعات لا يمكن أن تعيش من دون دستور سلوك متماسك، من دون نظام للأخلاق.

في القرون القديمة كانت هيئة علماء الدين التي تحكم المجتمع عادةً

تنشر قواعد ومبادئ تعتبرها سلوكاً أخلاقياً ملزماً. لأجل أن تضفي الشرعية على نظامهم الأخلاقي، أعضاء من مجتمع معين يصرون دائماً بأن معاييرهم الأخلاقية هي لا تنطبق على مجتمعهم فقط ولكنها تنطبق على جميع البشرية.

فالمسيحيون يعتبرون النجاة هي في اتباع طريق المسيح. والمسلمون يصرّون على أن دينهم هو آخر الأديان، وهو الصحيح. واليهود يصرّون على أن دينهم هو الأول والآخر.

الحرية: هي فرصة الإنسان لكي يفعل ما يسرّه، تخضع فقط للقيود التي نحن نفرضها على أنفسنا طوعاً. نحن نقبل هذه القيود الأخلاقية لكي نعزّز الأهداف التي نعتبرها ذات منفعة خاصة لنا. إذا التزم جميع أفراد مجتمعنا بنفس القواعد الأخلاقية المقررة فالجميع يشارك بالانتفاع من تعزيز أمن المجتمع. عندما نرسم قواعد السلوك يجب أن يكون لدينا وسيلة لكي نقرّر بدقة أي السلوك هو ذو فائدة مشتركة يمكن السماح به وأي سلوك ليس به فائدة مشتركة لذا هو ممنوع.

الالتزام بدستور السلوك والأخلاقية المُنَظمة يتطلب تخلينا عن بعض من حريتنا في التصرف مقابل تعزيز أمننا وبقائنا. من دون هذا الهيكل للأخلاق يسيطر على السلوك بين أعضاء مجتمع معين فليس هناك سلوك مُنَظّم لشؤون الإنسان. أي مجتمع ينتقص قواعد إجبارية تسيطر على سلوك وأخلاق أعضائه سريعاً ما ينهار إلى فوضى. بما أن هناك عدداً لا يُحصى من الاحتمالات الكامنة لنشاط ورغبات الإنسان الإيجابية، لا يمكننا أن نؤسس دستوراً للسلوك، نظاماً أخلاقياً بأن نعمل قائمة بنشاطات الإنسان

التي يسمح بها المجتمع. على الضدّ من ذلك فإن قائمة بالأفعال التي لا يسمح بها المجتمع هي قصيرة جداً.

لذا فإن دستوراً أخلاقياً فعالاً يجب أن يحدّد فقط تلك الفعاليات التي لا يسمح بها. المجتمع يحرمها تحت تهديد العقاب. علاوة على ذلك فهو إلزامي أي نظام اجتماعي للأخلاق يشترط بصورة لا لبس فيها بأن أي فعل غير ممنوع في لائحة الأخلاق هو مسموح به. أي شيء غير ممنوع هو مسموح به.

هذا التصريح هو عنصر مهم في أي قانون قضائي.

غريزة البقاء: هي أقوى عاطفة أولية لدى الإنسان. لوائح الأخلاق التي تبنتها الحضارات البشرية عبر العصور التأريخية دائماً تتضمن لا تقتل وهذا المنع هو العمود الفقري للقوانين الأخلاقية في أي مجتمع. التغاضي عن هذا القانون الأخلاقي الأساسي يستوجب عقوبة قاسية. وأي شخص ينتهك حرمة هذا القانون يجب أن يحسب حساب جميع احتمالات العقاب الممكنة.

القاعدة الذهبية السلبية

الممنوعات الأساسية التي من دونها لا يمكن لأي مجتمع أن يؤدي وظيفته هي تشمل نتائج لا يريد أي إنسان أن تحدث له، هذه القاعدة الطبيعية هي:

١ـ لا يجوز قتل أو إيذاء أي مخلوق بشري.

٢ ـ لا يجوز الاستيلاء على ممتلكات أي إنسان آخر.

٣ ـ لا يجوز استعباد أي إنسان آخر.

الالتزام بالقاعدة الذهبية السلبية له فوائده لكنك مخير ولست مجبراً. القاعدة الذهبية السلبية تقع ضمن إطار الأخلاق الشخصية، استناداً على استيعاب الفرد لما هو نافع له. نحن يمكن عقلياً أن نستمد القواعد الطبيعية الثلاث للأخلاق من مبدأ القاعدة الذهبية السلبية. لكننا نعاملهم ككيان منفصل عن القاعدة الذهبية السلبية، إنها تمثل الهيكل العظمي لتركيب الأخلاق، لأنها تنص على ممنوعات أساسية لا غموض أو لبس فيها. القاعدة الذهبية السلبية هي عضلات وأعصاب النظام الأخلاقي والدستور الشخصي للسلوك الذي يسهل تطبيق النظام الشخصي للأخلاق.

ثلاثة مليارات سنة من الحياة على الأرض مضت واستمرت بسبب دافع واحد هو لدى جميع المخلوقات ومن ضمنها الجنس البشري، هو **افعل ما به أكثر منفعة ذاتية**. هذا الدافع غير القابل للتغيير هو مصدر جميع العواطف الأخرى لجميع الكائنات الحية. هذا الدافع هو أيضاً السلف للقاعدة الذهبية السلبية للأخلاق التي ظهرت أولاً في كتابات فترة نشوء الديانات الرئيسية والحضارات الإنسانية.

القاعدة الذهبية التي في التوراة والإنجيل والقرآن تنص على: عامل الناس بما تريدهم أن يعاملوك به.

القاعدة الذهبية السلبية تنص على:

لا تعامل الناس بما لا تريدهم أن يعاملوك به.

فصوص الحِكم هذه تعود إلى آلاف السنين. هي ظهرت في التعاليم اليهودية القديمة وكذلك في الأقوال المأثورة للبوذية في التيبت. لنقرأ جميعاً هذه الحكمة الأخلاقية وبعد أن نقرأها نحافظ عليها ونطبقها: «أي

شيء لا يسرّك لا تعمله للآخرين» القاعدة الذهبية للأخلاق المطمورة في كتب الديانات التقليدية هي مخالفة لعواطف الإنسان وحافز تطوره. هي تنص على: جميع الأشياء التي ترغب أن يعملها الآخرون لك اعملها أولاً للآخرين.

هناك أشياء أساسية مكروهة تنطبق بصورة منتظمة على جميع الجنس البشري. لا أحد يرغب مطلقاً أن يُقتَل أو يُجرح، لا أحد يرغب بأن يكون عبداً، ولا أحد يرغب أن تُصادر ممتلكاته.

هذه الأشياء المكروهة عالمياً هي السبب في تفوق تطبيق الأخلاق في القاعدة الذهبية السلبية: لا تعامل الناس بما لا تريدهم أن يعاملوك به.

لهذا السبب القاعدة الذهبية السلبية للأخلاق تخدم كهيكل أساسي لنظام الأخلاق الشخصية. دستور أخلاق يستند على القاعدة الذهبية السلبية هو يستند على العواطف الفكرية والطبيعية للجنس البشري. إعلان دستور أخلاق لدى ديانة ناشئة جديدة كان عاملاً مساعداً على انتشارها.

جميع الأديان تبنّت عقيدة، لائحة معينة لقواعد الأخلاق مهمة لدينهم. ما يثير الانتباه أن معظم الديانات وجدت أن القاعدة الذهبية فشلت في التطبيق. بدل ذلك استندوا في تأسيس دستور الأخلاق على القاعدة الذهبية السلبية التي أثبتت فعاليتها العالية.

البوذية: لا تؤذ أحداً بطريقة تعتبرها مؤذية لك.

اليهودية: ما هو مكروه لك لا تعمله لأخيك الإنسان.

الهندوسية: لا تعمل شيئاً لأحد يسبب الألم لك لو عوملت بمثله.

الكونفوشيوسية: لا تعمل للآخرين ما لا تريدهم أن يعملوه لك.

الزرادشتية: الطبيعة بحدّ ذاتها طيبة هي تمتنع عن عمل أي شيء للآخرين هو ليس إلهياً.

فقط المسيحية والإسلامية يتضمنون القاعدة الذهبية الإيجابية في نظامهم الأخلاقي رغم أن القاعدة الذهبية الإيجابية لا تعزز الأخلاق ولا توفر السعادة للبشرية.

المسيحية: جميع الأشياء مهما تكن إذا رغبت أن يعملها الآخرون لك كن البادئ واعمل الشيء نفسه إليهم. هذا هو القانون وهذه هي النبوءة.

الإسلامية: لا أحد يكون مؤمناً حتى يتمنى لأخيه ما يتمنى لنفسه.

المسيحية والإسلامية يعتمدون كذلك الوصايا العشر في أخلاقيتهم التي معظمها صيغت بأسلوب القاعدة الذهبية السلبية التي يجب على جميع دساتير الأخلاق اتباعها لكي تكون فعالة.

الوصايا العشر:

١ ـ لا تقتل. **٢ ـ لا تزن.**
٣ ـ لا تسرق. **٤ ـ لا تكذب.**
٥ ـ لا تحسد. **٦ ـ لا تتخذ إلهاً غير الله.**
٧ ـ لا تصنع صنماً تعبده. **٨ ـ لا تسئ استعمال اسم الله.**
٩ ـ احترم أمك وأباك. **١٠ ـ يوم السبت يوم مقدس.**

إذا رغبنا أن نعيش بانسجام مع الآخرين وأن لا نسبّب نزاعاً معهم يجب أن نحوّل القاعدة الذهبية الإيجابية إلى قاعدة ذهبية سلبية. فقط

القاعدة الذهبية السلبية هي في توافق مع غريزة الإنسان الفطرية للبقاء: **لا** تعمل للآخرين ما **لا** تريد للآخرين أن يعملوه لك.

دستور أخلاق مبني على مبادئ القاعدة الذهبية السلبية هو قصير جداً وخالٍ من رغباتنا التي نريد فرضها على الآخرين من دون طلبهم. فقط القاعدة الذهبية السلبية بإمكانها أن تثبت مبدأ التعايش السلمي بين الناس مسترشداً بما نفضّله لأنفسنا. مأساة التوافق العام هي مأساة حقيقية هي المأساة المركزية لحياتنا المعاصرة هي عمق مأساة مشاكل الأخلاق التي تقسمنا. نحن نحاول فهم ما هي الأخلاق من أين أتت وكيف أتت وكيف زرعت في أدمغتنا؟ نحاول فهم عمق مشكلة الأخلاق وكذلك الفرق بين المشاكل التي أدمغتنا صمّمت لحلها وخاصةً المشاكل المعاصرة التي نواجهها هذه الأيام. نحاول فهم الأخلاق وتحويلها إلى فلسفة أخلاقية عامة تشارك بها جميع الأديان، الأجناس، والقوميات البشرية.

سوف نتعلم أشياء مدهشة حول كيف نصنع القرار وكيف اختياراتنا تتأثر بالحضارة وبتركيبنا البيولوجي؟

* * *

الفصل الثاني

هل الأخلاق مطلقة أم نسبية؟ «مناظرة»

الأخلاق مطلقة

هو اعتقاد بأن هناك معياراً مطلقاً بموجبه تقاس الأفعال وتحاكم، أفعال معينة تكون صحيحة وأفعال أخرى تكون خطأً بغض النظر عن محتوى الفعل. لذلك الأفعال هي فطرياً إما أن تكون أخلاقية أو لا أخلاقية بغض النظر عن اعتقاد وهدف الفرد، المجتمع، والثقافة التي ترتبط بذلك الفعل. هم يعتبرون الأخلاق متأصلة بقانون الكون، بطبيعة الإنسان، بإرادة الله.

١ ـ النتائج:

الأخلاق الجيدة يجب أن تلاقي نتائج جيدة، والأخلاق السيئة يجب أن تلاقي نتائج سيئة. إذا يشعرك فعلها بالسعادة اعملها.

افعل ما يشعرك بالسعادة. جميع المواقف والأفعال غير الأخلاقية ما عدا الحسد يشعرنا بالسعادة. هذا هو السبب الرئيسي لفعلها.

إذا لم يكن الكفر لذة فإننا جميعاً سوف نكون قديسين. الأخلاق

النسبية لم تنتج ولا قديساً واحداً، ولم تنتج مجتمعاً جيداً واحداً، فقط تنتج المجتمعات السيئة. قارن الاستقرار، طول العمر، والسعادة لمجتمعات وُجِدت على مبدأ الأخلاق النسبية مثل المجتمع الإيطالي في زمن موسيليني والمجتمع الألماني في زمن هتلر مع مجتمعات وُجدت على مبدأ الأخلاق المطلقة مثل مجتمع النبي موسى ومجتمع الفيلسوف الهندي كونفوشيوس.

مجتمع بُني على مبدأ الأخلاق النسبية غالباً ما يدوم جيلاً واحداً فقط. جميع المذاهب الحديثة تقول: إن كلّ شخص له الحق لأن يبتدع لنفسه مذهباً خاصاً به وأن يحاول فرضه بجميع طاقته على الناس.

٢ ـ التقاليد:

الأخلاق المطلقة هي الإيمان بالمساواة والعدالة بين البشر: اجتماعياً، سياسياً واقتصادياً. هي روح الثورة والتغيير، مبادئها تقف ضدّ الظلم الاجتماعي، تقف ضدّ مجموعة صغيرة من الطبقة الحاكمة المتغطرسة التي تفرض أخلاقيتها النسبية على الشعوب التي تحكمها، مسخرين لذلك جميع وسائل الإعلام التي يسيطرون عليها، هم يتهمون أخلاقية شعوبهم بأنها أخلاقية التقاليد القديمة.

٣ ـ التجربة الأخلاقية:

أول تجربة أخلاقية أساسية يمر بها الإنسان هي تكون مطلقة وإلزامية بالنسبة له. فقط فيما بعد ومن خلال تجاربه بالحياة في بعض الأحيان تجعل الشخص يختار الأخلاق النسبية. كلّ واحد منا يتذكر من تجارب طفولتنا ما شعرنا به هو موقف أخلاقي ملزم. هو حُكم أخلاقي واحد لا

نقاش فيه. هذه الذاكرة نحتفظ بها وكأنها شيء مقدس هي كلمات «يجب» «صح» «خطأ» «ممنوع» «مسموح». الأخلاق المطلقة هي بالتأكيد مبنية على التجربة الحياتية. لنفرض في الليلة الماضية أنت وعدت صديقك أن تساعده في نقل أثاثه في الساعة الثامنة صباحاً لكنك سهرت الليلة الماضية حتى الثالثة صباحاً وعندما دق جرس الساعة المنبهة الساعة السابعة صباحاً كنت منهكاً جداً. سوف تشعر بإحساسين اثنين مختلفين:

١ ـ الرغبة في النوم.

٢ ـ التزامك الأخلاقي للوفاء بوعودك لصديقك والنهوض من النوم.

ستشعر أنك غير ملزم بالاستمرار بالنوم وليس لديك رغبة بالنهوض من النوم. إنك مدفوع برغبتك في النوم ومدفوع باتجاه آخر بما تعتقد أنه واجب عمله. شعورك بالنوم هو شعور داخلي يلبي حاجة جسدية غريزية «أنا» بينما شعورك بما يجب عمله هو شعور يأتي إليك من خارج جسدك من المجتمع. في داخلك رغبة للنوم يدعوك إلى تجاهل ساعة التوقيت والاستمرار في النوم. ولكنك إذا نهضت من النوم لتنفذ وعودك لصديقك كان هذا لأنك اخترت أن تستجيب لشيء مغاير تماماً: إدراكك للسلوك الأخلاقي الذي يستوجب عليك تنفيذ وعودك لصديقك هو يختلف تماماً عن إدراكك للسلوك الأخلاقي الذي يرفض تنفيذ وعودك. ما تدركه هو التزامك، هو صحيح أن تنهض من النوم، هو يسحبك إلى خارج جسمك من ذاتك من الـ«أنا» لتضحي بها في سبيل الجماعة. لكن الرغبة في النوم تجذبك إلى داخل جسمك. هذه هي المعضلة الأخلاقية بين الفرد والجماعة التي تحاول الأخلاق المطلقة إصلاحها.

٤ ـ الرياء :

الشخص الذي يستغيث بالمبادئ الأخلاقية النسبية «أنا إنسان نزيه، صادق» هو يبرر الإخلاء بوعوده بالإخلاص لزوجته ويذهب مع امرأة أخرى هو سوف يخل بوعده وبإخلاصه لمبادئه النسبية عندما تستعمل زوجته الجديدة المبادئ نفسها لتبرر ذهابها مع شخص آخر. هذا ليس استثنائياً ولكنه النموذج العام. إنه يبدو أن منشأ الأخلاق النسبية هو شخصي أكثر مما يكون فلسفياً: هو رياء أكثر مما يكون افتراضاً. التناقض بين ما هو نظري وما هو عملي يتضح جلياً في تدريس الأخلاق النسبية. لماذا تُدَرّس وتُكتَب الأخلاق النسبية؟ لإقناع العالم بأن الأخلاق النسبية هي «صح» والأخلاق المطلقة هي «خطأ»؟ هل حقاً هناك صح وخطأ؟ إذا كان الأمر كذا إذاً هناك حقاً صح وخطأ. وإذا لم يكن الأمر كذا فليس هناك شيء خطأ بوجود أخلاق مطلقة وليس هناك شيء صح بوجود أخلاق نسبية. إذاً لماذا تُكتَب الأخلاق النسبية وتُدرّس؟ كلّ الجهود التي يبذلها فلاسفة الأخلاق النسبية في التبشير بمنهاجهم الأخلاقي الذي يُخَلّص البشرية من أكاذيب وسخافة الأخلاق المطلقة يجعلنا نعتقد أنهم يؤمنون حقاً بمنهجهم الأخلاقي.

٥ ـ لغة الأخلاق :

الناس يتنازعون فيما بينهم، هُم لا يتقاتلون لكنهم يتخاصمون حول ما هو صح أو ما هو خطأ وكأنهم يؤمنون بحقيقة مطلقة، بمبادئ أخلاقية مرتبطين بها وملزمين بتنفيذها. إذا كان الأمر مجرد رغبات وانفعالات فإن الخصام يتخذ شكل المنافسة بين متنازعين. أو بين رغبتين متنافستين داخل ذات الإنسان.

إذا كنت أنا أكثر جوعاً من أن أكون منهكاً فإني سوف آكل. إذا كنت أكثر تعباً من أن أكون جوعان سوف أضطجع وأنام. لكننا نقول أشياء مثل: «هذا ليس عدلاً» أو «بأي حق أنت تعمل كذا؟». إذا كانت الأخلاق النسبية حقيقة فإن الجدل الأخلاقي يكون سخيفاً كالجدل حول ما نشعر به «لدي شعور جيد» كلا «أنا أشعر بشعور فظيع».

في الحقيقة لغة الأخلاق التي يستعملها الجميع كلّ يوم لغة ـ تمدح، تلوم، تنصح، تأمر، تكون بدون معنى إذا كانت الأخلاق النسبية حقيقية. نحن لا نمدح أو نلوم الماكنة. عندما تعطل السيارة نحن لا نتخاصم معها وننعتها بالغباء ونقول لها اذهبي إلى الجحيم نحن نرفسها وهذا تطبيق لما تبشر به الأخلاق النسبية «الرفس». لغة الأخلاق المطلقة مثل: الحق، السعادة، الحب، النزاهة، العدل، المساواة، هي ذات معنى وليست بدون معنى، نحن جميعاً نعرف هذا، نحن نعرف متى نستعملها، ونستعملها دائماً. الأخلاق النسبية لا يمكنها أن تفسر هذه الحقيقة.

الأخلاق نسبية

جوهر مشكلة الاعتقاد بالأخلاق المطلقة هو أن هناك قواعد أخلاقية مطلقة عالمية يجب على كلّ إنسان اتباعها؛ إذاً السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما هي هذه القواعد الأخلاقية، وكيف نعرّفها؟ بما أن ليس هناك حتى ولا دين واحد في التأريخ اتفق على قواعد أخلاقية مطلقة وطبقها. وحتى أعضاء الدين الواحد غالباً ما يختلفون فيما بينهم، لذا فنحن نعتقد أن مبدأ الأخلاق المطلقة هو عديم الفائدة. بما أن أي شخص يمكن أن يعلن أن

اعتقاده الأخلاقي هو مطلق (وكثير من الناس يدّعون ذلك)، ولا أحد يمكن أن يستعرض شرعية هذا الادعاء، كلّ هذا اعتباطي.

الأخلاق النسبية هي أخلاق عقلانية أو هي أخلاق فكرية يمكن استعمالها لكي نستمد القواعد الأخلاقية الأساسية مثل «لا تقتل» «لا تسرق» «عامل الناس بما تريد أن يعاملوك به». الفرق هو أن كلّ واحدة من هذه القواعد الأخلاقية لها تفسير فكري. هي تظهر حقيقتها في معظم الحالات إما عقلانياً أو من خلال التجربة في الماضي. اختلاف مهم آخر هو أن الأخلاق النسبية ترسم الخطوط العامة لتوجيه السلوك الأخلاقي، هي ليست قاعدة أخلاقية واحدة مُلزِمة تُستَعمل في كلّ زمان ومكان.

هذا الجزء من الأخلاق النسبية يزعج كثيراً من الناس، وهذا غالباً يسبّب عدم فهم ما قلناه بأن «القواعد يمكن مخالفتها». الأخلاق النسبية هي لا تختار مخالفة القواعد الأخلاقية بصورة اعتباطية لتلائم حاجاتها. القواعد الأخلاقية تم مخالفتها عندما تكون النتائج الإيجابية لمخالفة القواعد الأخلاقية هي أكثر نفعاً من النتائج الإيجابية لاتباع القواعد الأخلاقية. على سبيل المثال: قتل شخص بيده بندقية يقتل فيها جمع من الناس يكون فيه نفع عام وحماية لأرواح الأبرياء.

هذا هو المقصود بالأخلاق ليست مطلقة. الأخلاق هي أدوات تساعدنا على صنع القرارات التي تحسِّن حياتنا وحياة مجتمعنا. سلوك أخلاقي ملزم سوف يفشل لخدمة هذا الغرض، خاصةً إذا كان هذا الإلزام هو اعتباطي وغير عقلاني. الأخلاق النسبية غالباً ما تُتَهم بأنها اعتباطية أو أنها تسمح لأي شيء، لكن في الحقيقة إن العكس هو صحيح. إن

الأخلاق المطلقة هي التي تكون اعتباطية حقاً، الأخلاق المطلقة لها قواعد أخلاقية محددة غير متغيرة لكن هذه القواعد غير المتغيرة هي تتغير من شخص إلى آخر ومن دين إلى آخر. ما هو كفر وحرام لشخص ما هو محلل لشخص آخر. هذا يُظهر الحقيقة القاسية: ليس هناك شيء اسمه الأخلاق المطلقة. جميع الأخلاق هي نسبية. عندما نستوعب هذا يمكن أن نبدأ المناقشة الحقيقية حول ما هي القواعد الأخلاقية؟، وهذا النقاش يمكن أن يستند على العقل والحقائق.

الله جبار ورحمان رحيم هو لم يخلقنا ليكون لنا إحساس ناقص بالأخلاق. إذا حاول خلقنا بصورة كاملة وفشل إذاً هو ليس جباراً عظيماً. لكن إذا هو خلقنا كما يرغب ولكننا لا نمتلك إحساساً كاملاً للأخلاق إذاً هو ليس رحمان رحيم. إنها ضمن إمكانيته لخلق كائنات لا ترتكب إثماً لكن بدل ذلك هو صنع الشرّ الأعظم في العالم عندما خلق الإنسان. التفاصيل الدقيقة لإحساسنا الأخلاقي لم تُعبِّر عن إرادتنا الحرة. حريتنا في اتباع الأخلاق الغريزية تبقى كما هي على الرغم من أن الأخلاق الغريزية ترشدنا إلى ما هو حق. المشكلة هي ليست في افتقارنا لحرية اختيار الشرّ، هي في افتقارنا المقدرة لمعرفة الشرّ. نحن نمتلك رغبات أنانية، المقدرة على خداع أنفسنا وتبرير أفعالنا وهذا يقود إلى ظلم عظيم. ما هو أسوأ من ذلك في ضوء العدالة الإلهية التي كُشفَت لنا في الكتب السماوية هو أننا نمتلك قواعد أخلاقية سيئة جداً. أي إنسان لو نظر عميقاً في داخله وطرح الفكرة الفلسفية الفارغة على نفسه: بأن الله يقاضي النفوس سوف يرتعب بما يأمر به الله في الكتب المقدسة، لذلك فبالنسبة إلى أي دين من الديانات التقليدية، الإنسان سوف يستنتج لو أن الله حقاً زرع فينا الحسّ الأخلاقي

الذي هو مخالف لطبيعته فإن هذا الإله هو شرير. لذلك نحن توصلنا إلى نتيجة هي: أن لا وجود للإله الدكتاتور الجبار العظيم الرحمن الرحيم المنفصل عن الإنسان. الله هو واحد أحد كلي الوجود.

١) علم النفس:

الدوافع الشخصية للإنسان هي غالباً ما تكون مصدراً قوياً للأخلاق النسبية مقارنةً بالأخلاق الفكرية ـ هذه حجة مقبولة. إذاً يجب أن نسأل: ما هو الدافع الرئيسي لتفضيل الأخلاق النسبية على الأخلاق المطلقة؟ بما أن عمق رغبتنا هو أن نكون سعداء، وبما أن الخوف يتطابق مع الشعور بالذنب، لذلك فإن **الخوف** الذي تزرعه فينا الأخلاق المطلقة يجعلنا غير سعداء لأنها تشعرنا بالذنب ـ لذلك نحن ننعت الأخلاق المطلقة بأنها خالية من الحب والشفقة. الأخلاق الجيدة تؤدي إلى نتائج جيدة، والأخلاق السيئة تؤدي إلى نتائج سيئة ـ الشعور بالكآبة والشعور بالذنب هي نتائج سيئة، بينما الشعور بالسعادة والثقة بالنفس هي نتائج جيدة. الأخلاق المطلقة تنتج شعوراً سيئاً بالذنب والكآبة بينما الأخلاق النسبية تنتج شعوراً جيداً بالسعادة والثقة بالنفس. لذلك فإن الأخلاق المطلقة هي سيئة والأخلاق النسبية هي جيدة.

جواب **الأخلاق المطلقة** في هذه المناقشة هو: إن قوانين الأخلاق المطلقة وجدت ليس لتقليل بل لزيادة سعادة البشرية لذلك هي تزيد المحبة والشفقة. إنك لا تكون سعيداً إذا أكلت السم أو رميت بنفسك في النهر من فوق جسر. وماذا عن الشعور بالذنب؟ إلغاء القوانين الأخلاقية المطلقة سوف يلغي الشعور بالذنب وهذا الشعور سوف يجعل منك إنساناً سعيداً

على المدى القصير. لكن الشعور بالذنب هو كالشعور بالألم، هو ضروري لتفادي ألم أكبر وكآبة أكثر على المدى الطويل. لأجل منع الأذى فإن الشعور بالذنب الّذي هو تحذير الروح مطابق تماماً للألم الذي هو تحذير الجسم.

٢) التلقين:

الأخلاق النسبية هي تجارب حياتية حقيقية. ثقافات مختلفة ومجتمعات مختلفة وأشخاص مختلفون يمتلكون قيماً أخلاقية مختلفة. شعب الأسكيمو يقتلون كبار السن، الناس تعتبر قتل أي إنسان هو خطأ. هذا ليس صحيحاً دائماً. القتل يحتل مكاناً طبيعياً في بعض الثقافات. شعب الأسكيمو يمارسون قتل الأطفال الرضع من البنات وكذلك كبار السن. كبار السن أصبحت عظامهم هشّة وهم ضعفاء للمساهمة في حياة الجماعة وهم لا يزالون يستهلكون كميات من الطعام الثمين النادر. هذه الممارسة هي ضرورية للإبقاء على حياة الجماعة. رجال قبائل الأسكيمو يمتازون بمعدلٍ عالٍ في نسبة الوفيات لأنهم يجهزون القبيلة بالطعام الذي يحصلون عليه من الصيد، وقتل الأطفال الرضع من الإناث يساعد على المحافظة على التوازن لأجل الإبقاء على حياة الجماعة. لهذا السبب قتل الأطفال الرضع من الفتيات وقتل الرجال الكبار السن هو لا يشير إلى أن شعب الأسكيمو يمتازون بالوحشية أو تنقصهم الشفقة على الأطفال أو كبار السن أو هم لا يحترمون الحياة البشرية.

هو ليس غير الاعتراف بالحاجة إلى القتل في بعض الأحيان لضمان بقاء شعب الأسكيمو ومنعهم من الانقراض. في الولايات المتحدة

الأميركية يضعون كبار السن في دور خاصة للعجزة حتى لا يكونون عبئاً على عوائلهم، يقدمون لهم جميع الخدمات المجانية حتى يموتون بكرامة وبصورة طبيعية.

في الثقافة المعاصرة ممارسة الجنس بين رجل وامرأة من دون زواج هو شيء مقبول، في الديانات التقليدية هذا شيء خطأ. دخول المساجد الإسلامية من دون نزع الحذاء هو ممنوع بينما يدخل المسيحيون الكنائس بأحذيتهم.

لذلك فأي شخص يعتقد أن القيم الأخلاقية لا تنتسب إلى الثقافة والتقاليد هو بكلّ بساطة ينكر الحقائق. ما هو صحيح أخلاقياً هو طاعة قيم المجتمع الذي نعيش فيه. والقيم تختلف من مجتمع إلى آخر. ما هو خطأ في مجتمع ما هو صحيح في مجتمع آخر؟ فلاسفة الأخلاق المطلقة يرفضون طاعة القيم الأخلاقية للمجتمع الذي يعيشون فيه. هم يمتلكون قواعد أخلاقية عالمية تمثّل جميع المجتمعات والثقافات في جميع العصور بموجبها ينتقدون القيم الأخلاقية المحلية، لذلك هم متطورون ومتحررون بينما فلاسفة الأخلاق النسبية هم حافظون وجامدون، ليس لديهم موازين أخلاقية تتعدى قيمهم المحلية التي تلائم حياتهم اليومية. بين طيات القوانين الاجتماعية للشعوب المختلفة توجد قوانين أخلاقية إنسانية شاملة. هناك أخلاق متشابهة بين طيات أخلاقيات المجتمعات المختلفة. التوافق الأخلاقي بين «النبي موسى، بوذا، كونفوشيوس، لاتزو، سقراط، النبي سليمان الحكيم، النبي عيسى المسيح، النبي محمد وحمورابي» هو أكثر من عدم التوافق.

٣) التكيف الاجتماعي:

المجتمع يضع القيم الأخلاقية فينا. إذا ولدنا في مجتمع هندوسي، يكون لدينا قيماً أخلاقية هندوسية، وإذا ولدنا في مجتمع عربي مسلم يكون لدينا قيماً أخلاقية عربية إسلامية.

يبدو أن منشأ القيم الأخلاقية هو العقل البشري، الآباء والمدرسون يغرسون القيم الأخلاقية فينا منذ الصغر، هي ليست شيئاً خارجاً عن ذات الإنسان وفكره. وما يصدر من ذات الإنسان هو سلوك شخصي تماماً كقواعد لعبة كرة القدم، حتى وإن كانت عامة ومعروفة من قبل جميع الناس في العالم هي تخص لعبة كرة القدم فقط. لا يمكن الخلط بين قيم الجماعة والقيم الاجتماعية العامة. ربما المجتمع يغرس فينا قيم الجماعة أو القومية أو الدين لكن هذا لا يعني أنه يغرس فينا القيم الاجتماعية العامة التي تخص جميع البشر ما لم تكن القيم الاجتماعية العامة هي القيم الأخلاقية لتلك الجماعة. وهذا هو موضوع النقاش. هناك أيضاً افتراض خاطئ في هذه المناقشة هو أن ما نتعلمه من المجتمع يجب أن يكون من ذات الإنسان. وهذا غير صحيح. نحن نتعلم قواعد لعبة كرة القدم من المجتمع وكذلك نتعلم قواعد الضرب في الرياضيات من المجتمع. قواعد لعبة كرة القدم هي شخصية من صنع الإنسان. قواعد الضرب في الرياضيات هي ليست شخصية. نظام اللغة التي نستعملها للتعبير عن أي قانون هي دائماً من صنع الإنسان. إن عقل الإنسان يخلق بدلاً من أن يكتشف قواعد لعبة كرة القدم وأن العقل يكتشف بدلاً من أن يخلق قواعد الضرب في الرياضيات.

إذاً حقيقة كوننا نتعلم أي قانون أو قاعدة أخلاقية من المجتمع الذي نعيش فيه لا يثبت أن كلّ ما نتعلمه من المجتمع هو نابع من ذات الإنسان ويخص جماعة بشرية معينة. إننا يمكن أن نتعلم قيماً إنسانية شاملة من المجتمع الذي نعيش فيه. إذا كان كلّ ما نتعلمه من أخلاق هو نابع من المجتمع الذي نعيش فيه ويخص ذلك المجتمع فقط، إذاً ليس هناك شخص واحد لا تتطابق مفاهيمه الأخلاقية مع ذلك المجتمع. لكن في الحقيقة هناك مبادئ أخلاقية كثيرة لا تتطابق مع القواعد الأخلاقية للجماعة ـ هؤلاء الأشخاص الرافضون للقواعد الأخلاقية لمجتمعهم (الأنبياء، الحكماء، الثوريون) بما أنهم لا يتفقون مع أخلاقية مجتمعهم فهم لم يستمدوا أخلاقيتهم بصورة كاملة من المجتمع الذي يعيشون فيه. إذاً وجود أشخاص يرفضون القواعد الأخلاقية في مجتمع ما هو دليل تجريبي على وجود أخلاقية إنسانية شاملة في كلّ مجتمع.

٤) الحرية:

الأخلاق النسبية فقط تضمن الحرية، بينما الأخلاق المطلقة تهدّد الحرية. الناس غالباً ما تنتابهم الحيرة: كيف يكونون حقاً أحراراً إذا لم يكونوا أحراراً في خلق قيمهم الأخلاقية الخاصة؟ الشخص الذي يطالب بحقه في أن يكون حرّاً يجب أن يكون حرّاً في خلق قيمه الأخلاقية، لكن القيم الأخلاقية التي يختار أن يخلقها لنفسه ليس لها معنى لأنه يصبح الله، هو يطلب حقه من الناس في الخضوع والطاعة العمياء. هو سريعاً ما يحتج باسم الحق والعدالة ويتظاهر بإيمانه الحقيقي بهذه القيم الإنسانية. إذا لم يفعل هذا واحتج باسم الأخلاق البديلة التي خلقها لنفسه، إذاً احتياجه ضدّ

أنانيتك وسطوتك وجبروتك هو ليس أحسن من احتجاجك ضدّ الحق والعدالة التي يدعيها. الحرية لا يمكن أن تخلق قيماً أخلاقية لأن الحرية هي قيمة أخلاقية ملزمة. لماذا الحرية هي أخلاق ملزمة؟

أولاً: لأن فلاسفة الأخلاق النسبية يدعون أنهم يضمنون الحرية، إذاً هم حتماً يفترضون أن الحرية هي قيمة أخلاقية حقيقية، لذا هم على الأقل يفترضون وجود قيمة أخلاقية شاملة.

ثانياً: إذا كانت الحرية هي شيء جيد، إذاً هي حتماً التحرّر من شيء فاسد، وهذا يفترض وجود شيء جيد وشيء فاسد. وأخلاقية عالمية جيدة وأخلاقية عالمية فاسدة.

ثالثاً: المدافعون عن الحرية هم دائماً يصرّون على أن الحرية يجب أن تكون مضمونة للجميع وليس للبعض، وهذا ينطبق على قيم اجتماعية حقيقية أخرى مثل العدالة والمساواة والقاعدة الذهبية (احترام حرية الآخرين، الآخرون يحترمون حريتك). التجارب تعلمنا بأننا أحرار لخلق بدائل أخلاقية مثل القواعد الاجتماعية المقبولة في الكلام، اللباس، الطعام، القيادة. وكذلك تعلمنا بأننا لسنا أحراراً لخلق بدائل أخلاقية نحلّل بها القتل، الاغتصاب، الخيانة، ونعتبرها شيئاً صحيحاً، أن نجعل من العدالة والإحسان شيئاً خطأً. نحن ليس بإمكاننا أن نخلق مبادئ أخلاقية أساسية جديدة تماماً كما لا يمكننا أن نخلق ألواناً أساسية جديدة مثل اللون الأحمر والأزرق والأصفر في هذا الكون أو علم حساب جديد أو كون جديد.

لم يحدث في الماضي وسوف لن يحدث في المستقبل، وإذا تمكنا من خلق مبادئ جديدة فإنها سوف لا تكون مبادئ أخلاقية. سوف تكون

قواعد اعتباطية مبتكرة للعبة. سوف لا يكون ضميرنا مرتبطاً بها أو نشعر بالذنب إذا انتهكناها. إذا كنا أحراراً في خلق مبدأ «اقتل» أو «لا تقتل» تماماً كما نحن أحرار في سن قواعد لعبة كرة القدم «العب شوطاً واحداً» أو العدالة، المساواة، الحرية، والقاعدة الذهبية (احترم حرية الآخرين، الآخرون يحترمون حريتك). نحن نختبر حرية إرادتنا في اختيار أن نطيعها أو لا نطيعها، كذلك نحن نختبر فقدان الحرية في تغيرها إلى شيء معاكس ـ نحن لا نستطيع بصورة خلاقة أن نجعل من الكراهية شيئاً جيداً أو من الحب شيئاً خبيثاً. حاول أن تفعل ذلك، ليس بمقدورك. كلّ ما تستطيع عمله هو أن ترفض جميع القيم الأخلاقية ولا يمكنك أن تصنع بديلاً لها. يمكنك أن تزني لكنك لست ملزماً أخلاقياً بأن تزني.

٥) التسامح:

الأخلاق النسبية متسامحة والأخلاق المطلقة غير متسامحة. التسامح هي واحدة من القيم الأخلاقية غير القابلة للجدل اليوم.

تقريباً كلّ فرد في المجتمع يتقبلها. هي سلعة تُدمج مع أي نظرية أو فكرة لتسهل رواجها. ماذا عن ادعاء الأخلاق النسبية التسامح؟

هناك ثمان مغالطات في هذه المناقشة:

أولاً: لنكن واضحين بما نعنيه بالتسامح ـ المتسامحون هم نوعية من الناس وليست أفكاراً. الأفكار يمكن أن تكون مشوشة، غير واضحة وغير صحيحة، وهذا لا يجعل منها متسامحة. ويمكن أن تكون واضحة وصحيحة وهذا لا يجعل منها غير متسامحة.

النظرية الماركسية هي نظرية غير صحيحة وأثبتت فشلها، لكن الأحزاب الشيوعية التي تبنتها لا تتسامح مع من يعارضها أو يرفضها. بينما الفيلسوف اليوناني سقراط يتسامح مع من يعارض وجهات نظره وأفكاره الواضحة.

ثانياً: فلاسفة الأخلاق النسبية يَدَّعون أن الأخلاق المطلقة هي قوانين أخلاقية موضوعية عالمية من خارج كيان الإنسان، غير متغيرة تعزّز عدم التسامح مع وجهات نظر مخالفة. لكن هذا الأمر يختلف بالنسبة للعلم. العلم استفاد وتقدّم بصورة استثنائية بسبب التسامح مع وجهات نظر ابتداعية. مع أن هذا العلم لا يمثّل حقيقة شخصية ولكن هو يمثل الحقيقة الموضوعية المطلقة. لهذا الحقيقة المطلقة هي ليست بالضرورة تؤدي إلى عدم التسامح.

ثالثاً: فلاسفة الأخلاق النسبية يتهمون الأخلاق المطلقة بأنها قاسية وصلبة ولذلك فإن المدافعين عنها هم قُساة وأصلاب. إن هذا كلام آخر خارج عن المنطق، إذ يمكن أن تُدَرس الحقائق الصلبة بأسلوب سهل ويمكن أن تُدرس آراء سهلة بأسلوب صلب.

رابعاً: أبسط تفنيد لمناقشة التسامح هو ما تنص عليه. المناقشة تفرض أن التسامح هو حقاً موضوعي، عالمي، جيد بصورة مطلقة. إذا أجاب فلاسفة الأخلاق النسبية بأنهم لا يفترضون ضمناً أن التسامح هو قيمة أخلاقية مطلقة، إذاً كلّ ما يقوم به هؤلاء هو المطالبة بفرض ما يختارون من الأخلاق الشخصية وتصنيفها بأنها متسامحة. وهذا حقاً أكثر عدم تسامح من الاحتكام بالقوانين الأخلاقية المطلقة العالمية وغير الشخصية. إذا لم تكن هناك قوانين أخلاقية مطلقة فلا وجود للتسامح.

فلاسفة الأخلاق المطلقة ينظرون إلى التسامح نظرة أكثر جدية مما ينظر إليها فلاسفة الأخلاق النسبية، إنها الأخلاق المطلقة وليست الأخلاق النسبية التي تعزّز التسامح.

خامساً: إنها الأخلاق النسبية التي تعزّز عدم التسامح. لماذا أنتم غير متسامحين؟ ليس لديهم جواب. لأن التسامح يحسّسنا بشعور جيد؟ أو لأن التسامح هو مقبول من الجميع؟ حسناً لنفترض أن التسامح يحسسنا بشعور جيد، وأصبح غير مقبول من قبل الجميع فإن فلاسفة الأخلاق النسبية سوف لا يحتكمون إلى قانون أخلاقي كسدّ واقٍ ضدّ فيضان عدم التسامح. نحن بحاجة ماسة إلى مثل هذا السدّ الواقي لأن المجتمعات البشرية مثلها مثل الأفراد خربت ضمائرهم وطغت نفوسهم ونسوا دينهم وتنكروا لربهم.

ماذا غير هذا السد الواقي الذي بُني على الأخلاق المطلقة كان بإمكانه أن يمنع إنسانية الشعب الألماني من أن يتحول إلى شعب لاإنساني بعد تبنيه الفلسفة النسبية النازية التي ادعت تفوق العرق الآري. أم اليهود الذين كانوا ضحية الفلسفة النسبية النازية، تحولوا إلى شعب مغتصب لأرض فلسطين، شردوا الشعب الفلسطيني واستباحوا أراضيهم وممتلكاتهم، عذبوهم وقتلوهم، هم يفعلون بالفلسطينيين ما فعل بهم الحزب النازي.

ماذا غير هذا السدّ الواقي المبني من الأخلاق المطلقة الذي يمنع الشعب الأميركي المتكون من مجموعات عرقية وقوميات وشعوب مختلفة تتسامح مع بعضها البعض من أن تتحول إلى شعب غير متسامح مع العرب مثلاً وتحرمهم من جميع حقوقهم. بعد تفجير مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك سنة (٢٠٠١) شُنَّت حرب إعلامية واسعة ضدّ العرب

والمسلمين كان يديرها المسيطرون على وسائل الإعلام في أميركا. هذه الحرب الإعلامية هي أخلاقية نسبية مبنية على العنصرية والكراهية، نتيجة ذلك أصبح العرب والمسلمون أناساً مشكوكاً فيهم ويعاملون معاملة سيئة في المطارات الدولية، وتم اضطهاد البعض والاعتداء عليهم وهذه كانت حالات خاصة محدودة وهي ليست السلوك العام للشعب الأميركي. كذلك حدث الشيء نفسه للإيرانيين في أميركا سنة (١٩٨٠) بعد ثورة الإمام الخميني احتجز حرس الثورة الإيرانية موظفي السفارة الأميركية في طهران لمدة سنة تقريباً، حينها عومل الإيرانيون في أميركا معاملة سيئة. الأخلاق النسبية هي الطفل غير المولود اليوم والذي سوف يولد غداً.

إنها أخلاقية السياسي الذي يدافع عن حقوق الناس، يعدهم بالعدالة والمساواة لكن بعد أن يستلم السلطة يتحول إلى دكتاتور طاغية يبتز حقوق الناس ويضطهدهم. فقط الأخلاق المطلقة التي يخافها السياسيون لأنها لا تتسامح مع سلوكهم هي الوحيدة التي تؤمّن لهم الحماية في عدم التسامح مع أنفسهم.

سادساً: نظرة فاحصة للمعنى الجوهري لمبدأ التسامح يكشف أنها أخلاقية مطلقة مُلزِمة. نحن لا نتسامح مع الأشياء الجيدة. نحن فقط نتسامح مع الأشياء السيئة لكي نمنع أسوأ النتائج.

مريض السرطان يتحمل أو يتسامح مع أعراض أدوية السرطان التي تسبّب الغثيان والتعب وسقوط الشعر لكي يمنع الموت من السرطان. والمجتمع يتسامح مع الأشياء السيئة مثل التدخين لكي يحمي الأشياء الجيدة مثل الخصوصية والحرية الشخصية.

سابعاً: مناصرو التسامح يواجهون معضلة عندما يكون التسامح بين الجماعات والأديان والقوميات والأعراق المختلفة. معظم الثقافات والأديان خلال التأريخ البشري لم تعطي أهمية مميزة لموضوع التسامح. في الحقيقة بعضهم اعتبر مبدأ التسامح هو ميزة أخلاقية تدل على الضعف ـ هل علينا التسامح مع عدم التسامح؟ هل علينا قبول عدم التسامح؟

إذا كان الأمر كذلك وقبلنا عدم التسامح إذاً علينا قبول الجماعات الإرهابية غير المتسامحة في تفسيرها لقوانين الشريعة الإسلامية، وقبول الأحزاب القومية والأحزاب الطائفية، وقبول العنصرية والفوارق الطبقية ودكتاتورية الحكام. وإذا لم نتسامح مع عدم التسامح، لكن لماذا؟ لأن التسامح هو حقاً جيد، والجماعات الإرهابية التي تستخدم الدين كذريعة هي تخدم الشيطان؟ في هذه الحالة نحن نفترض أن التسامح هو قيمة أخلاقية مطلقة عالمية تُسهِّل التعايش بين الجماعات العرقية، القومية، الدينية، والأحزاب السياسية المختلفة.

ثامناً: هناك استدلال غير منطقي لدى فلاسفة الأخلاق النسبية هو حتى وإن كان الاعتقاد بأن الأخلاق المطلقة لا تتقبل التسامح كما يقولون، هذا لا يعني أن الأخلاق المطلقة هي ليست حقيقية. الاعتقاد بأن الحارس الليلي لو نام أثناء الليل سوف يسمح للسارق بأن يكون غير متسامح مع ضحيته، لكن هذا لا يعني أن الحارس الليلي هو غير نائم. لذا هناك ثمان نقاط ضعف في مناقشة التسامح.

٦) الظروف:

الظروف تختلف جداً ومعقدة، هي تبدو غير معقولة وغير حقيقية

بالنسبة للأخلاق المطلقة. حتى القتل يمكن تبريره إذا كانت الحرب ضرورية من أجل السلام. حتى السرقة هي شيء جيّد لو سرقت السلاح من إنسان مجنون. أو سرقت رغيف خبز لتطعم إنسان جائع (قال أبو ذر الغفاري: عجبي من امرئٍ لا يجد القوت في بيته ولم يخرج شاهراً سيفه على الناس). حتى الكذب هو جيد لو خبأت إنساناً بريئاً في دارك وكذبت على من يريد قتله. المناقشة هي أن الأخلاق تحدّدها الظروف، والظروف هي نسبية، لذلك الأخلاق هي نسبية. الأخلاق هي نسبية لأنها تُقَرّر بالدوافع. نحن جميعاً نلوم شخصاً ما لو أردنا قتله حتى وإن لم ننجز هذه المهمة بنجاح، بكلّ بساطة لأن الدافع هو سيّئ. لكننا لا نضع اللوم على أحد ونحمّله الشعور بالذنب إذا قتل أحداً بصورة غير متعمدة ـ على سبيل المثال إعطاء قطعة حلوى إلى طفل مصاب بداء السكر من دون أن نعلم ذلك.

إن الأخلاق تقررها الدوافع والدوافع هي شخصية، لذلك فإن الظروف هي نسبية شخصية.

كلّ من فلاسفة الظروف والدوافع هم ضدّ الأخلاق المطلقة. فلاسفة الظروف يرون جميع الأخلاق هي نسبية تتبع الظروف. وفلاسفة الدوافع يرون جميع الأخلاق هي نسبية تتبع الدوافع.

فلاسفة الأخلاق المطلقة يجيبون على ذلك مستندين على المبادئ العامة ويقولون: إن الأخلاق هي في الحقيقة تتكيف وتُقرر جزئياً بالظروف والدوافع. لكنها لا تُقَرر بصورة كلية بالظروف والدوافع. أخلاقية العرف العام والتقاليد تتضمن ثلاثة قرارات أخلاقية وثلاثة عوامل تحدد هل الفعل مقبول أو غير مقبول أخلاقياً؟:

طبيعة الفعل ذاته، **الظرف**، **الدافع**.

أو ماذا تعمل في وقت ما، مكان ما وكيف تعمله ولماذا تعمله؟ إنه حقاً العمل الصالح في الظرف غير الملائم أو الدافع الخطأ هو شيء غير صحيح. معاشرة الزوجة هو عمل صالح لكن معاشرتها أثناء إصابتها بمرض جنسي هو شيء خطر وخطأ. العمل هو جيد لكن لا يلائم الظرف.

إعطاء المال إلى الفقراء هو عمل صالح لكن إعطاءه فقط للتظاهر بأنك محسن كريم هو شيء خطأ. العمل هو الصالح لكن الدافع هو خطأ.

يجب أن يكون هناك عمل أولاً قبل أن يؤهل لأن يكون هناك دافع شخصي أو ظرف مناسب وهذا بالتأكيد عامل أخلاقي مناسب أيضاً.

الحياة الجيدة هي كلوحة فنية رائعة أو قصة جيدة. اللوحة الفنية الرائعة تحتاج إلى العناصر الأساسية لكي تكون رائعة، والقصة الجيدة يجب أن تحتوي على أحداث جيدة مشوقة، شخصيات جيدة، وموضوع جيد. لهذا فالحياة الجيدة تحتاج منك أن تقوم بالأعمال الجيدة، العمل نفسه يجب أن يكون جيداً، سبب العمل، **الدافع**، وأن تقوم به بصورة صحيحة في **الظرف** المناسب.

أبعد من ذلك، الظروف رغم أنها نسبية هي مطلقة وليست شخصية. والدوافع رغم أنها شخصية هي تأتي تحت مظلة الأخلاق المطلقة. هي يمكن اعتبارها إما سيئة أو جيدة في جوهرها العام. الرغبة في مساعدة الآخرين هي دائماً جيدة، الرغبة لإيذاء الآخرين هي دائماً سيئة حتى وإن كانت الظروف أخلاقية مطلقة، وحتى وإن كانت الدوافع الشخصية أخلاقية

مطلقة. الحقيقة هي أن المبادئ نفسها يجب أن تُطَبَّق بصورة مختلفة باختلاف الظروف مفترضين صحة هذه المبادئ. الأخلاق المطلقة لا تكون مطلقة عندما نطبِّقها في ظروف معينة هي يمكن أن تكون مرنة. تطبيق مرن للأخلاق الأساسية المطلقة لا يغيّر من طبيعتها كونها أساسية وصلبة. إذا كانت الأخلاق المطلقة مرنة تماماً كالظرف فهي لم تكن أساسية مطلقة. إذا كان شريط القياس (الفيتة) الذي نحاول به قياس طول تمساح يدور ويتقلب، إذا كان الشريط يدور ويتقلب مع التمساح، لا يمكننا قياس طول التمساح. شريط القياس يجب أن يكون صلباً. والأخلاق المطلقة لا تحتاج أن تكون صلبة لتقاضي الدوافع لكن تحتاج أن تكون صلبة لتقاضي الأفعال. لا تقاضٍ ما في قلوب الناس من دوافع لأن الله فقط يعلم ما في القلوب. فقط الأخلاق المطلقة وليست الأخلاق النسبية بإمكانها أن تدين دوافع من يقاضي الناس، ذلك لأن الأخلاق المطلقة وحدها بإمكانها أن تدين عدم التسامح. الأخلاق النسبية بإمكانها فقط أن تدين الأخلاق المطلقة.

* * *

الفصل الثالث

الأخلاق النسبية

الأخلاق النسبية هي اختيار موقف معين تجاه الحياة، موقف منتشر بصورة كبيرة بين الشعوب والجماعات. هو تحريف لما هو ملزم أخلاقياً وتحويله إلى قانون للقمع. إنه سلوك سلبي يجب على علم النفس وعلم الفقه أن يشنوا حرباً عليه. الأخلاق النسبية بحدّ ذاتها لا تعني شيئاً سلبياً.

هي أصلاً نظام من الأخلاق بُني على السلوك الإلزامي تطور في ثقافة معينة، هي تعتمد على صلتها بتلك الثقافة ومحددة بتأريخها. النظام الأخلاقي يحكم صلته الحميمة بالنُّظم الثقافية، لها ميول لأن تصبح أداة للاضطهاد إذا النظام الاجتماعي تغيّر، السلطات الأخلاقية تتمسك بالنظام الأخلاقي القديم ويمنعون التجديد. الأخلاق أصلاً هي تعبير عن السلوك المطلوب. هي وظيفة الإنسان كإنسان. من دون الأخلاق هو ليس إنساناً. كائن مجرد من الشعور بما هو مطلوب سلوكياً هو ليس إنساناً. المجرم هو شاهد على أن الإنسان يمكن أن يناقض نفسه. حتى المجرم له أخلاقية والتزام سلوكي، هو يتبع الدستور الأخلاقي للجماعة الإرهابية التي ينتمي إليها والتي تتناقض مع الأخلاق المقبولة في المجتمع. أفكار مصنعة

وطقوس وشعائر فرضت على أفراد وجماعات باسم الحقيقة المطلقة مستعملين السلطات وأساليب القمع. النتائج المدمرة لهذه الأساليب الشيطانية المطلقة أنتجت ردّة فعل حتى ضدّ كلّ شيء اسمه مطلق. أصبحت كلمة مطلق تثير الغضب والمقاومة. لكن العلماء في أسلوب البحث عن الحقيقة العلمية هم يتبعون قواعد فكرية في تفكيرهم ويتصرفون وفق قانون النزاهة العلمية في تفكيرهم وفي كلامهم. شخصيتهم كعلماء تعتمد على قبولهم المطلق لهذه المبادئ. وهذا يقودنا إلى فهم عام لصفة المطلق في السلوك المطلوب.

يجب التمييز بين الأخلاق غير المشروطة ـ **المطلقة والأخلاق النسبية** التي هي صحيحة فقط لجماعة معينة. هناك نوعيات مختلفة لأخلاق الجماعة. وكلّ أخلاقية يجب أن تحافظ على نفسها ضدّ أخلاقيات الجماعات الأخرى فتصبح متعصبة، والتعصب هو عبارة عن محاولة الفرد لتطهير نفسه ممّا يعتبره رذيلة وإذا وجد هذا الفرد الرذيلة التي طهّر نفسه منها في شخص آخر هو سوف يحارب ذلك الشخص بصورة مميتة لأنه سوف يعرض نجاحه للخطر. السلوك الأخلاقي المطلوب هو ليس قانوناً غريباً فُرض علينا، إنه قانون كياننا. جوهرنا وضع ضدّ ذاتنا الشخصية في كياننا الحقيقي (الملاك والشيطان في كيان واحد).

الرب الذي يفرض علينا أوامره يجب مقاومته وقتله لأنه ليس بإمكان أي أحد تحمّله. نحن لا يمكن أن نكون مطيعين لأوامر الغريب حتى وإن كان هذا الغريب هو الله. ولا يمكن أن نقبل بدون شروط محتويات السلوك المطلوب من سلطات بشرية، كالتقاليد وقواعد السلوك المرعية،

ولا من سلطة سياسية أو دينية، ليس هناك سلطة مطلقة فيها الفرد يعتمد عليها بصورة كبيرة ولكن ليس أي واحد منها تام وصحيح.

الأخلاق كتأكيد لجوهر كيان الإنسان هي تامة، هي الشكل النقي لجوهر كيان الإنسان وهي مطلقة، هي نظام صلب لما هو مطلوب أخلاقياً. أما تأكيد الذات أخلاقياً وسلوكياً فهو شيء غير مطلق ونسبي، مرتبط بأخلاق الجماعة وليس بالأخلاق المطلقة. قانون الطبيعة هو قانون غُرِسَ في جوهر طبيعة الإنسان منذ خلقه، لكن الإنسان فقده عندما عصا أمر الله وسقط من الجنة، ذَكَرنا الأنبياء موسى وعيسى ومحمد ﷺ بأن لا فرق بين قانون الطبيعة والقوانين والتشريعات العشرة التي ذُكِرَت في الكتب السماوية:

١ ـ لا تقتل. **٢ ـ لا تزن.**

٣ ـ لا تسرق. **٤ ـ لا تكذب.**

٥ ـ لا تحسد. **٦ ـ لا تعبد إلهاً غير الله.**

٧ ـ لا تصنع أي صنم. **٨ ـ لا تسئ استعمال اسم الله.**

٩ ـ يوم السبت يوم مقدس. **١٠ ـ احترم أمك وأباك.**

هي قوانين مبنية على مبدأ الحب.

لكن هناك اختلافاً كبيراً بين مفهومنا الحديث للدين ومفهوم الديانات التقليدية. الديانات التقليدية تؤمن بأن قانون الطبيعة هو قانون ثابت وغير متغير. بينما المنظور الديني الحديث يؤمن بأن قانون الطبيعة هو قانون ديناميكي وقابل للتغيير. نظام القواعد الأخلاقية هو نظام أخلاقي لجماعة معينة يُفرض على جماهير عامة الناس بواسطة سلطة: سلطة دينية، سلطة

حكومية، سلطة مدنية، سلطة المدرسة، سلطة العائلة، سلطة التقاليد المرعية. الفرض يعني تأسيس ضمير.

فرض خارجي ليس كافياً لخلق نظام أخلاقي. النظام الأخلاقي يجب أن ينبع من الداخل. فقط النظام الأخلاقي النابع من الداخل هو آمن. فقط أوامر أصبحت شيئاً طبيعياً من كيان الإنسان هي تُطاع وتطبّق في المواقف الحرجة. يتم تطبيق القانون وطاعته إذا عمل بصورة تلقائية. الضمير تم تفسيره بطرق عدة. عندما النظام الداخلي (الضمير) يعمل فهو لا يكون شيئاً فوق وخارج أخلاق الجماعة. هو ليس صوت الله المعصوم من الخطأ ولا هو إدراك لا يخطئ لقانون الطبيعة. هو النداء، غالباً نداء صامت لذات الإنسان لأن يكون إنساناً. لكن الذات التي يوجه الضمير لها نداءه هي الذات الإلهية في جوهر الإنسان.

هو ينادينا للعودة إلى طبيعتنا لكنه لا يقول لنا ما هي هذه الطبيعة. ولا يساعدنا في اتخاذ قرار أخلاقي صحيح. هو يؤشر بصورة غير ملتبسة في اتجاه واحد، نحن نتبعه ونكون في أمان نسبي. أما إذا كان الضمير منقسماً، يؤشر في اتجاهين متعاكسين، هذا يعني انقسام السلطة الذاتية لدى الشخص وانقسام السلطة يعني تحطيمها في العلاقات العامة وفي ذات الإنسان. نحن جميعاً نعتمد على سلطة، سلطة عقلانية. كلّ فرد في دنياه لديه سلطة عقلانية فوق الآخرين. كلّ فرد يساهم بطريقة خاصة في حياة المجموع. والتجربة الخاصة تعطي حتى الإنسان الأقل ثقافةً بعض السلطة فوق من كانت ثقافته عالية. بالإضافة إلى هذه السلطة الحقيقية التي هي متبادلة ويطبقها جميع الناس إلاّ أن هناك سلطات المؤسسات التي تمثّل جانباً واحداً وتفرضها جماعة معينة.

السلوك المطلوب يضع طبيعتنا الجوهرية ضدّ طبيعتنا الحقيقية وهذا يبدو لنا كقانون. كيان يعيش خارج طبيعته الجوهرية هو قانون لنفسه. هو يتبع تركيبه الطبيعي لكن هذا هو ليس موقف البشرية. الإنسان ابتعد عن جوهر كيانه ولهذا المطلوب أخلاقياً ظهر كقانون له. القانون أولاً وآخراً هو القانون الفطري الذي يشكل جوهر طبيعتنا. هذه القوانين هي القاعدة الأساسية لجميع القوانين الإيجابية في الدول والجماعات. هي أيضاً القاعدة الأساسية لقوانين الأخلاق التي هي مشكلتنا في العصر الراهن. قوانين الأخلاق هي أكثر قوةً من أشد القوانين الإيجابية عندما تحكم على الذات. هي الضمير الذي يشعرنا بالذنب. يجب أن نسأل أنفسنا: «ما هي القوة التي تحثنا على تطبيق القانون؟» القوة خلف القوانين الإيجابية هي المكافأة والعقاب. ما هي القوة خلف القوانين الأخلاقية؟ أحد الأفراد يقول: المكافأة هي الشعور بالرضا والعقاب هو الشعور بالذنب. الكتب السماوية وعدتنا بمكافأة الجنة وعقاب النار. لكن هذا الجواب غير كافٍ. هناك مقاومة على الرغم من المكافأة والعقاب. القانون يمكن تطبيقه فقط إذا طبّق بسرور وليس بامتعاض وكره. وليس لأحد أن يأمرنا بالسرور. القانون يجلبنا إلى موقف متناقض. القانون يأمرنا وهذا يعني أنه يقف ضدنا. القانون يأمرنا بشيء لا يمكن عمله، فقط يمكن عمله إذا كان لا يقف ضدنا وكانت الذات متوحدة مع أوامر القانون. هذا هو الهدف الذي فيه المطلوب أخلاقياً يدفعنا إلى عمل شيء هو أوامر ولكنه حقيقة تكويننا.

فقط الشجرة الجيدة تنتج فاكهة جيدة. يمكن أن نبقي على الأخلاق من خلال ما نملكه وليس من خلال ما هو مطلوب منا؛ من خلال نعمة الله وفضله وغفرانه وليس من خلال القانون. من دون قبول غفران الله وتوحد

الإنسان مع طبيعته الجوهرية فليس هناك عمل أخلاقي ممكن. الأخلاق النسبية (أخلاق الجماعات) هي تنتج لدى أكثرية الناس عدم مبالاة مما يؤدي إلى انخفاض ما هو مطلوب أخلاقياً إلى مستوى قواعد السلوك المرعية لدى الجماعة. أخلاقية الجماعات تنتهي دائماً في البحث عن رحمة الله وغفرانه. الرحمة الإلهية توحد عنصرين أساسيين في كيان الإنسان:

أولاً: تتغلب على الشعور بالذنب وذلك بغفران الله ذنوبنا وقبولنا بعد أن كنا غير مقبولين.

ثانياً: تتغلب على انفصالنا بدخولنا إلى كيان جديد الذي هو فوق الانفصال بين ما نحن عليه وما يجب أن نكون. جميع الأديان لديها عقيدة الإنقاذ التي يوجد فيها هذان العنصران. ما هو مطلوب أخلاقياً يعبّر عن نفسه في قانون الذي هو من المفروض أن يكون عادلاً.

العدالة هي توحد جميع الأنظمة الأخلاقية، ما يرضي جماعة ما يجب أن يرضي الجماعات الأخرى. ليس هناك عدالة من دون حب. الحب هو الحل للمشاكل الأخلاقية للجماعة والمشاكل الأخلاقية بين الجماعات.

* * *

الفصل الرابع

أخلاقية «الأنا»

الأنانية هي الإنسانية، هي الحياة، من المستحيل على أي كائن أن يعيش من دون أنانية. الأنانية هي ضرورة حياتية، هي ميزة الحياة. الإنسان بحاجة إلى أشياء ضرورية لأجل البقاء. هذه الأشياء الضرورية هي أبعد من أن تكون الحاجة إلى الماء والغذاء والمسكن. هي تتضمن الأنانية التي زُرعت فيه منذ الولادة. الاهتمام بالذات وإسعادها وحمايتها من الخطر هي الأساس الأخلاقي للإنسان. ونكران الذات هو الأساس اللاأخلاقي للإنسان هو شقاؤه وبؤسه. طبيعة الإنسان تجزم على جميع الأفعال حتى وإن كان مظهرها غير أناني أنها مدفوعة بأسباب أنانية. العلم والدين كلاهما يُدَرِّس الأنانية، هم يقولون: إن المبدأ الأساسي الأول للحياة هو «غريزة البقاء» والذي أدى إلى «الأنا» الأول وإلى العقيدة المادية في الكسب والمنافسة. الأنانية هي اهتمام الفرد بشؤونه الخاصة وعدم المبالاة بشؤون الآخرين. حياة الإنسان الشخصية وسعادته لها الأولوية. الإنسان لم يُخلَق ليكون عبداً يخدم الآخرين. والآخرون لم يولدوا ليكونوا عبيداً يخدمون المصالح الشخصية لإنسان آخر. كلّ فرد يرعى شؤونه الخاصة، والإنسان لا يخدم إنساناً آخر إلاّ إذا كان هناك مكسب خاص له.

وهذا تعاون طوعي يطبّق في تعاملنا اليومي في البيع والشراء وكذلك في تطبيق العدالة الاجتماعية وفي علاقاتنا الاجتماعية. كلّ أفعالنا منشؤها دوافع أنانية. أثناء الكوارث والحروب تصبح الحياة غير منظمة ويسود الفساد الاجتماعي والفوضى. تتغير موازين الحياة ويصبح هدف الإنسان الأول هو المحافظة على بقائه. الجريمة، السرقة، نهب البيوت والمحلات التجارية يصبح شيئاً طبيعياً للحصول على لقمة العيش. الأخلاق العامة والمبادئ الدينية تتغير، لنأخذ مثالاً على ذلك ما حصل في مخيم اليرموك للفلسطينيين في العاصمة السورية دمشق: المسلمون في جميع أنحاء العالم يحتفلون بعيد الأضحى. لكن في سوريا التي مزقتها الحرب ليس هناك عيد يحتفلون به، أكثر الناس تكافح لسدّ حاجاتها الأساسية من الغذاء والماء والمسكن. محنتهم هذه نشرتها الصحف العربية «أصدرت فتوة من قبل إمام في مخيم اليرموك سمح بموجبها للناس الجياع أكل القطط والكلاب والحمير». أكل لحم القطط والكلاب والحمير هو محرّم في الإسلام. لكن بعد حصار دام السنتين من قبل السلطات السورية التي تحاول إخلاء المخيم من المقاومة المسلحة مات الكثير من الأطفال وكبار السن جوعاً بينما مليونان من الحجاج المسلمين ينحرون الأغنام في مكة ويوزعون اللحوم على الفقراء أو تعلّب وتصدّر إلى الخارج بينما المسلمون في مخيم اليرموك يموتون جوعاً. حالة اليأس والهلاك تدفع الإنسان إلى تبني أخلاقية تختلف عن الأخلاقية التي اعتاد عليها في أوقات الرفاهية والاستقرار.

الناس تتخذ قرارات من دون اعتبار للأخلاقية السائدة، المُثل الاجتماعية، العادات والتقاليد، من أجل بقائهم على قيد الحياة. هل هذه

أنانية؟ اختيارك هدفاً في الحياة والمثابرة على إنجازه وراءه دافع أناني. اختيارك لأن تنجب أطفالاً أو لا تنجب أطفالاً هو دافع أناني.

اختيارك المقاومة دفاعاً عن حريتك وحقوقك الخاصة بدلاً من أن تعيش تحت ظلم حاكم دكتاتور هو أنانية. في الحقيقة حتى تصرفات اعتيادية مثل التنفس، الأكل أو الابتعاد عن مناطق الخطر هي أفعال أنانية. من دون الأنانية ليس بإمكان أي أحد أن يعيش يوماً واحداً من حياته. الأنانية لا تعني تحطيم الذات. الشخص الأناني يفهم أن عدم النزاهة في التعامل مع الناس تجلب المشقة في الحياة. التضحية بالنفس هي عكس الأنانية. التضحية بالنفس تعنى تقديم الكثير من أجل القليل، مثال على ذلك: امرأة متزوجة من شخصٍ سكير يضربها يومياً، اختارت البقاء معه لأنه يوفر الحماية والاستقرار العائلي لها ولأطفالها. أو رجل متزوج من امرأة مجنونة لا يسليها في الحياة غير المشاجرة مع زوجها الطيب القلب الحنون. هو يضحي بنفسه وكرامته من أجل أن يوفر لأطفاله الحب والحنان والمستقبل الزاهر. الطبيب الذي يرعى مرضاه ويقدم لهم أفضل الرعاية الصحية هو ليس مدفوعاً بحبه للآخرين ولكن لأنه يكسب المال والشهرة والاعتزاز بالنفس. كلٌ من المريض والطبيب استفاد من الأنانية. الشخص الانتحاري الذي يفجّر نفسه وسط الناس الأبرياء أو يستهدف نقطة عسكرية، هو يضحي بحياته من أجل حياة أفضل في الجنة فيها كلّ ما تشتهي نفسه.

الناسك الذي يتعبّد في معبده هو يضحي بحياته من أجل أن يحصل على اللذة الذاتية في التنور الروحي والتقرب من الله. الانتحاري الذي فجرّ

نفسه والناسك المتعبّد هم لا يختلفون عني وعنك هم مدفوعون بنفس الدوافع التي تدفعنا للحصول على الاكتفاء الذاتي، الفرق فقط في متطلبات الاكتفاء الذاتي. البطل يدافع عن شهرته ومجده، والتلميذ يكافح من أجل مستقبله، والانتحاري من أجل جنته، والطبيب من أجل مركزه الاجتماعي. منذ متى أصبحت الأنانية «شرّاً»؟

الآن كلّ ما يعنينا هو المشاركة مع الآخرين والمشاركة أصبحت «خيراً». بعد ظهور الأديان السماوية والنظريات الأخلاقية أصبحت الأنانية «شرّاً». لكن الأنانية هي «خير». هي خيرٌ لك وليس خيراً خارجاً عنك. إنه لشيء غير طبيعي أن لا تفكر بنفسك وتفكر بالآخرين قبل أن تفكر بأحبائك ونفسك. الأنانية تظهر عندما يقوم شخص ما بفعل يخدم مصلحته الشخصية فقط بدلاً من أن يخدم المصلحة العامة. ليس هناك سبب لأن تكون الأنانية «شرّاً» لأن الشخص عندما يكون أنانياً هذا لا يعني أنه سوف يقوم بأعمال تخريبية ضدّ المجتمع أو أن يرتكب جريمة ضدّ إنسان آخر. الأطفال يولدون وتولد معهم الأنانية. هم يتمسكون بكلّ شيء يتمكنون عليه ولا يفتحون أيديهم إلاّ بالقوة، هم يبكون لأجل أن نُلبي حاجاتهم الخاصة. يبكون عندما يجوعون، عندما يبولون في ملابسهم، أو عندما يريدون النوم. عندما يكبرون بالسن تنمو معهم الأنانية. هم يختارون من يحبون ومن هو صديقهم، يتنافسون فيما بينهم للحصول على المعدلات العالية في الدراسة، يتنافسون في السباقات الرياضية للفوز بالأولوية. وعندما يكبرون أكثر يبحثون عن أفضل الأعمال بعد التخرج من الكليات. كلّ هذا ليس في سبيل المصلحة العامة ولكنه عمل أناني يخدم المصلحة الخاصة. الطلاب يبذلون جهداً كبيراً في الدراسة للحصول على أحسن

المعدلات التي تؤهلهم للدخول في أحسن الكليات. هذا عمل أناني لأن المقاعد المخصصة للدخول في كلية الطب مثلاً محددة وقليلة. إذا لم أحصل على المقعد فإنه سوف يكون من نصيب شخص آخر.

هل هذا العمل «شر»؟ أنا لا أعتقد ذلك. بعد الكلية المتخرجون يبحثون عن أفضل الأعمال وهذا عمل أناني أيضاً لأن المنافسة شديدة على الأماكن المخصصة للعمل. هل هذه الأفعال من سن الرضاعة إلى الطفولة إلى الشباب إلى مرحلة البلوغ هي أعمال شريرة؟ إنه شيء طبيعي أن تفكر بنفسك أكثر مما تفكر بالجماعة التي تنتمي إليها أو بالبشرية بصورة عامة. أن تكون أنانياً هو ليس شرّاً هو شيء طبيعي.

الناس يجب أن تمتلك بعض الأنانية وروح المنافسة لأجل النجاح في الحياة. الأنانية لا تعني أن نتحول إلى أناس أشرار نرتكب الجريمة ونؤذي الناس، ندوس على كلّ شيء يقع في طريقنا. الأنانية ضرورية لهؤلاء الطلبة للدخول في أحسن الكليات والحصول على أحسن الأعمال وبلوغ أعلى مستوى اجتماعي ممكن. الأنانية يُنظر إليها كشخص يهتم بنفسه فقط ويهمل حاجات الآخرين. لكن في الحقيقة هي شيء آخر. أنا أفهم السبب الذي من أجله يضحي الإنسان بمصالحه الخاصة من أجل مصلحة الجماعة لأن عمل الخير يشعره بالسعادة. هذا الشخص أناني أيضاً، هو يقوم بعمل الخير من أجل كسب الرضا النفسي الذي يجنيه من إطعام الجياع، تقديم الصدقة... الخ. هو يشعر بالسعادة والرضا على نفسه. أليس هذا أنانية؟

الشخص المحسن قام بهذا العمل لأنه يحب نفسه في نهاية المطاف.

لأجل الشعور بالسعادة والنشوة يجب أن تعمل شيئاً ما للآخرين. العمل الأناني اتخذ شكل عمل الخير وخدمة الآخرين.

السعادة في حدِّ ذاتها هي شعور أناني. هي إشباع الرغبات الممكن تحقيقها للفرد. هي حالة من الشعور الشخصي بالبهجة التي نبلغها عندما نحقق رسالتنا في الحياة بنجاح. هي نزوة من الانفعال الفردي التي تحكم قبضتها علينا.

السعادة هي حالة الاكتفاء الذاتي بالحياة والنجاح الذي يحققه الفرد في حياته. لا يمكن للفرد أن يكون سعيداً ما لم يقبل نوع الحياة التي يحياها. هي ليست شيئاً يُعطى، إنها شيء يُكتسب. ليس بمقدور أي أحد أن يوفّر لنا القناعة التي نبتغيها ما لم نكن جاهزين للقيام بشيء ما يفي بقناعتنا بأننا حققنا أمنياتنا في الحياة.

عندما يكون الفرد سعيداً هو يتملكه شعور جيد ويكون في سلام مع نفسه ومع الآخرين. إذا لم يمتلك الفرد هدفاً شخصياً في الحياة فهو لا يمكن أن يكون سعيداً بما يعمله. كلّ إنسان له رؤيا أو أحلام شخصية يريد تحقيقها في الحياة، إذا وجد نفسه في طريقه لتحقيق أحلامه هو يشعر بالقناعة والسعادة بمجهوده. على سبيل المثال: السارق لا يمكن أن يكون سعيداً في حياة ملأها خوف وقلق وأذى وسجن، لأنه يحاول أن يعيش حياة غير عادلة باعتدائه على ممتلكات وأموال الآخرين. لا يمكن للإنسان أن يكون سعيداً إذا عاش حياته على حساب الآخرين.

في السعادة الشخصية يجب أن لا يكون هناك ضحية أو تضارب مصالح. عندما تشعر أن سعادتك قد سُرِقت منك هناك دائماً مكان لتعويضها. حياة الفرد مليئة بالشقاوة والسعادة.

السعادة هي تعبير عن حالة النجاح، الشقاء هو يشير إلى حالة الفشل. نعاني الشقاء عندما نشعر بخيبة أملنا بالحياة أو عندما نفشل في تحقيق ما هو مهم في حياتنا. السعادة تُقاس بمقدار النجاح في أعمالنا بينما الشقاء هو نتيجة تحطم أو انعدام الأهداف الشخصية في الحياة، هو انعدام الثقة بالنفس والتخلي عن تأكيد الذات. إذا حاول شخص ما أن يعيش خارج حدود إمكانياته هو من المستحيل أن يكون سعيداً في حياته لأنه دائماً يحاول الوصول إلى أهداف بعيدة المنال لا يمكن تحقيقها. السُّلَم الصاعد الذي ليس له نهاية أو طول معين سوف لن يقود إلى أي مكان. إنه من الأصلح لأي إنسان أن يفهم إذا أراد السعادة أن عليه أن يضع نصب عينيه أهدافاً معقولة يمكن تحقيقها في فترة زمنية يحددها لنفسه. السعادة هي أعلى هدف في الحياة يعيش الفرد لأجله. هي القيمة الحقيقية للحياة التي يناضل الفرد من أجلها. هي مكافأة يحصل عليها الفرد بعد تحقيق أهدافه المعقولة التي تجعل من الحياة شيئاً يستحق العيش.

* * *

الفصل الخامس

المال مصدر الأخلاق

١) المال مصدر جميع أعمال الشرّ

ابتداءً من جودت الصحابي الذي خان عيسى المسيح وأفشى بسرّ مكان اختبائه للسلطات الدينية اليهودية الذي أدى إلى إعدامه على الصليب من قبل الرومان مقابل ثلاثين قطعة فضة. تأريخ البشرية مليء بأمثلة على قدرة المال لإضعاف وكسر عظم أقوى نظام أخلاقي. المال هو عدوّ الإنسان وعدوّ الروابط الاجتماعية المبنية على الاكتفاء الذاتي. رغم فهمنا لقوة المال في الحط من قدر السمعة الشخصية نحن غير متأكدين من الشيء الذي في المال الذي يفسدنا. المال يغيّر الطريقة التي فيها نفكر، يضعف الروابط الاجتماعية. العلاقة المبنية على المال هي علاقة أخلاقية ضعيفة. العلاقات الاجتماعية التي هي القاعدة الأساسية للأخلاق يمكن أن تصبح غير مؤكدة والاعتبارات الأخلاقية غامضة. ويصبح التركيز في العلاقات الاجتماعية على المنفعة الشخصية فقط مستثنين الآخرين.

لماذا المال هو مصدر جميع أعمال الشرّ؟

لأن الإنسان يعمل أي شيء لكي يحصل على المال حتى وإن كان

يأتي من عمل الشرّ. لهذا السبب عدد الجرائم يزداد يوماً بعد آخر. القتل، الناس حتى تقتل في سبيل المال لا يهمهم وصايا الله العشر. لا يهمهم أي شيء ولا يلتزمون بأي قانون أو قاعدة أخلاقية. لهذا السبب توجد جرائم الاختطاف والسرقة والاختلاس. لأن الناس تفضّل المال على الأخلاق. لهذا السبب لا تعرف الناس ما هو الصح وما هو الخطأ وما هي الأخلاق؟ المال هو حقاً مصدر جميع أعمال الشرّ. المال سوف يأخذ كلّ شيء منك حتى أخلاقيتك وإنسانيتك.

٢) المال مصدر كلّ ما هو خير

هل تعتقد أن المال هو مصدر جميع أعمال الشر؟ هل سألت نفسك ما هو مصدر المال؟ المال هو أداة التبادل. لا وجود للمال ما لم تكن هناك بضائع وأيدٍ عاملة أنتجت تلك البضائع. المال هو الشكل المادي لروح الخلق والإنتاج لإنسان يتبادل قيمة خلقه وإنتاجه مع قيمة خلق وإنتاج إنسان آخر. المال هو ليس أداة الطفيليين الذين يستحوذون على إنتاجك بالدموع والحيلة والسرقة أو يأخذون مالك بالقوة. المال جاء إلى الوجود بسبب قوة الإنتاج. هل تعتبر هذا شرّاً؟

عندما تتقبّل المال جزاء أعمالك، إنك تعمل هذا فقط لقناعتك بأنك سوف تستبدله بمنتجات من مجهود أناس آخرين. ليس بمقدور الطفيليين أو اللصوص إعطاء قيمة للمال. ليست أنهر من دموع الطفيليين ولا بنادق اللصوص قادرة على استبدال تلك الأوراق النقدية الموجودة في محفظتك بخبز تقتات عليه لتعيش يوماً آخر. تلك الأوراق النقدية هي شرف عملك، هي طاقة البشر الإنتاجية.

المال في محفظتك يعبِّر عن الأمل أن هناك في مكان ما من هذا العالم أناساً لا يهملون مبادئهم الأخلاقية في العمل التي هي مصدر المال. هل هذا يعتبر شرّاً؟ هل نظرت إلى مصدر الإنتاج؟ انظر إلى مولدة كهربائية، ليس باستطاعتك أن تقول إن منتجها استعمل قواه العضلية فقط. حاول أن تزرع حبة قمح من دون أن تستند على كنز المعرفة التي خلفها لنا أجدادنا. حاول الحصول على غذائك بحركة اليدين فقط ـ سوف تعرف أن العقل البشري هو مصدر جميع المنتجات وجميع الأغذية الموجودة على وجه الأرض. لكنك سوف تقول: المال أنتجه الأقوياء على حساب الضعفاء؟ أي قوة أنت تتكلم عنها؟ هي ليست قوة البنادق أو العضلات. الثروة هي من إنتاج قابلية الإنسان للتفكير.

هل المال صنعه مخترعو المحرك على حساب هؤلاء الذين لم يخترعوا المحرك؟ هل المال صنعه المفكرون على حساب الأغبياء؟ هل المال صنعه الإنسان القادر على حساب الإنسان المعوق؟ هل المال صنعه الإنسان الطموح على حساب الإنسان الكسول؟ المال صُنع قبل أن يحصل عليه المتطفلون واللصوص ـ المال صُنع بجهد الناس الشرفاء كلّ حسب قدرته ـ الإنسان الشريف يعرف أن ليس بإمكانه أن يستهلك أكثر مما ينتجه. تبادل السلع بالمال هو رمز الإرادة الطيبة. المال يثبت حقيقة سيادة كلّ إنسان على عقله وجهده. المال لا يسمح لأي قوة أن تستعمل قيمة جهدك فقط إذا كان اختياراً طوعياً لإنسان آخر يرغب في استبدال جهده الخاص بجهدك. المال يسمح لك ببيع منتوجاتك وجهدك الخاص إلى إنسان آخر يشتري ما تستحق بالمقدار نفسه لا أكثر ولا أقل. المال لا يسمح لأي تعامل قسري خارج الفائدة المتبادلة بين شخصين.

المال يطلب من كلّ رجل أن يعمل ويبيع ببراعته وجهده لينال ما يستحق جزاءه بالمال. هل هذا يعتبر شرّاً؟ المال هو الأداة التي تأخذك إلى أي مكان تريد لكنك تبقى دائماً القبطان الذي يقود السفينة. المال يشبع جميع رغباتك. لكنه لا يشتري السعادة لمن لا هدف له في الحياة. المال لا يعطي الأخلاق لمن يتجنب معرفة الأخلاق. المال لا يشتري الذكاء للأغبياء، ولا الشجاعة للجبناء أو الاحترام لمن لا يستحقه. الإنسان الذي يحاول شراء عقول مرؤوسيه لتمشية أموره بماله هو استبدل أحكامه وأصبح ضحية من هم أقل منه. الناس الأذكياء لا يتخلون عنه لكن المخادعين يتهافتون عليه (الإنسان لا يجب أن يكون أصغر من ماله). هل هذا سبب لأن ننعت المال بالشرّ؟ هناك من يستورث مالاً هو ليس بحاجة إليه. إذا كان الوريث بمستوى المال فالمال يخدمه، أما إذا لم يكن بمستوى المال فالمال سوف يحطمه. أنت تنظر إلى هذا الإنسان وتبكي عليه لأن المال أفسده! هل حقاً المال أفسد هذا الإنسان؟ أم هذا الإنسان أفسد ماله؟ لا تحسد الوريث غير الكفؤ لأن ثروته هي ليست ملكك وأنت سوف لا تفعل بها بشكل أحسن منه. لا تعتقد أنها لو وزعت بين الناس وأوجدنا خمسين متطفلاً بدل واحد سوف يعيد إلى الوجود الفضيلة الميتة التي هي الثروة. المال هو روح حية تموت من دون قوة العمل التي أنتجته.

المال لا يخدم العقول التي هي ليست أهلاً له. هل هذا سبب لوصف المال بالشر؟ المال هو وسيلة الحياة والحكم الذي تصدره على مصدر حياتك هو الحكم الذي تصدره على حياتك.

إذا كان المصدر فاسداً فإنك قد لعنت وجودك. هل حصلت على

المال بالغش؟ أو كنت قواداً تشبع شهوات الرجال، أو تقتات على غبائهم؟ أو تخدم السذج في أمل أن تحصل على أكثر مما تستحقه قدراتك؟ أو أن تقدم أقل مما تقدر عليه؟ أو أن تقوم بعمل تحتقره لمشترٍ تكرهه؟ إذا كان الأمر كذلك فإن المال سوف لا يسعدك حتى ولو لحظة واحدة. كلّ الأشياء التي تشتريها سوف لن تجلب لك الاحترام والتقدير ولكن الشعور بالعار. إنجازاتك العظيمة سوف تذكرك دائماً بالعار. سوف تصرخ وتقول: هذا المال هو الشرّ. هو شرٌّ لأنه لم يجلب لك احترام الذات، شرٌّ لأنه لم يدعك تتمتع بفسادك. هل هذا هو مصدر كرهك للمال؟ المال يبقى دائماً النتيجة ويرفض أن يكون السبب الذي هو أنت. المال هو نتاج الفضيلة، لكن المال لا يعطيك الفضيلة ولا يغفر لك خطاياك. المال لا يعطيك ما لا تكسبه لا الأشياء المادية ولا الأشياء الروحية. هل هذا سبب لأن تكره المال؟ أو هل ما كنت تعنيه حب المال هو مصدر جميع أعمال الشرّ؟ أن تحب شيئاً هو أن تعرف وتحب طبيعته.

أن تحب المال هو أن تعرف وتحب حقيقة المال الذي هو الشكل المادي لروح الخلق والإبداع الكامنة في داخلك التي تمكنك من استبدال جهدك الخاص بجهد أعظم الرجال.

الشخص الذي يبيع ضميره رخيصاً هو الذي يصرخ بأعلى صوته: «أنا أكره المال» ولديه سبب جيد في كراهيته للمال. من يحب المال يعمل بجدٍّ لكسبه. هم يعرفون أنهم يستحقونه. الإنسان الذي يلعن المال كَسَبه بصورة مخزية والإنسان الذي يحترم المال كسبه بشرف.

ابتعد عن أي إنسان يقول لك المال شرّ. هذه الجملة هي تحذير لك

أن هذا الإنسان جاء لكي ينهبك. ما دام البشر يعيشون سويةً على وجه الأرض هم بحاجة إلى وسيلة للتعامل بعضهم مع البعض ـ البديل الوحيد للتعامل إذا استغنوا عن المال هو البندقية.

المال يتطلب منك أكبر الفضائل إذا رغبت في كسبه أو خزنه. الرجل الذي لا يملك الشجاعة ولا الاعتزاز بالنفس، ولا الثقة بالنفس، الرجل الذي لا يملك حسّاً أخلاقياً بحقه على ماله وليس لديه رغبة للدفاع عنه كما يدافع عن حياته، الرجل الذي يعتذر كونه غنياً سوف يفقد ثروته. هو طريدة طبيعية للسراق واللصوص والمتحايلين الذين يستغلون شعوره بالذنب فقط لكونه غنياً. سوف يسرعون في تحريره من الشعور بالذنب ومن حياته إذا اقتضى الأمر ذلك، وهذا ما يستحقه. عند ذاك سوف ترى ظهور معيار مزدوج للأخلاق. رجال تعيش وفق مبدأ القوة يستغلون القوة المنتجة في المجتمع لخلق قيمة للمال الذي يسرقوه منهم ويحصلون على الفضيلة من عرق جبين غيرهم. في مجتمع أساسه الأخلاق المطلقة، هؤلاء هم المجرمون الذين صدرت قوانين أخلاقية لحمايتك منهم.

جماعة السراق والمجرمين تستعمل القوة للاستيلاء على ثروات الناس العزل. يصبح المال نقمة الخالق عليهم. هؤلاء اللصوص يسهل عليهم نهب الناس العزل ما دام هناك قانون يمنع حمل السلاح على المدنيين. هذه الأموال المسروقة تصبح مغناطيساً يجذب إليه لصوص آخرون يسرقون المال المسروق منهم. وهكذا يبدأ السباق ليس بين الأكثر كفاءة ومهارة في الإنتاج ولكن بين الأكثر وحشية والأقل رحمة.

عندما تصبح القوة هي المبدأ السائد في الحياة فإن القاتل يفوز على

السارق. والمجتمع سوف يتلاشى إلى بساط من الدمار والمذابح. هل تريد أن تعرف بأن يوماً كهذا آتٍ؟ راقب المال. المال هو مقياس الفضيلة في المجتمع. عندما ترى التبادل قد تم ليس برضى الجانبين ولكن بالإجبار ـ عندما تريد أن تنتج يجب عليك الحصول على رخصة من رجال مرتشين وغير منتجين ـ عندما ترى المال يتدفق إلى جيوب المتعاملين ليس بالسلع ولكن بالمصالح ـ عندما ترى الناس تغتني بابتزاز الأموال وانتزاعها بدل العمل والإنتاج، والقانون لا يحميك ضدهم لكن يحميهم منك ـ عندما ترى الفساد يُكافأ والنزاهة تصبح التضحية بالنفس ـ سوف تعلم أن المجتمع قد هلك. المال هو وسيط نبيل لا يتنافس مع البنادق ولا يتعامل بوحشية. المال لا يسمح لأي بلد أن يعيش على النهب والاحتلال.

عندما تستحوذ قوة التحطيم على سلوك البشر أول شيء يتم تحطيمه هو المال لأن المال يوفر الحماية والأمان للناس وهو أساس وجود الأخلاق. عندما تتبع قوة التحطيم طريق الشرّ والفقر والجوع يسود المجتمع وطريق الشرّ يصبح وسيلتك للمقاومة والبقاء على قيد الحياة، تموت الأخلاق المطلقة وتحل محلها الأخلاق العشوائية فلا تتوقع أي وجود للخير بين الناس ولا تتوقع منهم أن ينتجوا البضائع لأن المنتجين يُعاقبون والسراق يُكافؤون. لا تسأل حينها من حطم العالم؟ أنت.

أنت الآن تقف في وسط عالم تمت فيه أعظم الإنجازات في الحضارة البشرية وتتساءل لماذا كلّ شيء ينهار حولك؟ وأنت تلعن دم الحياة «المال». أنت تنظر إلى المال كالوحش القادم إليك من الغابة ليحطم المدنية.

خلال تأريخ البشرية المال دائماً يستولي عليه اللصوص بمختلف أنواعهم لكن يستعملون الطريقة نفسها وهي الاستيلاء على المال بالقوة والإبقاء على المنتجين مكبلين محتقرين مشوهي السمعة وغير محترمين. في ذلك الوقت ظهرت المقولة «المال هو مصدر جميع أعمال الشرّ» عندما كانت الثروة ينتجها عرق جبين العبيد ـ قوة الإنتاج تُحكم بالقوة والثروة تُكتسب بالإخضاع. اللصوص يُمَجَدون كنبلاء بالسيف أو نبلاء بالولادة أو نبلاء رسميين. والمنتجون يُحتقرون كعبيد، وتجار، وأصحاب محلات وأصحاب مصانع، ولأول مرة في تأريخ البشرية ولدت دولة جديدة هي **دولة المال** «أميركا» دولة فيها العقل والعدل والحرية والإنتاج، ولأول مرة في التأريخ عقل الإنسان والمال أصبحوا أحراراً وليس هناك ثروة بالإخضاع، لكن هناك ثروة بالعمل وبدل السوط والعبيد ظهر صانع الثروة الحقيقي، قوة العمل العظيمة، أعلى وأشرف نوع من الجنس البشري ـ الإنسان العصامي خالق نفسه ـ صاحب المصنع، خالق الثروة.

* * *

الفصل السادس

القوة هي مصدر الأخلاق

الأخلاق هي تعبير عن القوة وهؤلاء الذين يمتلكون القوة يتصرفون كما يشاؤون ويفرضون الأخلاقية التي تناسب مصالحهم الخاصة. الأخلاق هي تعبير عن المصالح الشخصية. السؤال الذي يطرح نفسه هو ما هي العلاقة بين القوة والأخلاق وما هو تعريف هاتين العبارتين الغامضتين؟.

الأخلاق هي لائحة من القواعد السلوكية تُعَرِّف ما هو صح وما هو خطأ. من يقرر ما هو صح وما هو خطأ؟ يعتمد على من يمتلك القوة في الموقف المعين. القوة يمكن تعريفها على أنها المقدرة على تحقيق ما يريده الشخص. هؤلاء الذين يمتلكون القوة بإمكانهم أن يتحكموا بالأخلاق لتخدم مصالحهم الخاصة. مصير الشعب الفلسطيني لم يقرر على أسس أخلاقية ولكن على مبدأ القوة التي تمتلكها إسرائيل التي سمحت لهم أن يتبنوا سلوكاً أخلاقياً يناسب سياستهم التوسعية، هي تمتلك إمكانية قسرية لتقرر مصير الشعب الفلسطيني، هذه القوة استمدتها إسرائيل من القوة العسكرية الجبارة التي تمتلكها ومن الدعم الأميركي المباشر.

القوة سمحت لإسرائيل أن تقرر الأخلاقية التي تستعبد بموجبها الشعب الفلسطيني. إسرائيل تعاقب الشعب الفلسطيني الرافض للاحتلال

في غزة والضفة الغربية بالقصف الجوي المستمر من الطائرات. إن من مصلحة إسرائيل هو إبادة الشعب الفلسطيني من الوجود فذلك يوفر لها الأمن والسلام الدائم. الواجب الأخلاقي لإسرائيل هو أن تنهي المقاومة الفلسطينية إلى الأبد بشتى الوسائل الوحشية إن أمكن وهذه هي المصلحة الشخصية لإسرائيل وأي دولة تنوي حماية مواطنيها. هذا واجب أخلاقي ملزم لإسرائيل. الفلسطينيون يرفضون قتل وتشريد شعبهم، وهدم منازلهم وتدمير مزارعهم ويعتبرون الأعمال الإسرائيلية غير أخلاقية. كلا الطرفين صحيح. الكنيست الإسرائيلي امتنع عن اتخاذ قرار بإبادة الشعب الفلسطيني من الوجود، هم يبحثون عن طريق أخف لمعاقبة المقاومة الفلسطينية. هم لجأوا إلى استخدام أفراد من الشعب الفلسطيني المحتجزين في سجونها، إطلاق سراحهم وإطعامهم وتوفير عمل لهم وبالمقابل تستخدمهم إسرائيل لمعرفة أماكن القيادة الفلسطينية واغتيالهم على أمل تصفية المقاومة وخلق حالة من الخلل في المقاومة الفلسطينية. هم لم يطعموا هؤلاء الفقراء الجياع من الفلسطينيين حباً لهم ولكن لخدمة مصلحة إسرائيل الخاصة. الأخلاق في هذه الحالة قررتها الأكثرية الغالبة في الكنيست الإسرائيلي. الفلسطينيون يرفضون أن يكونوا شعباً تحكمهم إسرائيل، هم يطالبون بتكوين دولة خاصة بهم. إسرائيل قسمت أرض فلسطين إلى الضفة الغربية وقطاع غزة. إسرائيل لا تستمع للمطالب الأخلاقية للشعب الفلسطيني لأنهم شعب ضعيف وأسس العدالة الاجتماعية والدولية تعتمد على توازن القوى لفرضها، والحقيقة هي أن القوي يعمل ما تمكنه قوته أن يعمل وما على الضعيف إلاّ الإذعان للأمر الواقع وقبول ما عليهم قبوله. في هذه الحالة القوة لم تُقرر الأخلاق، هي أزالتها من الوجود. الشعب الفلسطيني

يطالب بإنشاء دولة مجاورة تتعايش مع إسرائيل. إسرائيل دائماً ترفض إنشاء دولة فلسطين، وتستخدم جميع السُّبل لمنع تحقيق ذلك، هي تعتبر ذلك تنازلاً ونقطة ضعف. الشعب الفلسطيني يستنجد بعدالة مجلس الأمن الدولي.

لكن مجلس الأمن تسيطر عليه أكبر قوة في العالم (أميركا) والسياسة الأميركية، اقتصادها ووسائل إعلامها تسيطر عليه القوة الصهيونية. هم يقررون مصير أي مرشح للرئاسة الأميركية. هل يفوز أو يفشل؟ يعتمد على ما يقدمه من تنازلات وعهود للصهاينة ولدولة إسرائيل (يجب عليه تقبيل طيز الصهاينة لكي يفوز بالرئاسة). العراق غزا الكويت، العراق (دولة قوية) غزا الكويت (دولة ضعيفة) وضمها إلى أراضيه. أميركا (دولة قوية) غزت العراق (دولة ضعيفة). روسيا (دولة قوية) غزت أوكرانيا (دولة ضعيفة) وضمت شبه جزيرة القرم إلى أراضيها. أميركا (دولة قوية) لم تستطع أن تعمل شيئاً لروسيا (دولة قوية) رغم أن أوكرانيا مرتبطة مع حلف الناتو بمعاهدة دفاع مشترك. استنكرت أميركا ودول الناتو وهددت بالمقاطعة الاقتصادية ولم يفعلوا شيئاً.

الصين (دولة قوية) غزت جزراً يابانية في بحر الصين وضمتها إلى أراضيها. أميركا (دولة قوية) لم تستطع أن تعمل شيئاً رغم أن اليابان تربطها مع أميركا معاهدة دفاع مشترك.

أسس العدالة الاجتماعية والدولية تعتمد على توازن القوى. فإذا لم يكن هناك توازن للقوى، انعدمت العدالة وسادت أخلاقية مبدأ القوة.

الفصل السابع

الرغبة الجنسية هي مصدر الأخلاق

السلوك الجنسي هو موضوع نقاش منذ عدة قرون ويبقى موضوعاً يحتل الصدارة في المناقشات الأخلاقية. ممارسة الجنس بين رجل وامرأة من دون زواج (الزنى)، ممارسة الجنس بين رجل ورجل (اللواط). أو امرأة وامرأة (السحاق). هذه عناوين تغطي الصحف كلّ يوم. التحدي الكبير في المناقشات الأخلاقية ينبع من المشكلة: إن كلّ شخص يُدرِك هذا السلوك الأخلاقي بصورة مختلفة تماماً وله موقف أخلاقي يختلف تماماً عن الآخرين. لذلك فإن موضوع الجنس سوف يستمر معنا ما دمنا على قيد الحياة، هو صراع دائم بين الحاجة الجسدية البيولوجية والضوابط الاجتماعية الأخلاقية. ما هو موقف الأخلاق من ممارسة الجنس بين شخص متزوج وعشيقته، أو بين امرأة متزوجة ورجل آخر؟ لأن زوجها أصيب بسرطان البروستات الذي استوجب إزالة خصيتيه جراحياً وهذا أدى إلى امتناعه كلياً عن ممارسة الجنس الذي كانت زوجته تستمتع به كلّ يوم، مما أدى بالزوجة أن تبحث عن عشيق يسدّ حاجتها من الجنس.

الزوجة لا تريد أن تجرح شعور زوجها الذي تحبه وتحترمه، هي

تحاول أن تجعل من علاقتها الجنسية مع العشيق سرية حتى لا تؤذي زوجها. الديانات التقليدية (الإسلامية، المسيحية، اليهودية) كلها تُحرِّم هذه الممارسات. لكن هل أخلاقية المجتمع المدني تتقبل هذا السلوك؟ هي بين نارين: نار عذاب الضمير ونار تحترق بين فخذيها تحاول إطفاءها بممارسة الجنس مع العشيق من دون أن تدمر حياة زوجية سعيدة، لهذا السبب هي لم تفكر بالطلاق.

هل ممارستها الجنس مع العشيق هو عمل أخلاقي؟ من وجهة نظر الدين هذا عمل لا أخلاقي لكن من وجهة نظر المجتمع المدني هم يقولون ربما الزوج يسمح لها ضمنياً ممارسة الجنس مع شخص آخر وهذا سوف يرفع عنها حملاً ثقيلاً جراء شعورها بالذنب والاحتفاظ بالعلاقة سرّاً.

من وجهة نظر المجتمع المدني هو عمل بريء، ربما هو صحيح والاستمرار فيه هو عمل أخلاقي ليس فيه خطأ. العلاقة بين الزوج والزوجة مبنية على أسباب كثيرة غير العلاقة الجنسية.

ممارسة الجنس لا يعني الحب الذي هو الأساس الذي تُبنى عليه العلاقة الزوجية. الجنس هو ليس العامل الأساسي الذي يُبقي على الزواج. إنه من الممكن لزوجين أن تكون بينهما علاقة حب من دون ممارسة جنس، وممارسة الجنس مع شخص ثالث، هذا ممكن إذا كان جميع الأطراف الثلاثة يتفقون على مثل هذا الموقف ومستعدين أن يعيشوا حياتهم بهذه الطريقة. الزواج لم يعد وصفة محددة لها تعريف واحد والحقائق اليوم تثبت ذلك في العلاقات الاجتماعية. من وجهة نظر الأفراد المتحررين من العادات والتقاليد الاجتماعية أن ممارسة الجنس إذا ليس فيه

خيانة أو استغلال أو إجبار وإذا لم ينتهك حرمة التزام مع الآخرين فهو عمل ليس غير صحيح. لكن في حالة المرأة المتزوجة هناك انتهاك لحرمة الالتزام بالعلاقة الزوجية لأن المرأة متزوجة. من الواجب عليها تنفيذ التزاماتها تجاه زوجها حتى الموت. لكن لأسباب صحية خارجة عن سيطرة أي أحد فإن هذه القضية هي بالأحرى تغطيها الضلالة. الزوج ربما هو يقبل ضمناً ممارسة زوجته الجنس مع شخص آخر لأنه يعرف أنه غير قادر على سدّ حاجتها للجنس. هو ربما لا يريد أن تذهب زوجته إلى قبرها بهدوء من دون الاكتفاء الجنسي. ممارسة الجنس قبل الزواج (الزنى) هي علاقة جنسية متفق عليها بين رجل وامرأة غير متزوجين. المجتمع يتناقش حول أخلاقية أو شرعية هذا العمل هل يقبله أو لا يقبله؟ هو موضوع يُعتَبر حساساً جداً خاصةً في الدول العربية والإسلامية. آخذين بعين الاعتبار أن المجتمع العربي والإسلامي تربى على مبادئ أخلاقية دينية محافظة تُحرِّم هذا السلوك. مع هذا فإن الكثير من الناس مارسوا ويمارسون هذا السلوك.

المشاهير من الناس وكذلك عامة الناس حولنا هم متورطون بمثل هذه الممارسات في كلّ يوم لكن الناس تتكلم عن هذا الموضوع سرّاً لأن التورط بهذا السلوك يعتبر من أكبر الذنوب.

لماذا؟ لأن أكثرية الناس تؤمن أن هذا الشخص الذي ارتكب الزنى سوف يثير غيظ كثير من الناس لأنه شذ عن أخلاقية العرف العام. هو عمل غير أخلاقي بنظر الدين وبنظر عامة الناس. لكن بعض الناس المتحررين يعتبرون ممارسة الجنس قبل الزواج هو عمل طبيعي يعبّر عن الممارسة العملية لمشاعر العلاقة الحميمة بين شخص وآخر. هم لا يرون أي شيء

خطأ في التعبير عن عمق مشاعرهم بواسطة ممارسة الجنس مع شخص آخر لا تربطهم به علاقة زواج، على شرط أن تكون ممارسة الجنس هذه مع شخص ارتبطنا به لمدة طويلة وليس علاقة عابرة أمدها يوم أو يومين ونحن نشعر أن ممارسة الجنس مع هذا الشخص سوف يقوي العلاقة بيننا أكثر. ألا يعتبر هذا عملاً صحيحاً بدلاً من أن يكون خطأً من الناحية الأخلاقية؟ ما نراه في وقتنا الحاضر أن عدداً كبيراً من الناس يمارسونه ويكون نفاقاً أن نتكلم عن أخلاقية هذا العمل ونصفه بالعار.

أما الآخرون فهم يتبعون التقاليد والعرف العام الذي يُحرم الجنس قبل الزواج. القضية الأخلاقية متعلقة بالدرجة الرئيسية بـ «مع من مارست الجنس ولأي سبب مارسته؟». إذا مارسته مع شخص تربطك به رابطة حب والجنس هو تعبير عما تشعر به من عواطف تجاه ذلك الشخص فليس في هذا شيء خطأ. الدين يحرِّم ذلك لكن إذا كان القصد منه جيد وأنت مارسته مع من تحب قبل زواجك منه، أعتقد أن الله سوف يفهم ذلك ويقبله. بعد كلّ هذا إن القصد من الحياة هو الحب الذي يريدنا الله أن نعيش بموجبه.

* * *

الفصل الثامن

اللحظة الحاضرة
هي مصدر الأخلاق

أخلاقية اللحظة الحاضرة هي المبدأ الأخلاقي الأكثر تطبيقاً في حياتنا اليومية لكننا نواجه معضلة أخلاقية في كلّ موقف، في كلّ لحظة وفي كلّ قرار نتخذه. النظام الأخلاقي للحظة الحاضرة يتبع الأولوية في الالتزامات الأخلاقية ويختار أي الالتزامات أكثر أهمية من الآخر في الموقف المعين. أخلاقية اللحظة الحاضرة يمكن تطبيقها بسهولة في البيت في العمل في المدرسة.

أولاً: لنأخذ مثالاً كيف نطبّق أخلاقية للحظة الحاضرة في موقف معين في البيت؟، لنفترض أنا وأبي اتفقنا أن نلتقي في مطعم لنأكل العشاء سويةً يوم الثلاثاء الساعة الثامنة مساءً.

أنا وعدت أن ألتقي مع أبي على العشاء في المطعم وهذا الموقف يقع تحت التزام أخلاقي هو الإيفاء بالوعد أو الإخلاص. لكن في المدرسة يوم الثلاثاء صباحاً اكتشفت أن لدي امتحاناً في موضوع البايولوجي يوم الأربعاء وهذا يستوجب عليّ أن أبقى في البيت لكي أدرس طوال يوم الثلاثاء بدلاً

من أن أخرج مع أبي لتناول العشاء، هذه معضلة أخلاقية. بعد تفكير طويل بهذا الموقف ورغم أني وأبي خططنا مسبقاً لتناول العشاء في المطعم، أنا قررت أن أغيّر ما خططته مع أبي وتأجيله إلى موعد آخر في يوم آخر والبقاء في البيت لكي أدرس للامتحان. هذا العمل هو إخلاء بالوعد مع أبي لتناول العشاء سويةً، لكن الامتحان هو أكثر أهمية من تناول العشاء. أنا أعطيت الأولوية للامتحان على تناول العشاء لكي أوفي بالتزاماتي الأكثر أهمية وهو تحقيق النجاح في حياتي.

ثانياً: لنأخذ مثالاً كيف نطبّق أخلاقية اللحظة الحاضرة في موقف معين في **العمل**: لنفترض أنا أعمل في مطعم، لا يوجد في المطعم ذلك اليوم غير أنا والطباخ. فجأةً الطباخ سكب بطريق الخطأ الزيت الحار على يده وبدأ يصرخ يطلب النجدة. ذهبت مباشرةً إليه لكي أسعفه، لكن امرأة من داخل غرفة الطعام صرخت طالبةً النجدة لأن زوجها أصيب بسكتة قلبية. الآن أنا أواجه معضلة أخلاقية. لدي التزامين أخلاقيين، لكن أيهما أهم من الآخر؟ عليّ أن أُقَيّم أيّاً من الشخصين هو في وضع أكثر خطورة من الآخر؟ في هذا الموقف الشخص الذي أصيب بالسكتة القلبية هو أكثر خطورة من الشخص الذي احترقت يده بالزيت الحار. خابرت سيارة الإسعاف وتم نقل الاثنين إلى المستشفى.

ثالثاً: لنأخذ مثالاً كيف نطبّق أخلاقية للحظة الحاضرة في موقف معين في حياتنا اليومية في المدرسة، لنفترض أنا ضمن مجموعة من الطلبة التزمنا بتقديم بحث في موضوع البايولوجي المقرر تقديمه بعد عدة أسابيع. أنا (الذات الشخصية) شعرت بالكسل وقررت أن لا أَحضر أيّاً من

اجتماعات المجموعة لكني في الوقت نفسه تظاهرت بأني أعمل على البحث. عندما حان موعد تقديم البحث قلت للمجموعة: «أنا لم أنجز الجزء المخصص لي من البحث» ولم تتمكن المجموعة من تقديم البحث. قرر البروفسور إعطاء المجموعة علامة السقوط. هذه معضلة أخلاقية بين الـ(أنا والجماعة). إن عليّ التزاماً أخلاقياً تجاه المجموعة بأن أصلح ما سببته لهم. أنا قررت أن أخبر البروفسور بأن الخطأ هو خطئي، أنا الذي تسبّبت في عدم إنجاز البحث وأنا المسؤول الأول والأخير.

لحسن الحظ قرر البروفسور أن يمنح المجموعة علامة النجاح. أنا أعتقد أن بإمكان الإنسان أن يعيش حياته وفق أخلاقية اللحظة الحاضرة رغم المعضلات التي يواجهها في كلّ موقف حياتي في اختياره لأولويات التزاماته الأخلاقية.

* * *

الفصل التاسع

القومية هي مصدر الأخلاق

مفهوم القومية

كلمة القومية تُستعمل بصورة عامة لوصف ظاهرتين:

أولاً: موقف عضو القومية في اعتزازه بانتمائه إلى قومية معينة.

ثانياً: الأفعال التي يقوم بها عضو القومية عندما يبغي تحقيق مصير وهوية ومستقبل قوميته السياسي في السيادة.

ماذا يعني الانتساب إلى قومية؟ وما هو مقدار اهتمام الشخص بقوميته؟ القومية وهوية الانتماء إلى القومية يمكن أن يُعَرف بالمنشأ العرقي والثقافي المشترك. بينما عضوية الانتماء إلى القومية هو غالباً ما يعتبر غير إجباري لكن في بعض الأحيان يعتبر إجبارياً. درجة اهتمام الشخص بقوميته هو غالباً ولكن ليس دائماً يكون عالياً جداً.

هل سيادة واستقلال القومية يتطلب تكوين دولة مع جميع السلطات الوطنية والعلاقات الدولية؟

رغم جميع القلق الناشئ من تعريف مصطلح القومية إلاّ أن هناك اتفاقاً لا بأس به على أن النمط النموذجي للقومية في التأريخ يعني سيادة حقوق

قومية معينة على حقوق قومية أخرى. والسيادة الكاملة هي هدف برنامجها السياسي الثابت. السيادة على المنطقة التي تسكنها القومية هو تقليد ينظر إليه على أنه تمهيد للسيادة الوطنية وتشكيل دولة مستقلة. السيادة على المنطقة يعني السيطرة على المصادر الطبيعية في المنطقة.

والسيطرة على حركة الأشخاص والمال من وإلى المنطقة. المقاطعات العرقية هي وحدات سياسية ينظر لها القوميون على أنها ملك لجماعة قومية عرقية واحدة وهم مسؤولون عن حماية ونشر تقاليدهم وعاداتهم. هذا هو النموذج التقليدي للقومية الذي ظهر في القرن التاسع عشر في أوروبا وأميركا اللاتينية. هذا النموذج التقليدي للقومية انتشر فيما بعد عبر العالم، وفي وقتنا الحاضر يبقى هدف كثير من القوميات العرقية المعاصرة. القومية في شكلها العام يعنيها رسم الحدود الجغرافية بينها وبين الثقافات العرقية الأخرى وسيادتها على المنطقة العرقية الخاصة بها. إذا أراد أحد أن يشارك في صراع قوميته يجب أن يكون لديه فكرة عن مفهوم القومية وعن معنى انتمائه إلى تلك القومية. القومية هي أي مجموعة من الناس تطمح إلى تشكيل منظمة تشبه الدولة. إذا نجحت هذه المجموعة لتكوين دولة فإن ولاء أعضاء الجماعة يكون ولاء طبيعته مدنية وليست عرقية. الطرف الآخر من الانتماء والأكثر نموذجاً للادعاء القومي هو يركز على الانتماء غير الطوعي (إجباري) للجماعة ذات المنشأ الواحد واللغة والتقاليد والثقافة المشتركة، لذلك من النظرة التقليدية فإن القومية العرقية هي مجموعة مرتبطة بمنشأ وثقافة وتقاليد ولغة مشتركة.

الفرد ينتمي إلى هذه القومية العرقية بالولادة. الطفل لا يختار أي لغة

يتكلم، والمبادئ الأخلاقية التي يتعلمها الطفل هي مغروسة في اللغة. الأخلاق تصاغ وتُلَقن داخل الجماعة العرقية. غالباً ما يكون الانتماء إلى الجماعة العرقية له فوائد شخصية ـ فالتعاون داخل الجماعة العرقية هو ميزة يحتاج إليها كلّ فرد، لكن هذا التعاون لا يشمل الأشخاص المنتمين إلى جماعات عرقية أخرى مختلفة.

ليس هناك ثقة بالشخص الغريب والشعور بالحذر منه، هو ظاهرة عامة مما يؤدي إلى النظر إليه كعدوّ. مجرد الشك بالغريب يمكن أن يؤدي إلى مواقف صراع. الأفراد الذين يشعرون بتفضيل أنفسهم وأقربائهم وأبناء عشيرتهم إنما هم يعبّرون عن تصرفات غريزية هي أساس قانون الانتخاب الطبيعي الذي يدعم انتشار الجينات الوراثية لتلك الجماعة.

الجماعات القومية المختلفة

مبدأ القومية هو مبدأ واسع وصارم، نحن أشرنا في البداية بأن القومية تركز على:

أولاً: موقف عضو القومية في اعتزازه بانتمائه إلى قومية معينة.

ثانياً: الأفعال التي يقوم بها عضو القومية عندما يبغي تحقيق مصير وهوية ومستقبل قوميته السياسي في السيادة. النقطة المركزية السياسية هي الأفعال التي يستأنس القوميون القيام بها.

لنبدأ بالسيادة وقطعة الأرض التي تسكنها تلك القومية التي هي غالباً نقطة الصراع القومي للاستقلال. هذه تثير قضايا مهمة: هل السيادة السياسية على المنطقة تتطلب تكوين دولة؟ وما هي الأفعال المقبولة

أخلاقياً للحصول على السيادة السياسية والإبقاء عليها؟ وتحت أي شروط تسمح الأخلاق لمثل هذه الأفعال؟

السيادة السياسية تتطلب تكوين دولة تمتلكها القومية العرقية. صراع القومية من أجل استقلالها يتطلب استعمال العنف ضدّ السلطة المركزية وهذه هي وسيلة شرعية للحصول على السيادة السياسية، إدامتها وتقويتها. بعد إنشاء الدولة هناك خيارات أخرى تتفتح أمام القوميين. هم بعض الأحيان يطمحون في التوسع حتى وإن اقتضى الأمر إلى الحرب. التوسع غالباً ما يُبَرّر على أنه ضروري لضم جميع أفراد القومية تحت دولة واحدة، وفي أحيان أخرى هو رغبة القومية في الحصول على رقعة أرض أكبر ومصادر طبيعية أكثر.

كذلك يمكن الحصول على السيادة السياسية والاحتفاظ بها والدفاع عنها بالطرق السلمية والمبدئية: القومية السياسية مرتبطة بصورة وثيقة بالقومية الثقافية التي تصرّ على المحافظة على أصالة ونقاء ثقافتها وتدريسها وانتقالها من جيل إلى آخر. وكلّ عضو في القومية مسؤول عن المحافظة على إرثه الثقافي من عادات وتقاليد وأعراف اجتماعية التي هي الورقة الرابحة التي تفوز على الاهتمامات الأخرى وحتى تفوز على الحقوق الشخصية وهذه الورقة الرابحة تستعملها القومية في صراعها من أجل الحصول على الاستقلال.

القومية التقليدية

هي برنامج سياسي يرى تكوين وحماية دولة مستقلة ذات سيادة يمتلكها تجمع قومي عرقي هو الواجب الرئيسي لكلّ عضو من أعضاء

الجماعة. وعلى جميع أعضاء القومية أن يَحتكموا بالقضايا الأخلاقية بالتراث القومي العرقي. القوميون التقليديون حذرون دائماً حول نوع الثقافة التي يدافعون عنها ويعززوها، وحول نوعية الموقف الذي يتخذه الناس تجاه دولتهم القومية. هذا الموقف الحذر يحمل في طياته بعض الخطر. القوميون المتحمسون يضعون مطالب جديدة كلّ يوم على الأفراد، مثل إجبار أفراد القومية على شراء بضائع مصنوعة محلياً، غالباً ما تكون رديئة الجودة ومقاطعة البضائع الجيدة، الرخيصة المستوردة.

مركزية القومية

هو البُعد النموذجي للقومية، يعني الإبقاء على وحماية التنظيم السياسي للقومية ودولتها. على أعضاء الجماعة القومية ممارسة ونشر العادات والثقافة العرقية للقومية خلال حياتهم اليومية داخل الدولة العرقية (إذا كانت هناك دولة) والمحافظة على شكل الحكم الذاتي السياسي (إذا كان هناك حكم ذاتي) وممارسة حياة ثقافية متمركزة حول ثقافة القومية العرقية والتزاماتها الأخلاقية وحقوقها السياسية في إعلان أراضيهم القومية كدولة. قوة المطالب القومية تتضمن الإصرار على استعمال اللغة القومية في المؤتمرات الدولية، وهذه المطالب تفضل المصلحة القومية على المصلحة الشخصية ومصلحة الجماعة أو العشيرة وأي مطالب أخرى حتى حقوق الإنسان.

أخلاقية الجماعات القومية

أي الأفعال ضرورية للحصول على الاستقلال السياسي؟ وهل دولة

القومية العرقية ومؤسساتها الرسمية تصون ثقافة وتراث القومية العرقية؟ وهل هي مستقلة عن الإرادة الفردية للأعضاء وإلى أي مدى هي محمية؟ وهل الدفاع عن الحقوق القومية هو مقبول أخلاقياً وهل هو عدل؟ لماذا المطالب القومية للجماعات العرقية تحتاج من يدافع عنها؟ في بعض المواقف تبدو المطالب معقولة: على سبيل المثال حالة بعض التجمعات القومية مثل اليهود والفلسطينيين والأكراد تجعل من الشخص يوافق بصورة تلقائية على امتلاكهم دولة خاصة بهم لكي تحل مشاكلهم العويصة. لكن على الدولة القومية أن تلتزم بمعايير أخلاقية وسياسية والمطالبة بالحصول على الدولة أن يكون له شرعية أساسية. بعض مطالب القوميات التقليدية تتعارض مع بعضها البعض مثل اليهود حققوا مطلبهم بالحصول على الدولة والآن هم يطمحون إلى توسيع حدودهم لتشمل الأراضي الواقعة بين نهر النيل في مصر ونهر الفرات في العراق.

ونصف الفلسطينيين يطالبون بالحصول على دولة مستقلة لها حدودها الخاصة والاعتراف بوجود الدولة اليهودية، والنصف الآخر لا يعترف بدولة اليهود ويريد إزالتهم من الوجود وتأسيس دولة فلسطينية واحدة تضم جميع أراضي اليهود والفلسطينيين. ومطلب الأكراد بالسيطرة على جميع الموارد الطبيعية (النفط) في شمال العراق الذي يتعارض مع السلطة المركزية في بغداد ويطالبون ضم مدينة كركوك ذات الأكثرية التركمانية إلى إقليم كردستان والذي يتعارض مع الحكومة التركية التي تدافع عن حقوق التركمان في العراق. اختلاف المعايير الأخلاقية التي هي مقبولة وضرورية لجماعة ما ومرفوضة من جماعة أخرى، لكن المطلب الأخلاقي الرئيسي

الذي هو الاستقلال الشخصي والعمل الخيري غير المنحاز (العطاء إلى غير الأقلية العرقية) يتعارض مع واجبات الشخص القومي تجاه التجمع القومي العرقي الذي ينتمي إليه. القوميون المتزمتون يفرضون على نساء القومية العرقية أن تلتزم بأخلاقية الجماعة التي تصرّ على أن تلد المرأة عضواً جديداً للقومية العرقية تغذيه وتربيه وفق عادات وثقافة القومية العرقية، وهذا يتعارض مع الحرية الشخصية للمرأة وخصوصيتها.

هناك قيمة أخلاقية أخرى مهددة بالخطر هي التنوع العرقي إذ لا تسمح القومية العرقية التقليدية بالاختلاط الجنسي والتزاوج مع القوميات الأخرى للمحافظة على نقاء القومية العرقية. كذلك الواجبات المفروضة على أعضاء القومية العرقية تتعارض مع روح الخلق والإبداع الفردية، على سبيل المثال أن يقال لكاتب أو موسيقار أو فيلسوف أو شاعر إن لديهم واجبات خاصة لتعزيز التراث القومي (طلب صدام حسين الرئيس العراقي السابق من الشاعر اللبناني الكبير نزال قباني أن يؤلف شعراً قومياً بدل شعر الحب والغزل).

بعد النظر إلى القيم الأخلاقية المهددة بالخطر (الحرية الشخصية وروح الخلق والإبداع) تظهر قيمة أخلاقية أخرى نشأت من الحاجة الطبيعية إلى أن البشر يريدون العيش بحرية وسعادة وأمان تحت ظروف طبيعية. في كثير من الدول المعاصرة مثل الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأميركية، مواطنون من أصول عرقية مختلفة يعيشون سوياً ويفضلون هذا النوع من التعايش. لكن القوميين التقليديين لا يفضلون اختلاط الثقافات العرقية والتعايش الجماعي. الممارسات العملية لأخلاقية

القوميين التقليديين تطالب بالحقوق العادلة لقوميتهم وترفضها للقوميات الأخرى، ومصدر هذا العدل المنحاز هو شحة المصادر الطبيعية.

هناك أراضٍ قليلة لكلّ أقلية عرقية أن تمتلك دولة خاصة بها، وتكون المصادر الطبيعية قليلة لو كلّ مجموعة عرقية تريد أن تحتكر كلّ ما في أراضيها لاستعمالها الخاص فقط.

هناك أهمية خاصة للاحتفاظ بالتراث القومي للقومية العرقية، ثقافتها، عاداتها، وتقاليدها. شعور الفرد بانتمائه إلى قومية معينة واعتزازه بها يدعو إلى التآزر والتعاون بين أفراد تلك الجماعة القومية لكن هذا ليس مهماً بالنسبة للحياة السياسية ومطلب امتلاك دولة خاصة بالقومية.

النظرة المضادة للتعصب القومي هي نظرة أكثر شمولية فيها الالتزام الأخلاقي للفرد يتضمن جميع البشر بغض النظر عن موقعهم الجغرافي أو اختلافاتهم الثقافية. والبرنامج السياسي يعكس بصورة نزيهة الالتزام الأخلاقي الشامل لجميع القوميات والأعراق البشرية والدولة المرتقبة هي وحدة الكون وإله واحد كلي الوجود. رغم أن الولايات المتحدة الأميركية هي الشيطان الأعظم في سياساتها الخارجية إلاّ أن الشعب الأميركي هو مثال للدولة الشاملة التي تجمع قوميات وشعوب مختلفة من عدة دول وأجناس وأعراق وقوميات وديانات ومستويات ثقافية ومادية وعلمية مختلفة تحت حكومة مركزية واحدة ودستور واحد والجميع يحب هذا الوطن الجديد الذي حقق لهم الحرية والأمان والرفاه الاجتماعي بعد أن كانوا شعوباً وأقليات وأفراداً مضطهدين في بلدانهم التي هاجروا منها. القوميات المختلفة تمارس حضارتها وعاداتها ولغتها وتقاليدها وتحتفل بأعيادها

القومية، كلهم مواطنون شرفاء يخدمون هذا الوطن بصدق وإخلاص ويتمتعون بجهد أعمالهم ـ يشترون البيوت والسيارات والملابس وما تشتهي أنفسهم من خيرات أنعم الله بها عليهم.

نقاط ضعف القوميات العرقية

١) مطالب القومية العرقية لها قوة ذاتية لكن لا يمكن أن تمحق الحقوق الفردية للإنسان.

٢) المطالب المشروعة للقومية العرقية ليس من الضروري أن يعطيهم الحق بالحصول على دولة ولكن بالأحرى يعطيهم الحق بالحصول على مستوى معين من الاستقلال القومي الثقافي للفرد وللجماعة بغض النظر عن محل الإقامة داخل الدولة.

٣) القومية العرقية تابعة للدولة المدنية ولها التزام وطني بغض النظر عن منهاجها القومي والسياسي.

٤) أساطير وخرافات القومية العرقية يمكن أن تقبلها الدولة المدنية إذا لم يكن فيها أذى لباقي المجتمع. هي مسموح بها أخلاقياً بالرغم من زيفها.

٥) أي مطلب شرعي تتقدم به القومية العرقية يجب أن ينبع من الاختيارات الحرة للمواطن المخلص لوطنه وفيه منفعة عامة.

أهمية الجماعة القومية

١) القيم الأخلاقية:

كلّ جماعة قومية عرقية هي كيان مهم في حدِّ ذاته. فقط داخل التركيبة

الاجتماعية القومية العرقية، قيم أخلاقية تتكون وتنتقل من جيل إلى آخر. أعضاء هذه الجمعية القومية في تعايشهم في بقعة خاصة يساعد على المشاركة في إحياء وإدامة تراثهم وتقاليدهم ولغتهم. أعضاء الجماعة القومية هم أقرب أحدهم إلى الآخر من الذين من قوميات أخرى. الجماعة القومية تصبح شبكة من الأعضاء المرتبطين أخلاقياً ـ جماعة أخلاقية خاصة مرتبطة بالتزامات قومية قوية تحرسها وتحافظ عليها يراقب أحدهم الآخر ويصحح أحدهم الآخر. من الالتزامات البارزة لكلّ فرد هو ما يتعلق بسمات القومية العرقية، فوق كلّ شيء هو **اللغة والعادات**، يجب حمايتها، تعزيزها، الحفاظ عليها وتقويتها.

٢) السعادة:

الجماعة القومية العرقية هي مهمة لكلّ عضو لكي يكون سعيداً. هي مهمة خاصةً أن الفرد يكتسب داخل الجماعة معرفة القيم الأخلاقية والمفاهيم الضرورية لقيادة حياة أخلاقية تنسجم مع أخلاقية الجماعة.

٣) الهوية:

التربية قبل التغذية ـ هي القوة الأساسية التي تحدّد هويتنا الشخصية ـ نحن نكتسب شخصيتنا الذاتية من المجتمع الذي نعيش فيه. هوية كلّ شخص تعتمد على المشاركة الفعلية في حياة الجماعة القومية. نحن مفقودون إذا لم نُعَرِّف أنفسنا كجزء من شريحة اجتماعية معينة: **قومية**، ليس من الضروري أن تكون دولة قومية، هذه القومية تمتاز بتقاليد خاصة. شعب يمتازون بحرف أو صفات معينة، كجزء من خليط اجتماعي. **الفرنسيون** مشهورون بصناعة النبيذ، **والإيطاليون** مشهورون بإنتاج زيت

الزيتون، وهناك الرقص القوقازي، والدبكات واللباس العربي، والخيول العربية، والخزف الصيني والساري الهندي، والمرأة الهندية يوصمون وسط جبينها بنقطة سوداء علامة الزواج. هذا هو الوجود القومي للشعوب المختلفة، هو يُعَرِّف القومية ويميزها عن القوميات الأخرى في خليط من القوميات المختلفة. الحفاظ على وتغذية الشعور القومي يمكن تحقيقه فقط داخل دولة قومية تتطابق مع الشعور القومي. أخلاقية الفرد تعتمد على نضح واستقرار الهوية الشخصية. الظروف العامة التي تشجع على تطوير الهوية الشخصية يجب الحفاظ عليها.

البرنامج القومي هو الأصلح للحفاظ على والمشجع لإبراز الهوية القومية والتفاخر بها. لذلك حياة التجمعات القومية يجب تنظيمها حسب الثقافة القومية لكلّ شعب. القوميون المتعصبون يطالبون بالحصول على دولة مستقلة، والقوميون الأقل تعصباً يطالبون بالحصول على حماية التراث الثقافي للقومية وبعض الحقوق السياسية.

٤) فهم الأخلاق:

اختلاف القيم الأخلاقية للجماعات القومية لها أهميتها الخاصة. بعض القيم الأخلاقية هي عالمية مثل الحرية والمساواة، ولكن هذه القيم نموذجية، نظرية وضعيفة. القيم الأخلاقية العملية والقوية يمكن تمييزها داخل تراث ثقافي معين لدى أعضاء القومية العرقية المخلصين والمتحمسين لثقافتهم وانتمائهم القومي. اللغة مترابطة بصورة قوية بالتراث القومي ـ الطفل يتعلم اللغة ومعها عادات وتقاليد القومية العرقية. القومية تمتلك دستوراً أخلاقياً يتربى عليه الطفل ويفهمه، هو المدرسة الابتدائية في الأخلاق.

٥) التنوع :

كلّ تراث قومي يساهم بطريقة فريدة بالتراث البشري المتنوع. ملامح الوجه للقوميات المختلفة هو انعكاس للصفات الشخصية الداخلية المختلفة وللأخلاقيات المختلفة. كلّ واحد يساهم في عملية تجديد وتطوير لبراعة وقابليات الإنسان التي تظهر في المكان والزمان والظرف المعين. لا يسمح لأي أحد أن يحكم أو يقارن القيم الأخلاقية لأي قومية لأن في هذا قياساً لما هو لا يمكن قياسه أو مقارنته. من يحمل القيم الأخلاقية الأساسية لقوميته هو يحمل القيم الأخلاقية لجميع البشر، فيها تراث قومي ونمط من الحياة يساهم في التراث البشري ومنها يستمد قيمه وتراثه. لهذا فإن التنوع هو تجمع: هو يُنَسِّب قيماً أخلاقية لكل تراث خاص من مجموع التراث البشري المتنوع. القومية العرقية هي وحدة طبيعية من التراث العالمي. التنوع الثقافي القومي يجب الحفاظ عليه وحمايته من قبل مؤسسات الدولة المدنية. تعدد نمط الحياة والقواعد الأخلاقية للقوميات المختلفة يمكن المحافظة عليه وتعزيزه من خلال ارتباط القوميات العرقية المختلفة وتفاعلها مع بعضها البعض ضمن دولة متعددة القوميات العرقية تحمي الحقوق القومية والسياسية للجميع.

القومية والعدالة

العدالة السياسية لا تعتمد على مطلب اكتساب الهوية الشخصية للقومية، تحقيق سعادتها وحماية تراثها القومي، هي تحتكم إلى الظروف التي تجعل من السياسة القومية مقبولة: جزء كبير من العالم منتظم في دولة قومية، لذلك فأي تجمع قومي جديد يطمح إلى تأسيس دولة قومية يقلد

في ذلك النموذج الدولي الموجود. الجماعات القومية التي عانت في الماضي من الحكم غير العادل بحقها مثل الشعب الفلسطيني والشعب الكردي تعطيهم الحق بالمطالبة بتأسيس دولة خاصة بهم لتشعرهم بالمساواة.

١) حق تقرير المصير:

مجموعة قومية ذات حجم كافٍ يؤهلها لأن تحكم نفسها وتقرر مصيرها إذا كانت هذه هي رغبة أعضاء المجموعة. الإرادة الديمقراطية للأعضاء هي الأساس في تحقيق مطالبهم في تأسيس دولة قومية عرقية ومؤسسات تدير شؤون تراث القومية العرقية وممارساتها.

٢) الحق في الدفاع عن القومية وإصلاح حكم الماضي القديم غير العادل بحقها:

الاضطهاد وغياب العدالة يعطي الضحية سبباً عادلاً والحق في الانفصال. إذا أقلية قومية كانت مضطهدة من قبل الأكثرية، وإن كلّ عضو في الأقلية القومية هو أسوأ حالاً من أي عضو في القومية الأكثرية، بكلّ بساطة وبمقتضى انتسابهم إلى الأقلية فإن جميع مطالب القوميين المتحمسين هي مقبولة أخلاقياً وحتى يمكن أن تكون إجبارية. استعمال القوة للحصول على الانفصال والسيادة على أراضيهم هو قرار مشروع فقط في الدفاع عن النفس.

٣) الحق في المساواة:

أعضاء القومية الأقلية هم غالباً ما يكونون مغلوباً عليهم مقارنةً بالقومية

الأكثرية المسيطرة لأنهم مضطرون للاعتماد على من يتكلم لغة الأكثرية لقضاء حاجاتهم اليومية. بما أن حرية ممارسة الحياة اليومية للفرد لها الأولوية، يصبح من الصعب تغيير الاعتماد على لغة الأقلية لأجل قضاء حاجات الحياة اليومية الضرورية. هذا الاعتماد على لغة الأكثرية لممارسة الحياة اليومية هو غير عادل للأقلية. حكومة القومية الأكثرية يجب أن تكون معتدلة وتراعي حقوق القوميات الأقلية في ممارسة حياتهم اليومية ومنحهم المؤسسات التي تدير أعمالهم اليومية بلغتهم الخاصة، هي علاج للحفاظ على المساواة والعدالة الاجتماعية ويجعل من دولة القومية الأكثرية دولة معتدلة متعددة القوميات.

٤) الحق في النجاح:

الدولة القومية نجحت في الماضي بتعزيز الديمقراطية والمساواة لشعوبها. الديمقراطية تتطلب أشياء من الناس: أن يكونوا فعّالين متماسكين وفي الوقت نفسه أعضاء وممثلين للقومية. ترابط القوميات العرقية هو قوة محفزة لمزيد من التوزيع العادل للخيرات. الدولة القومية تبدو ضرورية لوقاية القيم الأخلاقية القومية في المستقبل لأنها الشكل الوحيد لمؤسسة سياسية قادرة على حماية القومية من تهديد امتصاصها في الاقتصاد العالمي. القومية هي تقليد تاريخي قديم وفي الوقت نفسه تقليد حديث جداً، هي تستخدم إدراكاً مزدوجاً للوقت، دائرياً ومستقيماً. القوميون يطالبون بتقرير المصير والاستقلال وفي الوقت نفسه يظهرون أنفسهم ضعفاء وضحية، هم يؤكدون على خصوصية اختيار دولتهم بينما يَدّعون أن لديهم مهمة عالمية، وأخيراً القومية تُظهر تعايشاً داخل العشيرة

ذات الأصل الواحد ـ وكذلك اختلاط الدم بين قوميتهم وبين القوميات الأخرى وأبناء الدولة المدنية غير المنتمين للعشيرة. القومية قادرة على أن تجدّد نفسها وأن تتأقلم مع مواقف مختلفة. العوامل المسؤولة عن تغيّر مسار حركة الاقتصاد باتجاه النمو هي القومية والوطنية ـ مثال على ذلك الشعب الألماني والشعب الصيني والشعوب الأميركية.

التعايش بين القوميات

ثقافة متحررة هي أكثر ملاءمة لمجتمع متكون من تجمعات عرقية متعددة الثقافات. فكرة إنشاء دولة معتدلة مفتوحة للثقافات المتعددة التي فيها كلّ تجمع يستلم قسطاً من حقوقه التي تعالج احتياجاته، بدلاً من عزل أنفسهم عن التجمعات الأخرى، المشاركة في النفع العام يتخطى ثقافة المجتمع المدني في الدولة في حوار مفتوح مع الأقليات الأُخرى. وجود مجتمع متعدد القوميات مبني على التعاون والتفاهم والعدالة والمساواة والحب هو الضامن الوحيد لحياة مستقرة سياسياً واجتماعياً. الانفتاح هو ضروري لتفادي الفخ: نظريات قومية جديدة تحتوي بصورة غير مقصودة على حوافز حمقاء يستغلها القوميون المتحمسون لعمل ما لا يقصده صاحب النظرية القومية. الحل الوحيد هو ممارسة الاعتدال إلى أقصى الحدود.

الجدل في مطلب القوميين المعتدلين في سياق المجتمع المتعدد القوميات ربما يؤدي إلى موقف محترم للقوميات المختلفة هو موقف متحرّر وربما يؤدي إلى شمولية كونية كهدف نهائي. موقف القوميين الأحرار هو موقف معتدل ومتمدن. وهناك الكثير يمكن أن يقال في

صالحه. هو يُصلح بين الغرائز التي تفضل نوعاً من الحماية السياسية للثقافة القومية وبين أخلاقية السياسة المتحررة. بالطبع هذا يثير موضوع الانسجام بين المبادئ العالمية المتحررة وبين الارتباط بالمبادئ القومية العرقية وثقافتها وتراثها. القوميون الأحرار طَلَّقوا فكرة دولة قومية خاصة بالقومية العرقية. حبهم لامتلاك الدولة القومية حل محله اعتبارات ومبادئ إنسانية أممية التي انتصرت على مبدأ الدولة القومية. التخلي عن فكرة الدولة القومية واقتراح تعدد القوميات في دولة مدنية واحدة هي فكرة أممية وإنسانية. في السنوات الحديثة موضوع القومية أصبح يناقش على مستوى عالمي. الارتباط الفكري الرئيس هو أن مطلب الدولة القومية هو مطلب طبيعي، دولة مستقرة تشكل وحدة من التكوين الدولي للعالم على افتراض أن كلّ دولة قومية تمثّل شعبها المؤلف من ثقافة عرقية واحدة متجانسة، فيها جميع الأعضاء يميلون إلى التماسك مع أبناء بلدهم. لكن معظم دول العالم الآن مؤلفة من قوميات عرقية مختلفة. على سبيل المثال دول مثل العراق وإيران وتركيا وسوريا هي دول تعيش فيها قوميات عرقية مختلفة لكن الأكراد في شمال العراق وشمال شرق سوريا وجنوب تركيا وشمال غرب إيران يطالبون الآن بالحصول على دولة قومية خاصة بأراضيهم مما ترفضه دولة إيران والعراق وتركيا وسوريا. وهل يحق للقوميات الأخرى مثل التركمان في كركوك العراق أن يطالبوا بتأسيس دولة خاصة بهم؟ وماذا عن الإيرانيين في البحرين، والبربر في المغرب العربي، والفرنسيين في كيوبك كندا؟ مؤيدو أخلاقية الفكرة الأممية والنظام العالمي يقترحون كبديل للدولة القومية حكماً ذاتياً داخل الدولة الأم مع الانفتاح على باقي القوميات لأن الاستقرار السياسي والاجتماعي يتطلب من المجتمع المتعدد

القوميات التفاعل القوي بين الثقافات القومية المختلفة لأجل إحباط عدم الثقة وتقليل العدل المنحاز وتكوين قاعدة قوية للتعايش السلمي، حلّ جميع المشاكل وتأسيس العدالة للجميع. الاتحاد الأوروبي تأسس لتأمين سلام دائم بين الدول الأوروبية التي عانت من حربين عالميتين هو مثال يمكن أن تقتدي به دول كبيرة ودويلات أخرى في العالم. وفي النهاية الجمع بين مطلب القوميات العرقية في إنشاء دولة خاصة بهم وبين اعتبارات الأمن والسلام فإن الدلائل تشير إلى الأممية في صياغة وحل معضلة الأقاليم.

* * *

الفصل العاشر

الولاء للّه أم الولاء للجماعة؟

الإرهاب الانتحاري أصبح وسيلة مشهورة تستعملها جماعات دينية لتحقيق أغراض سياسية.

هذه المنظمات الإرهابية نجحت في استعمال أسلوب الإرهاب الانتحاري لتحقيق الدعم المالي والشهرة. هل هذا النجاح هو نتيجة الولاء لله أم الولاء للجماعة؟ ربط الانتحار بالقتل لأسباب سياسية هو ليس شيئاً جديداً.

الاستعمال الحديث للتفجير الانتحاري حصل على الشهرة عام (١٩٨٣) عندما قاد حزب الله العمل البطولي في مهاجمة القاعدة العسكرية البحرية الأميركية في لبنان. الإرهاب الانتحاري هو ظاهرة مستمرة في النمو وسبب هذا النمو المستمر يعود إلى استعماله المتزايد من قبل المنظمات ذات الاتجاهات الدينية.

خلال العشرين سنة التي سبقت (٢٠٠١) قُدِّر عدد العمليات الانتحارية بـ (١٨٨) عملية إرهابية، كان منفذوها جماعات ليس لها ارتباطات دينية. بين سنة (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠٤) ما يزيد على (٤٠٠) عملية انتحارية حدثت على الأقل ٧٠٪ سبعين بالمئة منها تم تنفيذها من قبل منظمات ذات الاتجاهات الدينية.

هذا الارتباط المتزايد بين الدين والإرهاب الانتحاري ربما يعود جزئياً إلى الدور الذي يلعبه الدين في تشجيع الرأي العام لدعم مثل هذه الوسائل والجماعات التي تقوم بها. تقريباً جميع المنظمات المتمردة من ضمنها التي تمارس الإرهاب الانتحاري تحتاج إلى دعم شعبي لكي تبقى على قيد الحياة. على الأقل هم بحاجة إلى قبول الجماعات المكونة لهذا التنظيم في إرسال شبابها للقيام بعمليات تتطلب الموت بطرق بشعة. معظم الجماعات المتمردة التي تستعمل الإرهاب هي تعمل هذا هادفةً للحصول على أكبر مستوى من التحمس لدى الجماهير الشعبية لقضيتهم ولمنظمتهم. ازدياد الإرهاب الانتحاري من قبل المنظمات الدينية التي تستعمل الدين للتغلب على الصعوبات التي يواجهها الإرهاب الانتحاري للحصول على الدعم الشعبي. هناك ارتباط مباشر بين الإسلام السياسي ودعم الإرهاب الانتحاري بين المسلمين. على الرغم من هذا الارتباط الظاهري فليس هناك معنى لهذا الارتباط. ربما الإرهاب الانتحاري هو ظاهرة معينة لديانة أو اعتقاد معين مثل المذهب الوهابي في السعودية. الإرهاب الانتحاري يُمارس بصورة مطلقة من قبل منظمات إسلامية، هذا يدعو إلى الاعتقاد بأن هناك علاقة بين الإسلام والإرهاب الانتحاري. مجاميع تبغي الحصول على سلطة سياسية تستخدم وسائل الاتصال الدينية في الجوامع لإثارة حماس جماهير الشباب المكبوت والمحروم من جميع وسائل الترفيه والتسلية، حالة اليأس التي يعانون منها تدفعهم للبحث عن حياة أفضل بعد الموت. هؤلاء الشباب الأبرياء لديهم معرفة قليلة بالإسلام، هم أهداف سهلة الكسب والتجنيد للقيام بعمليات التفجير الانتحاري كوسيلة للمقاومة العسكرية يستخدمهم السياسيون لتحقيق أغراضهم. اعتقاد الوهابيين الذي

يشجع ويدعم الإرهاب الانتحاري، هو يحلل موت عامة الناس الأبرياء الذي يسبِّبه التفجير الانتحاري. هذا ما يشهد له طبيعة الإرهاب الانتحاري غير المميزة التي غالباً ما تقتل أناساً ينتمون إلى نفس دين أو طائفة القائم بهذه العملية. أذكر حادثة كنت شاهداً لها في بغداد ـ العراق: كنت في سوق الخضار عندما جاء شخص ليبيع الرقي (البطيخ) في السوق كان معدل سعر الرقية الواحدة في السوق (١٠٠٠) دينار عراقي. هذا الشخص نادى بأعلى صوته «رقي ـ رقي ـ الواحدة بـ (١٠٠) دينار». تهافتت عامة الناس على هذا البائع الجديد من كلّ صوب وجاءت تشتري الرقي. هو وقف في وسطهم، سحب حزامه الناسف وفجر نفسه، قتل كلّ من كان حوله. هل هذا هو الجهاد الذي نادى به دين الإسلام؟ هل هذا إسلام؟

الاعتقاد بالحياة بعد الموت وتحليل الشهادة في سبيل الدين هو عنصر أساسي للتضحية بالنفس، من دون هذا الاعتقاد يكون من السهل وصم المنظمة التي تجنّد هؤلاء السذج بـ«المستغل المفترس الذي يقتات على الأفراد غير المحصنين والسهلي الانقياد» ترسلهم إلى الموت.

إذا كان هناك اعتقاد ديني معين يحث ويدعم الإرهاب الانتحاري داخل المجتمع إذاً هناك اختلاف بالمستوى الشخصي للإيمان بذلك التيار الديني يتبعه اختلاف بالدعم للإرهاب الانتحاري داخل ذلك المجتمع. ليس هناك أي ارتباط بين الاعتقاد الديني ودعم الإرهاب الانتحاري. الإفراط الشخصي في الدين ليس له علاقة بدعم الإرهاب الانتحاري. التوحد مع الله والتقوى يهدي الذات القلقة ويجعل من السهل قبول الأشخاص من خارج الجماعة.

الإيمان بالله الكلي الوجود له تأثير سلبي على التعصب والعدوان ضدّ من هم خارج ديننا. دعم الإرهاب الانتحاري هو ليس نتيجة الولاء لله ولكن هو نتيجة الولاء للجماعة. جماعات تستعمل الشعائر الدينية كوسيلة لكسب الدعم والتشجيع للانضمام إليها. الشعائر الدينية الشعبية مثل صلاة الجمعة تجمع شمل المسلمين في جامع واحد، تساعد على حلّ المشاكل الأخلاقية للجماعة وتزيد التعاون داخل الجماعة. الأفراد تربطهم عواطف لاشعورية بالولاء والتفاني في سبيل تلك الجماعة. ذلك الولاء للجماعة يتطور إلى ارتباط عائلي خيالي كبير، وهذا الارتباط يمكن إساءة استعماله من قبل منظمات سياسية معاصرة، تسأل الناس للتضحية بأنفسهم كاستعراض لارتباطهم العاطفي بالجماعة وأهدافها السياسية. الأفراد الذين يدعمون الإرهاب الانتحاري هم يعملون ذلك ليس بسبب إيمانهم بالله أو بدين معين ولكن بسبب ولائهم إلى جماعة تشجع وتدعم الإرهاب كجزء من المشاركة في شعائر دينية تخص الجماعة.

* * *

الفصل الحادي عشر

لماذا ينتمي الشباب إلى الجماعات الإرهابية؟

هناك أسباب كثيرة تدعو الشباب للانتماء إلى الجماعات الإرهابية: إعارة الاهتمام، الإثارة، ضغط الأصدقاء، الحماية، الكسب المالي، فقدان البديل الأخلاقي الصحيح، اليأس، الضجر.

في بعض العوائل الانضمام إلى الجماعات الإرهابية هو تقليد ينتقل من جيل إلى جيل. بعض الشباب ينتمون إلى هذه المنظمات بسبب شهرتها. أكثر الشباب لا يفهمون المخاطر التي تحيط بانضمامهم إلى هذه المنظمات. الآباء والأمهات ربما ليس لديهم علم بانضمام أطفالهم إلى تلك المنظمات. على الوالدين حثّ أطفالهم على عدم الانضمام إلى الجماعات الإرهابية.

علامات ارتباط الطفل بالمنظمات الإرهابية

على الوالدين أن يلاحظوا تغيرات في سلوك أطفالهم. هذه التغيرات تتضمن: هبوط في معدلات الدراسة، التغيب عن المدرسة، رسوم على جدران غرفة الطفل، على الكتب المدرسية، على الملابس، الطفل يلبس

طرازاً معيناً ولوناً معيناً من الملابس، التغيب عن البيت وعدم الالتزام بالأوقات المسموح له أن يكون خارجه، تغير في نوع أصدقائه، استعماله المخدرات أو تعاطيه الكحول. في حوزته سلاح أو كميات كبيرة من المال أو امتلاكه حاجات غريبة لا يعرفها الأهل. تورط ولدك في تصرفات إجرامية يحاسب عليها القانون.

بعض أعضاء العصابات الإرهابية ابتكروا إشارات يدوية للاتصال مع بعضهم البعض. استعمال هذه الإشارات يجب أن يكون تنبيهاً للأهل احتمال ارتباط أولادهم بالعصابات الإرهابية.

ما هو تأثير الارتباط بالجماعات الإرهابية؟

الجماعات الإرهابية تشكل حملاً ثقيلاً على المجتمع. العوائل قلقة باستمرار على أرواحها وأرواح أطفالها. الصديق الذي يرفض الانضمام إلى الجماعة هو في خطر بسبب هذا الرفض. ويصبح عنصراً منبوذاً من قبل أعضاء الجماعة. الأهل يتحملون عبئاً مالياً كبيراً بسبب تورط أبنائهم في عمليات إجرامية تقتضي توكيل محامٍ أو دفع فواتير المعالجات الطبية أو دفع تعويضات للضحايا. الشباب المتورطون مع هذه الجماعات يجب أن يتوقعوا السجن أو الموت.

ما هي أعمال الجماعات الإرهابية؟

الجماعات الإرهابية تختلف عن الجماعات الأخرى، هم يقومون بأعمال إرهابية وإجرامية مختلفة تتضمن: النهب والسلب، التخريب، الاعتداء، الاغتصاب، إحراق المباني، التهديد، التعذيب، المتاجرة

بالمخدرات، القتل والإرهاب الانتحاري. رسم شعاراتهم على المباني والأماكن العامة لفرض وجودهم وبسط سيطرتهم على المدن والأحياء السكنية. أعضاء الجماعة الإرهابية هم دائماً يبحثون عن المشاجرات العنيفة. هذا يتضمن القتل، الاعتداء بالأسلحة النارية، قيادة سيارة والرشق بالرصاص وقتل المدنيين الأبرياء أحياناً، لإثارة الرعب ولتثبيت الشهرة لجماعتهم لدى المواطنين.

الوقاية والتثقيف

الإدراك هو المفتاح لوقف نشاطات العصابات الإرهابية. كثير من الآباء والأمهات ليس لهم علم بتورط أبنائهم بالعصابات الإرهابية. معظم الشباب يكرهون مناقشة انضمامهم إلى تلك الجماعات مع أهاليهم لهذا السبب على عامة الناس أن يعرفوا كيف يميزون علامات نشاطات الجماعات الإرهابية في منطقتهم واتخاذ التدابير اللازمة. أول خطوة هو التأكد من وجود مشكلة الإرهاب في المنطقة. على الناس الذين تحسسوا وجود الإرهاب في المنطقة أن يناقشوا هذا الموضوع مع أبنائهم وتحذيرهم أن لا يكونوا ضحية الجرائم الإرهابية. جماهير المنطقة الذين تحسسوا وجود مشكلة الإرهاب في منطقتهم أن يعملوا سوياً لحل هذه المشكلة. وضع برنامج لنشاطات الطلبة بعد الدوام الرسمي للمدرسة.

فتح فرص العمل للشباب، منح الجوائز للمتفوقين في الدراسة. تعاون جماهير المنطقة لتنظيم فعاليات الشباب يساعد على تقليل نشاط الجماعات الإرهابية. العمل مع المدرسة والسلطات المحلية يساعد على التخلص من الأشخاص غير المعروفين الذي هو عامل مساعد لمنع نمو

العصابات المسلحة. عندما تشاهد رسومات أو شعارات تخص الجماعات الإرهابية في المنطقة التي تسكنها بلغ السلطات عنها فوراً. عندما تكتب الشرطة التقرير، أزل تلك الشعارات من الجدران بسرعة، اترك الأمر للسلطات لتطبيق القانون والتعامل مع المنظمات الإرهابية. دائماً بلّغ عن الجريمة حين وقوعها. كن عضواً فعالاً في جماعة تراقب الحي الذي تسكن فيه. تعاون مع السلطات المحلية وكن شجاعاً في الإخبار عن وتقديم الأدلة عن فعاليات الجماعات الإرهابية.

أهالي كلّ المنطقة لو تعاونوا وقرروا إيقاف مثل هذه النشاطات في مدينتهم سوف يعيق قدرة العصابات الإرهابية عن الوجود.

* * *

الفصل الثاني عشر

قواعد التدريس

قواعد التدريس الحديثة يجب أن تجمع عناصر مهنية وعناصر إنسانية. كلّ إنسان هو عبارة عن كون صغير فيه هذا الكون الكبير يعكس نفسه. كانعكاس لهذا الكون الكبير وأرضيته الإلهية، الإنسان هو كائن فريد لا يمكن مقارنته وذو معنى أبدي. الثقافة يجب أن تبين للإنسان هذه الحقائق وتعرفة بقدراته الفردية والعامة. هدف عملية التدريس هو خلق شخصية إنسانية ذات قدرات متطورة من بينها القدرات الفنية والإنسانية. عملية التدريس الإنسانية تقف ضدّ الثقافة المقررة سلفاً. إجبار الأطفال على تعلم ثقافة الآباء، تقاليدهم، عاداتهم ودينهم هو مطلب من مطالب العوائل، هو القاعدة الأساسية للتثقيف الإجباري هدفها ليس تطوير قدرات الفرد ولكن إجباره لأن يكون جزءاً من حياة وروح الجماعة، العائلة، القبيلة، البلد، الأمة، الطائفة الدينية. هذا الإجبار يحدث تلقائياً خلال مشاركة الفرد في حياة الجماعة. ثقافة الآباء، تقاليدهم وعاداتهم تصبح دليلهم الثقافي، هي تُفَسَّر وتُصب في أذهان الطفل. واحدة من هذه الأمثلة هو تعليم الأطفال قصص الأنبياء، وسيرة الصحابة والأئمة، والأبطال في التأريخ، قادة الأمة، ماضيها وحضارتها، تقاليدها، كلّ هذه تُفَسَّر وتُصب في أذهانهم. هذا النظام من الإجبار الثقافي له قوة لا تنازع.

عندما تثور المثل العليا للثقافة الإنسانية ضدّ قوة النظام الثقافي الإجباري (التلقين) السائد، تطورات تحدث لتحدد الاتجاه الروحي الجديد. في البداية كان نظام الثقافة الإجباري يمثّل النظام الإقطاعي وقوى التجديد تمثّل الثقافة الإنسانية للمجتمع الرأسمالي الجديد. بعد أن تأسس النظام الرأسمالي وزالت الإقطاعية أصبح النظام الثقافي الإجباري يمثّل النظام الرأسمالي والتدريس الإجباري في المدارس أصبح إجبار الأطفال لتعلم أخلاقية المجتمع الرأسمالي. خلال القرن التاسع عشر بعد الثورة الصناعية اشتدت الحاجة للتعلم المهني لسدّ حاجة المجتمع الرأسمالي، مما أدى إلى إخلاء الثقافة الإنسانية من محتواها وفقدت محتواها الخلاق. قوتها الخلاقة في الماضي استعملت كطريقة للتعليم ولكن من دون تركيز روحي. أصبحت بضاعة امتلاكها يميز الطبقات العليا في المجتمع كامتلاك البضائع المادية. بهذه الطريقة الثقافة المهنية أصبحت الهدف. التأقلم لسدّ حاجات المجتمع الصناعي أصبح الهدف الرئيسي للتعليم. الإرث الثقافي والمؤسسات الدينية لم يرفضها المجتمع الصناعي لكنها أُخضِعت لخدمة أغراضها. التأقلم لسد حاجات المجتمع الصناعي أصبح حاجة الفرد للتأقلم مع جماعات وطنية داخل المجتمع الصناعي. بهذه الطريقة الفراغ الذي تركته الثقافة الإنسانية غُطِّيَ بأفكار وطنية. ثقافة هدفها إنتاج مواطن جيد شملت التثقيف الإجباري والتعريف بالوطن ومؤسساته. التدريب العام والتدريب في مهارات خاصة وإنشاء جسر يربط بين الإرث الثقافي الماضي والحاضر. هي برامج تبنتها معظم المدارس وهيئات التعليم والمؤتمرات التعليمية وأثبتت نجاحها. **كيف يمكن للمؤسسات الدينية أن تقف بجانب أو ضدّ هذا التأثير الساحق؟** هناك كمية كبيرة من التأقلم السيكولوجي

يحتاجها الشباب في المجتمع الصناعي. التأقلم لسد حاجات المجتمع المعاصر حلت محل الروح الثورية للشباب. هم أصبحوا بليلة وضحاها مواطنين جيدين، بإمكانهم أن يسدوا الحاجة لملء أي وظيفة في مجتمعنا التنافسي، والحصول على البضائع المادية، خاصةً إذا كان لديهم ثقافة جامعية بالإضافة إلى ملايين الشباب. العنصر الوطني للثقافة في مجتمعاتنا وفي المجتمع الرأسمالي كان له تأثير كبير جداً في المدارس الابتدائية والمتوسطة ولكن فقد تأثيره في الجامعات. فكرة الوطنية لا يمكن أن تحل محل الثقافة الإجبارية الدينية التي تلقن للشباب في دور العبادة. الإنسان كانعكاس لهذا الكون ولأرضيته الخلاقة، عندما يختفي العنصر الإنساني في الدين، الدين يصبح مجرد شكل مهجور وفارغ تطغى عليه البدع. الثقافة الإنسانية أصبحت فارغة، يعاني الشباب العربي والإسلامي من ازدواجية الفراغ النفسي.

أولاً: هو الفراغ الذي يشعر به الشباب العربي في عدم مقدرته على التأقلم ومواكبة السير مع العالم الصناعي.

والثاني: هو فراغ الروح الإنسانية مما يؤدي به إلى عدم المبالاة، اليأس، السخرية، اختلال عقلي، الجريمة والاشمئزاز من الحياة والاندفاع إلى الجهاد الانتحاري. ليس مستغوباً أن يكون ردّ الفعل لسدّ هذا الفراغ هو ظهور قوى جديدة تحاول تأسيس نظام للحياة وأفكاراً جديدة تعطي معنى وضمانة روحية التي جعلت من التثقيف الإجباري وسيلة للتبشير بحياة بعد الموت.

الشباب يبحثون عن رمز يعبّر عن معنى لحياتهم هم يرغبون الدخول

في عضوية جماعات تعطيهم هذا الرمز والتي تطلب منهم الاستسلام غير المشروط. الشباب يبحثون عن شيء يضحون بحياتهم في سبيله حتى وإن كان هذا الشيء هو دين سياسي منحرف الأهداف. هنا يأتي دور التعليم المضاد لهذه الانحرافات الدينية. التعريف بالثقافة الروحية والإنسانية الصحيحة التي تُعَرِّف الإنسان بجوهره الحقيقي لكي يشع في جميع مجالات الحياة المعاصرة.

* * *

الفصل الثالث عشر

الأخلاق والإرهاب

إذا كان لديك القوة لمعالجة أمراض العالم لكن الثمن هو أن تقتل طفلاً بريئاً وتستعمل أنسجته وأعضاء جسمه. هل تقتل هذا الطفل؟ هل يمكن أن نعتبر الإرهاب عملاً أخلاقياً؟ ماذا يقرر المحتوى الذي فيه العمل الإرهابي يمكن أن يُعتبر أخلاقياً أو غير أخلاقي؟ من يمتلك القوة لإصدار الأحكام الأخلاقية؟ نعم يمكن أن يُعتبر العمل الإرهابي عملاً أخلاقياً. إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما ونكاساكي في اليابان سنة ١٩٤٥ الذي أنهى الحرب العالمية الثانية هو نموذج للإرهاب الدولي الذي اعتبرته أميركا عملاً أخلاقياً وضرورياً. احتجاز إيران لموظفي السفارة الأميركية في طهران سنة ١٩٧٩ كان من وجهة نظر الأمريكان عملاً إرهابياً وغير أخلاقي. الأخلاق والإرهاب هما مصطلحان لا يمكن تعريفهما. ومن تجرأ وقام بتعريفهما فهو لا ينظر في المرآة أبداً. ما يعتبره شخص ما أخلاقياً، شخص آخر يعتبره لا أخلاقياً.

وهذا الاختلاف يبدو واضحاً في تعريف الإرهاب. لأجل أن تعرف الجواب هل الإرهاب عمل أخلاقي أو غير أخلاقي؟ يعتمد على من سأل السؤال.

أولاً يجب أن نُعَرِّف هل القتل بصورة عامة يمكن أن يعتبر عملاً يمكن تبريره؟. لقد حُرِّفَت المبادئ الأخلاقية لبعض الناس والتوت بطريقة أصبحوا خطرين على الناس الآخرين ولا يمكن مناقشتهم أو التكلم معهم لتغيير قرارتهم. في حالات كهذه يستوجب قتل مثل هؤلاء الأشخاص لحماية الآخرين منهم وهذا القتل يمكن تبريره. هتلر كان خَطَراً على الآخرين، هو قتِل الملايين من البشر. لكن بالنسبة لبعض الألمان داخل الحزب النازي، عمل هتلر يمكن تبريره لأنه وفر للشعب الألماني مكاناً واسعاً للعيش وحسن اقتصادهم، فهو عمل ضروري نابع من إرادة طيبة. هل قتل هتلر هو عمل أخلاقي؟ السؤال يمكن الإجابة عليه بطرق مختلفة، يعتمد على من المجيب؟. النتائج الأكثر أهمية في حالة أخلاقية أو عدم أخلاقية الإرهاب هو الضحية. في السادس من شهر آب سنة ١٩٤٥ أول قنبلة ذرية في العالم ألقيت على هيروشيما في اليابان. وبعد ثلاثة أيام قنبلة أخرى مماثلة ألقيت على نكاساكي. قرار الولايات المتحدة الأميركية في إلقاء تلك القنابل الذرية وقتل مئات الآلاف من الناس اعتبر وقائياً ومحاولة لإنقاذ حياة آلاف الأمريكان وإنهاء الحرب بصورة غير متوقعة. النظر إلى هذا الفعل من وجهة نظر الإرهاب، أصبح واضحاً أن هذه الأفعال تتصف بالأفعال التي يصنفها الأمريكان في وقتنا الحاضر بالإرهابية. اليابان استسلمت ونجا الأمريكان من حرب طويلة الأمد. إذا صنفنا أعمال هتلر بأنها غير مقبولة ولا أخلاقية فلا يمكن أن نصنف عمل أميركا بأنه مقبول وأخلاقي.

هل هو أخلاقي أن تقتل أميركا؟، ترمي القنابل من طائرات بدون طيار (Drone) على أفغانستان والعراق واليمن، ولكن أعمال تنظيم القاعدة هي

لا أخلاقية وغير مقبولة! كلّ جماعة تطور نوعاً من الأخلاقية تخدم مصالحها الخاصة وتبرر أفعالها. والأفعال الفردية لا يمكن الحكم عليها بصورة صحيحة على أنها أخلاقية أو لاأخلاقية من قبل شخص ثالث غير منحاز لأن هذا الشخص سوف يكون منحازاً.

خلال التأريخ، الفلاسفة، المؤرخون، والأنبياء كلهم صارعوا فكرة **القتل الحق**. هذا الحق الذي يقف وراء القتل تغير مع تغير التأريخ.

إرهابي البارحة هو بطل اليوم، وبطل البارحة يصبح إرهابياً اليوم. كثير من القتل السياسي والإرهاب خلال التأريخ كانت دوافعه دينية، إنه لشيء مستحيل أن نبني معياراً للأخلاق مستندين على الدين لأن كلّ دين له دستوره الأخلاقي الخاص. بالإضافة إلى هذا، بغض النظر عن العصر الذي جرت فيه الأحداث، هناك دائماً عودة الحق إلى صاحبه. العودة إلى الفعل السابق منذ عشرات أو مئات أو آلاف السنين وتبرير الانتقام في العصر الحاضر والانشقاق بين السنّة والشيعة في الإسلام هو شاهد على مثل هذه المواقف.

جميع أنواع الإرهاب هي غير أخلاقية. ما حدث لمركز التجارة العالمي في نيويورك سنة ٢٠٠١ هو عمل رمزي للتحدي وهو عمل غير أخلاقي. لكنه كان نتيجة للهيمنة الأميركية على العالم التي هي لا أخلاقية أيضاً. لذلك فإن الأمريكان هم لا أخلاقيون أيضاً. فإذا أملنا في فهم أي شيء، نحن نحتاج إلى أن نكون خارج نطاق الخير والشرّ، لأننا لا يمكن أن نحكم على ما هو خير أو ما هو شرّ لأن هذا هو إدراكنا فقط لما هو خير أو شرّ. بالنسبة للإرهابيين فكرة الخير والشر تختلف عن فكرة ضحاياهم.

لذلك فكرة الأخلاق هي تختلف أيضاً. لذا فإن الإرهاب لا يمكن الحكم عليه هل هو عمل أخلاقي أو غير أخلاقي؟ أفعال العنف المدعومة سياسياً لا يمكن أن نصنفها بصورة عامة على أنها أخلاقية أو غير أخلاقية. لكلّ فعل يمتاز بالعنف هناك وجهان للأخلاق. الناس الذين ارتكبوا الجريمة يعتقدون بحق أنهم يقومون بعمل أخلاقي وذلك بإزالتهم من الوجود إنساناً خطراً. من جهة أخرى مناصرو الضحية بصورة طبيعية يؤمنون أن الفعل هو غير أخلاقي بكلّ بساطة لأنهم يثقون بأحكام الضحية. أي جانب ثالث يحاول أن يعلق على أخلاقية أو عدم أخلاقية هذا الفعل هم يتجاوزون حدودهم لأنهم لا يمكن أن يعرفوا بالضبط الحوافز التي دفعت مرتكب الجريمة. الجاني والمجني عليه فقط بيدهم الحكم النهائي لأنهم فقط يملكون الحوافز الحقيقية وراء القتل. الأخلاق هي نسبية بالكامل لأن كلّ شخص يمكن أن يكون له حكمه الخاص على أخلاقية العمل الإرهابي الذي يقوم به. نحن نحكم بسرعة على أعمال أعدائنا بأنها غير أخلاقية. لكن هذا التصنيف هو ليس صحيحاً لأنه لا يأخذ بعين الاعتبار الدستور الأخلاقي لمن نعتبرهم أعداء.

القتل باسم ألـ. . . . «سوف» يبقى في ثقافتنا، أخلاقية الإرهاب سوف تكون موضع نقاش لمدة طويلة من الزمن. هناك شيء واحد باقٍ: نحن لا نملك القوة لتقرير أي الأفعال هي أخلاقية وأيها غير أخلاقية.

* * *

الفصل الرابع عشر

أخلاقية الدين أم أخلاقية الدولة؟

في مجتمعنا الحاضر هناك عاملان أساسيان يقرران كيف يتصرف الفرد في المجتمع؟

الأول: هو حكومة الدولة.

والثاني: هو الدين.

موظفو الحكومة هم في موقع يجعلهم يمتلكون السلطة لتقرير كلّ شيء في حياتنا، بيدهم القوانين التي تقرر سلوكنا. واحدة من أهم السلطات المعطاة لموظفي الدولة هو **دستور الدولة**. والدين هم المساهم الأكبر في صياغة سلوكنا وتفكيرنا، هو يعكس اعتقاداتنا بما نعتبره صحيحاً أو خطأً.

الدولة

حكومة الدولة ليس لها علاقة في فرض الأخلاق على المجتمع. الحكومة يجب أن تكون محايدة وعادلة من الناحية الأخلاقية في مجتمع تعددي فيه أديان وقوميات مختلفة. لكن المشكلة أن القواعد الأخلاقية في ذاتها هي منحازة وليست محايدة ولا هي عادلة. لذلك فإن الحكومة لا يمكن أن تكون محايدة عندما تفرض تلك القواعد الأخلاقية، إلاّ إذا كانت

قواعد أخلاقية مطلقة. نمو الحكومة أدى إلى تسييس الحياة وضعف النسيج الأخلاقي للمجتمع. تدخل الحكومة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للشعب زاد المكاسب السياسية للحكومة وقلّل من الحرية الشخصية للأفراد. الناس أصبحت معتمدة أكثر على الحكومة، ضحت في حريتها من أجل الأمن الزائف. واجبات الحكومة هو حماية حقوق الإنسان المنصوص عليها في الدستور ومن أهم هذه الحقوق هو: «إن جميع مواطني الدولة متساوون في الحقوق والواجبات».

الله وهب الإنسان حقوقاً غير قابلة للتحويل، من بين هذه الحقوق هو الحق في **الحياة**، الحق في **الحرية**، الحق في **السعادة**. الإنسان أُعطي حقوقاً من الله ليس بإمكان أي إنسان آخر أن يأخذها منه. وهذا شيء مهم لموضوع الأخلاق لأنها تثبت خطأ جميع من اتفق عليها من الحكومات. الحكومة هي جماعة منفردة من القوة هي أعظم آلة حرب تمكّن الإنسان من تركيبها: أجهزة الأمن والشرطة والجيش هي تحت تصرف الحكومة. امتلاك جميع هذه الأجهزة القمعية يجعل من الحكومة قادرة على مصادرة الحقوق الشخصية للإنسان في أي وقت تشاء. عندما يفكر الإنسان بأسوأ المظالم في التأريخ: حروب، عبودية، إبادة جماعية، احتلال، سجون، تهجير، جوع، فقر وإذلال، يجد أنها بصورة مباشرة أو غير مباشرة نتجت من أفعال الحكومات. استعمال القوة ضدّ الناس الأبرياء هو شيء خطأ، أي حكومة تعتمد على استعمال القوة أو التهديد باستعمالها لأجل أن تنجز وظائفها الأساسية وتحصل على دخلها من الضرائب المفروضة على الناس هي دولة لا أخلاقية بحكم تعريف الدولة الذي ينص على أن الدولة هي مؤسسة من بين الناس وتستمد سلطاتها العادلة من قبول الناس لها.

في الحقيقة إذا وافق الناس بأن تحكمهم الدولة إذاً الدولة يجب أن تكون ذات أخلاقية عادلة حتى وإن استعملت القوة. إنه يبدو شيئاً متناقضاً أن توافق الناس على أن تدفعهم الدولة لعمل أي شيء لكن في الحقيقة إن عدداً كبيراً من الناس يوافقون على أن تحكمهم الدولة لأنه ليس هناك بديل لذلك.

الدولة تلبي الحاجات الضرورية والأساسية للمجتمع، هي توفر ماء الشرب والكهرباء وتبليط الشوارع والوقود والمواد الاستهلاكية، تمنع الاحتيال في الأعمال التجارية، تقاوم تلوث الهواء وتزيل النفايات، تقمع الشغب، تحمي الأملاك العامة والخاصة، تقبض على المجرمين وتحمي المواطنين من غزو خارجي. جميع قوانين الحكومة تستند على مفهوم الصح والخطأ لذلك فإن أي قانون هو يستند على وجهة نظر أخلاقية معينة، مع هذا فإن الحكومات دائماً تنتهك حرمة مواطنيها. ما هو إذاً الفرق بين أفعال حكومية صحيحة وأفعال حكومية غير صحيحة؟ من يقرر أن ما تقوم به الحكومة هو عمل صحيح أو غير صحيح هو نفسه الذي يقرر ما يقوم به الفرد هو عمل صحيح أو غير صحيح؟. الحكومة مثلها مثل أي مجموعة بشرية هي عبارة عن تجمع أشخاص. حقوق الحكومة هي مشابهة لحقوق أي مجموعة بشرية، الحكومة ليس لها امتيازات خاصة.

أخلاقياً هي لا تختلف عن أخلاقية الأفراد المكونين لها. كلّ ما هو لا أخلاقي لفرد يعمل لوحده هو لا أخلاقي لأفراد يعملون ضمن إطار حكومي. ليس هناك شيء أخلاقي تعمله الحكومة لا يستطيع أي فرد عمله. أخلاقية الجماعة لا تختلف عن أخلاقية الفرد. الجميع يتفق على

أن القاعدة الأساسية لأخلاقية الدولة هي المبادئ الأخلاقية للمجتمع الذي تحكمه الدولة. لكن ماذا يحدث لو انحرفت أخلاقية الدولة عن أخلاقية المجتمع الذي تمثله؟ لا يفترض بالمواطنين أن يلتزموا بالقواعد الأخلاقية التي يفرضها القانون إذا القانون انتهك حقوقهم الشخصية، والمواطنون ملزمون أخلاقياً بمقاومة الحكومة الظالمة وعدم إطاعة قوانينها الجائرة، وهذه المقاومة تتمثل في ثلاثة مواقف ديمقراطية:

أولاً: إذا الشعب تقبلوا وجود حكومة بصورة عامة ولكن ليس هذه الحكومة، فالسخط العام في دولة ديمقراطية يمكن أن يؤدي إلى التصويت ضدها في برلمان وإلغاء الحكومة.

ثانياً: السخط العام يكون الأكثرية في منطقة معينة ولكن ليس في جميع البلاد لذلك ليس بإمكانهم أن يصوتوا في البرلمان لإلغاء الحكومة. إذا كان السخط شديداً وثابتاً يمكن أن يرغبوا في الانسحاب من البرلمان.

ثالثاً: إذا كان السخط يمثل الأقلية في كلّ جزء من أجزاء الدولة. ليس بإمكانهم أن يصوتوا لإلغاء الحكومة، إن بإمكانهم أن يأملوا في الانسحاب من البرلمان. إذا هم وافقوا على المبادئ العامة للديمقراطية فإن بإمكان الحكومة أن تفرض أحكامها الأخلاقية عليهم لكن ماذا يحدث للأقلية إذا لم يتفقوا مع أخلاقية الحكومة؟ ما هو مصير الناس التي لا ترضى على الحكومة بصورة عامة أو لا تتفق مع الأكثرية الغالبة في البرلمان؟ هؤلاء الناس هم قلة ومعظم الناس المؤمنين بديمقراطية الحكم هم يميلون إلى تجاهلهم واعتبارهم حمقاء، لكن مبدئياً هذه معضلة أخلاقية حتى وإن كان عددهم قليلاً هم أناس يرفضون بحق هذه الحكومة. إذا امتنعت هذه الأقلية

عن استعمال القوة ضدّ الحكومة فليس من حق أي حكومة أن تسمح لها أخلاقها أن تهددهم باستعمال القوة محاولةً إخضاعهم لحكمها. الحكومات تستعمل القوة دائماً لإخضاع مواطنيها، الإنسان هو ليس ملك الدولة، الدولة وجدت لخدمة الإنسان، هي من المفترض أن تستمد سلطاتها العادلة من الشعب الذي تحكمه. الإنسان له حقوق غير قابلة للتحويل. الحقوق الأساسية والأكثر أهمية هو حقه في **الحياة والحرية والعدالة**. الدولة يجب أن توفر العدالة الاجتماعية التي تضمن حماية الأفراد والممتلكات بالتساوي. وظيفة الدولة الأساسية هو تأمين الحرية والسعادة والعدالة والحياة ومنع أي إنسان من إيذاء إنسان آخر وهم أحرار في الاهتمام بحياتهم الخاصة في اختيارهم نوع الدراسة والعمل والحياة والدين. أحسن حكومة تصلح للمجتمع هي التي لا تتدخل في شؤون المجتمع إلاّ القليل. الحكومة يجب أن تشغل نفسها في تحقيق العدالة وحماية مبدأ المساواة في الحقوق لجميع المواطنين والمحافظة على النظام وذلك بتشريع قوانين عادلة تخدم الجميع. إن دور الحكومة هو ليس غرس قيم أخلاقية في المجتمع ولكن حماية تلك الحقوق المعبّرة عن مجتمع مكون من أفراد أحرار ومسؤولين.

ماذا يتوجب على المواطن عمله؟

أولاً: يجب كشف المنهج السياسي والأخلاقي للحكومة. نحن بحاجة إلى تغيير الطريقة التي نفهم بها الحكومة ونقيمها وفق مبدأ الحرية والمسؤولية تجاه المجتمع.

ثانياً: يجب فرض حدٍّ معين لسنين الخدمة لرئيس الدولة وأعضاء

البرلمان وتخليص الحكومة من قبضة السياسيين وأصحاب رؤوس الأموال وإعادتها إلى ممثلي الشعب الحقيقيين.

ثالثاً: يجب محاسبة أعضاء البرلمان وموظفي الدولة إذا تجاوزوا سلطاتهم القانونية. وقبل تشريع أي قانون جديد على أعضاء البرلمان أن يدرسوا التشريع الجديد ومطابقته مع الحقوق العادلة والحرية والمساواة للجميع المنصوص عليها في الدستور.

دور الحكومة هو ليس في تشريع أخلاقية المجتمع، دور الحكومة هو إعطاء المواطنين الحرية لتنمية مسؤولياتهم كمواطنين أحرار وممارسة حقوقهم غير القابلة للتحويل.

لدينا قوانين ضدّ القتل والاغتصاب الجنسي لأن المجتمع يتفق على أن القتل والاغتصاب هما أعمال غير أخلاقية، لدينا قوانين تحمي حرية الصحافة وحرية الكلام لأننا نعتقد أن حرية الكلام هو شيء جيد وأخلاقي، لدينا قوانين تضمن التعليم المجاني للأطفال في المدارس العامة، وقوانين تضمن رواتب المتقاعدين والضمان الصحي لكبار السن لأننا نؤمن بأن هذه الأشياء هي ضرورية وأخلاقية، ولدينا قوانين حتى وإن لم يكن لها مضمون أخلاقي واضح مثل تحديد السرعة على الطرق العامة لكن فائدتها هو حماية الناس من حوادث الطرق هي تستند أيضاً على منظور أخلاقي. الفكرة هي أن الحكومة لديها واجب أخلاقي لحماية المواطنين من مخاطر معينة. ماذا يحدث لو لم نتفق مع مفهوم الحكومة للأخلاق؟ ماذا يحدث لو تجاوزت السرعة المحددة لأنك تعتقد لست بحاجة إلى الحماية من المخاطر؟ أو إذا قتلت شخصاً نام مع زوجتك وتعتقد أن لك الحق في

الانتقام لشرفك؟ الحكومة سوف تعاقبك بطريقة ما. هكذا تسير الأمور في المجتمعات المتمدنة، هناك قواعد أخلاقية معينة إذا تجاوزتها سوف تُعاقب. الحكومة تفرض هذه القواعد الأخلاقية بالقوة، الحكومة تفرض القوانين في كلّ مرة شخص ما يتم توقيفه أو حبسه لأنه خالف القوانين. نحن يمكن أن نختلف حول أي القوانين الأخلاقية يجب على الحكومة فرضها بالقوة، ويمكن أن نختلف مع الحكومة لأنها لا تطبق القانون على الجميع بالتساوي. في وقتنا الحاضر أكثر من أي وقت مضى، القاتل ومغتصب النساء حكم عليهم، سجنوا ثم أطلق سراحهم من السجن. الحكومات الفاسدة أدت إلى الانحراف في أخلاقية المجتمع. أكثر علامات الانحراف في أخلاقية المجتمع هو انتشار ظاهرة القتل والنهب والرشوة والتفجير الانتحاري والشذوذ الجنسي وولادة الأطفال غير الشرعيين، الطلاق وازدياد عدد الدعاوى في المحاكم لحلّ الخلافات، الدعارة وفقدان الأسس الأخلاقية للتعليم في المدارس.

وهناك ظواهر أخرى مثل هبوط مستوى اللطف والشفقة والنزاهة في التعامل في الحياة الاجتماعية والخاصة. لا يمكن أن نلوم الحكومة على جميع الأمراض الاجتماعية لكن ليس هناك شك أن الحالة الاقتصادية والاجتماعية للأسرة التي فقدت معيلها ومورد رزقها من جراء الحروب أو الممارسات السياسية الخاطئة للحكومة في قتل أو عزل الخصوم السياسيين لها تأثير سلبي على الأخلاق. الضمير الذي زرعه الله في الإنسان لكي يوجه سلوكه يفقد وظيفته عندما تصبح الحياة شاقة فيصعب التمييز بين ما هو صح وما هو خطأ. الحكومات تصرف ملايين الدولارات ليس على التعليم أو الصحة أو الحياة الاجتماعية أو بناء الطرق والمصانع لتمتص

العطالة، هي تصرفها لشراء الأسلحة لأجل القتل والتدمير. الشوارع والأزقة مليئة بالنفايات والأوساخ، انقطاع الكهرباء وانعدام الأمن هي عوامل مساعدة على ازدياد الجريمة.

الإنسان يهمه أن يتعلم كيف يبقى على قيد الحياة أكثر من أن يتعلم الأخلاق والفضيلة. الإنسان في هذه الأيام يُباع ويُشترى. المنظمات الدينية المتطرفة تجنّد المئات كلّ يوم، كلّ جماعة لها أخلاقيتها الخاصة وكلّ جماعة تدعي أن أخلاقيتها هي الصحيحة، لكن هناك نوعاً واحداً من القوانين ملزمة أخلاقياً لجميع البشر هي **القوانين الأخلاقية المطلقة**. هذه القوانين تستند على معرفة الحقيقة المطلقة وعلى المبادئ المستمدة من هذه الحقيقة.

بصورة عامة القوانين الاجتماعية المطلقة هي التي تمنع استعمال القوة وتحمي حقوق الإنسان. قوانين ضدّ السرقة، الاغتصاب، الاختلاس، حرق المباني عمداً، الاعتداء، الخداع، والقتل، هي أمثلة على القوانين الاجتماعية المطلقة والملزمة. الفرد ملزم بطاعة **القوانين الاجتماعية المطلقة** كما هو ملزم بطاعة **قوانين الطبيعة المطلقة**. كلاهما حقائق ملزمة يجب طاعتها ومن يخالفها يصيبه الدمار. إذا حاول شخص أن يخالف قانون الجاذبية المطلق ورمى بنفسه من فوق عمارة وحاول الطيران بخفق ذراعيه فسوف يهبط إلى الأرض ويتحطم. إذا قتلت أحداً فهناك من ينتقم للقتيل ويأتي لقتلك. في المجتمع الحرّ كلّ فرد هو دولة مستقلة بذاتها، هو حرٌّ في التعامل أو عدم التعامل مع الجماعات البشرية المختلفة. في المجتمع الحرّ **التعاون** بين الناس والحدود الجغرافية للجماعات البشرية هي نتاج التعامل الحرّ.

إذا الدستور الأخلاقي لأي جماعة احتوى على القوانين الأخلاقية المطلقة التي تمنع استعمال القوة إذاً هي صحيحة وملزمة على جميع الناس.

إذا دستور أي جماعة أُريد به صياغة نموذج سياسي للمجتمع المؤلف من ديانات وقوميات مختلفة فإن هذا الدستور هو غير ملزم على الناس أن تعيش بموجبه إذا لم يكن متطابقاً مع القوانين الأخلاقية المطلقة وتوافق عليه الجماعات الأخرى. لا يمكن لأي جماعة أن تعلن نفسها ممثلة للشعب إذا لم يتفق على دستورها.

في المجتمع الحرّ ليس هناك ما يمنع تكوين مثل هذه الجماعات وليس هناك شيء يخافه الشعب إذا كانت الجماعات ملتزمة بالقوانين الأخلاقية المطلقة. إنه من الممكن أن تنتهك هذه الجماعات المتنازعة الحقوق الشخصية للفرد أو أن تتحارب مع بعضها لكن هذا لا يعني أنها غير أخلاقية. الأخلاق تقرر الأفعال وليس العكس، والناس تحكم هذه الجماعات من أفعالها، فإذا عملت وفق القوانين الاجتماعية المطلقة هي تكون كالشرطي تحرس حقوق الإنسان وسوف تكون محبوبة من الشعب ويتهافت الناس للتطوع في صفوفها وسوف تكتسب حقها الشرعي في الوجود والدولة ليس لديها حق أخلاقي لمنعها من الوجود. في المجتمع الحرّ الديانات المختلفة والقوميات المختلفة والأحزاب المختلفة لهم الحق لتكوين هذه الجماعات التي تحمي حقوقهم. شكل الجماعة وعددها وعلاقاتها بالجماعات الأخرى هو مختلف. يمكن أن تكون هناك جماعة واحدة أو أكثر في منطقة معينة ويمكن أن تعمل الجماعات من أجل هدف

واحد أو أن تعمل كلّ جماعة لوحدها. إذا تدخلت الحكومة وقالت: «ليس بإمكانكم تكوين هذه الجماعات وإلاّ فالغرامة أو السجن أو الموت يكون مصيركم» إذاً هذه الحكومة تكون قد انتهكت حقوق الإنسان واختارت لنفسها صفة الحكم الدكتاتوري القسري. الأشخاص ذوو الأفكار المتحررة قادة الجماعات المختلفة يقولون: «ليس من واجب الحكومة فرض قوانينها الأخلاقية علينا» هم يريدون من الحكومة والمجتمع إطاعة وجهة نظرهم الأخلاقية وكلّ جماعة تريد فرض وجهة نظرها الأخلاقية على المجتمع. الاختلافات في وجهات النظر يمكن حلها في برلمان مكون من مفكري هذه الجماعات، يتناقشون ويختارون القواعد الأخلاقية الصحيحة التي يجب فرضها على المجتمع وتطبيقها في دولة ديمقراطية وبرلمان يمثّل جميع القوميات والأديان والأحزاب. لكن إذا كان الحكم دكتاتورياً فردياً وليس هناك برلمان ولا أحد يستمع إلى المطالب المشروعة لهذه الجماعات فإنهم سوف يختارون الكفاح المسلح من أجل إسقاط الحكم. وبعد إسقاط الحكم الدكتاتوري، هذه الجماعات يجب أن تضع دستوراً يتفق عليه الجميع يضم في بنوده القوانين الأخلاقية المطلقة، حق الحياة والعدالة والمساواة والسعادة للجميع. وإذا لم تفعل هذا فإن الصراع بين الجماعات سوف يستمر إلى ما لا نهاية.

الدين

الإسلام هو طريق الحياة، هو يهدينا في جميع مجالات الحياة، من نظافة الجسم إلى قواعد التجارة، إلى التركيب الاجتماعي والسياسي للأمة الإسلامية. الإسلام لا يمكن أن ينفصل عن الحياة الاجتماعية،

والسياسية، والاقتصادية للأمة لأنه الأساس الأخلاقي لكلّ أعمالنا. أول الأعمال المعبرة عن إيماننا هو جهادنا من أجل فرض إرادة الله في حياتنا الشخصية والاجتماعية. المسلمون يرون أنفسهم والعالم من حولهم يجب أن يخضع لإرادة الله. زيادة على ذلك هم يعرفون أن مبدأ حكم الله يجب تأسيسه على الأرض لأجل خلق مجتمع عادل. الإسلام هو تماماً كاليهودية والمسيحية مرتبط بميثاق مع الله أن يجعل منهم أمة من المؤمنين تكون مثالاً للأمم الأخرى في الأخلاق الاجتماعية. الله قال لأمة الإسلام: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (سورة آل عمران ٣ : ١١٠).

خلال التأريخ أن تكون مسلماً هو لا يعني فقط أن تتبع جماعة دينية متكونة من رفاق مؤمنين ولكن أيضاً أن تعيش تحت قانون الإسلام.

قانون الإسلام هو امتداد للسيادة الإلهية المطلقة وعلى المسلمين فرضه على الناس بالقوة إذا اقتضى الأمر ذلك. سيادة الله هي مطلقة في الإسلام، هو بيده حياة الدنيا وحياة الآخرة. هو يدير الكون ويشرع القوانين في جميع مجالات حياة الإنسان. هو مشرع القوانين والحاكم الذي يميز بين الصح والخطأ. العالم المادي يخضع بصورة حتمية لله الذي سنّ قانون الطبيعة. البشر يجب أن يخضعوا للتعاليم الأخلاقية والدينية للإله الذي بيّنَ الحق من الباطل لهم. الله وحده بيده سلطة تشريع القوانين يحدّد أصول العبادة يقرر الأخلاق ويعين أسس سلوك الإنسان وعلاقاته الاجتماعية. ذلك لأنه ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (سورة آل عمران ٥٤ : ٧).

في الإسلام الله له سيادة كاملة على جميع مجالات حياة الإنسان

وليس هناك تمييز بين سلطة دينية وسلطة دولة. المسلم يذهب إلى صلاة الجمعة يستمع إلى المرشد الذي يعلمه كيف يتعامل مع الناس الآخرين؟ هو لا يقف مكتوف اليدين عندما يرى المنكر. الإسلام يعلمنا كيف نعيش؟ لذلك هو «دين ودولة». بالنسبة للمسلم الدين يعيشه في كلّ شيء يعمله، هو في السياسة، في الحكم، في المدرسة، في البيت، في العمل، في الشارع. الإسلام بُنيت عليه أسس العلم وقوانين الحكم. القوانين الأخلاقية هي علم الدين الأول في الإسلام. السؤال الذي يطرح نفسه هو إذا اندمج إيمان الشخص في كلّ شيء يعمله، هل دولة الإسلام تتطلب من كلّ إنسان أن يكون مسلماً؟

منذ البداية نبي الإسلام محمدﷺ سمح ببقاء الجماعات اليهودية كأمة منفردة ومستقلة داخل إطار الكيان السياسي للإسلام. يجب علينا أن نتذكر أن النبي محمداًﷺ أنشأ ديناً ولم ينشئ دولة. عندما انتشر الإسلام وأصبح دين الأكثرية تأسست دولة الإسلام وكان قائدها النبي محمدﷺ. استناداً على التأريخ، النبي محمدﷺ لم يقد أبداً أي شكل من أشكال الحكومة. كانت رغبة النبي محمدﷺ أن يرى العالم بأجمعه يتبنّى دين الإسلام لكنه لم يرغب أن يسيطر على العالم. هو علمنا أن الدين هو اختيار شخصي كلّ فرد يختاره بصورة مستقلة. وفق هذا المبدأ الأخلاقي الإسلام علمنا التسامح وتَقَبُّل الأديان الأخرى والتعايش معها. التسامح مع الآخرين هو مبدأ أساسي مهم في الإسلام. النبي محمد علمنا التسامح. فقط في السنين الحديثة مات التسامح في الإسلام. المعنى الضمني العظيم للإسلام يقع في شهادة «لا إله إلاّ الله» وفي «هو الله أحد» ما هو مفهوم ضمنياً في هاتين العبارتين هو أن الله وهب الإنسان ديناً طبيعياً غرسه في كيانه ـ الله هو

الإنسان والإنسان هو الله ـ الله هو الكون والكون هو الله. الله قال للكون كن ثم ذاب في نسيجه، ليس هناك شيء في هذا الوجود هو ليس الله، سبحان الله الواحد الذي لا يوجد قبله ما لم يكن هذا القبله «هو» ولا بعده ما لم يكن هذا البعده «هو». هو لا بعده ولا قبله، لا تحته ولا فوقه لا في مكان ولا زمان لا يوجد وقت ولا لحظات. هو الواحد من دون توحد والمفرد من دون تفرد. ليس له اسم ولا مسمى لأن اسمه «هو» والمسميه «هو» لذا فليس هناك اسم فقط «هو».

في الإسلام ليس هناك اختلافات عرقية، قومية، دينية، لغوية، الله خلق الجميع والجميع هم الله، جميع الناس متساوون في الحقوق وليس هناك شعب مختار في الإسلام. على الرغم من تطبيق التسامح في الإسلام لكن هناك تصنيفاً طبقياً في المجتمع:

(١) المسلمون العرب من ذوي المراكز الخاصة مثل الصحابة والأئمة من نسل الرسول.

(٢) المسلمون غير العرب من أهل الكتاب (المسيح واليهود) الذين استسلموا.

(٣) العبيد من غير (المسلمين، المسيح، اليهود) وهناك قواعد أخلاقية خاصة عن كيفية التعامل معهم.

دولة الإسلام تعتبر متضمنة لجميع الخلق، هي ليست خاصة بالمسلمين لكنها اتحاد فدرالي للأمم من أديان مختلفة وثقافات وعادات مختلفة تعهدت بالعيش في تناسق وسلام أحدهم مع الآخر.

هذا هو التسامح في الإسلام. كلّ مسلم يتمنى أن يهتدي جميع البشر إلى دين الإسلام، لكن هل بالإمكان أن نتعايش بسلام مع بعضنا البعض لحين مجيء هذا الزمن الذي يهتدي فيه جميع البشر؟. إن دولة الإسلام في وقتنا الحاضر هي نظام عالمي يبدأ كمذهب ديني متطرف مدعوم من قبل دولة الإسلام السياسية مثل: (أفغانستان، إيران، السعودية، قطر، دولة الإمارات العربية، تركيا) هؤلاء الجماعات أزالوا من الوجود المثل الأعلى للتسامح الذي يتحلى به دين الإسلام. هم يحاولون احتواء العالم بواسطة تحويل العالم إلى دين الإسلام بالقوة. النبي محمدﷺ لم يؤسس دولة لكن من خلال فهمنا لوجهة نظره للتسامح في الدين منظوره للدولة مبني على التعدد الاجتماعي. ليس هناك وصفة جاهزة لشكل دولة الإسلام لا في القرآن ولا في السنّة. هناك فقط مؤشرات ومبادئ يمكن اتباعها ينتظم بموجبها المجتمع، بينما علمنا النبي محمدﷺ التسامح مع الآخرين، بعد مضي فترة من الزمن فَقَدَ التسامح أهميته في الإسلام، لقرون عديدة كان الإسلام قوة عظمى كالولايات المتحدة الأميركية الآن، لكن في القرن السادس عشر موقعهم كقوة عظمى اضمحل، وفي ذلك الوقت أيضاً الكنيسة الكاثوليكية فقدت قوتها حين انشق مارتن لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية وأسس الكنيسة البروتستانتية. انخفاض قوة الإسلام والكاثوليك هي ليست أحداثاً دينية عابرة لكنها كانت متطابقة مع تغيرات في المفاهيم الفلسفية حيث ظهرت أفكار جديدة تركز على الفرد بدل المجتمع أدت إلى تفكك الروابط الاجتماعية، هي بدأت من أوروبا وانتشرت إلى العالم الإسلامي. دخول الثقافة الغربية إلى منطقة الشرق الأوسط أدى إلى ظهور مجموعات عديدة تبحث عن طرق لإعادة الحياة

الاجتماعية إلى ما كانت عليه في عصر الدين الإسلامي، هم يلومون الثقافة الغربية على زوال الإسلام، فهم يحاولون إعادة الدين الإسلامي إلى أيام النبي محمد عندما بدأ دعوته للإسلام ونشر الأسس الصحيحة للدين. جنود الإسلام ذهبوا بعيداً ينشرون الدين ونفوذه على المجتمعات. النبي محمدﷺ كان رئيس الدولة ورسول الله. وهكذا كان جنود ورُسل الدولة الجديدة، هم جنود ورُسل الإسلام، كانوا المبشرين الأوائل للدين الجديد. كانوا ينشرون الدين الإسلامي وليس فقط نفوذهم السياسي. حتى في وقت الفتوحات الإسلامية التسامح كان له مكانته. من التعاليم الأساسية للتسامح في الإسلام هو أن جنود الجيش المندحر يُعرَض عليهم ثلاثة خيارات:

الخيار الأول: أن يدخل دين الإسلام مع أنهم غير مجبرين على دخول الإسلام.

الخيار الثاني: أن يستمروا في ممارسة دينهم ويعيشون تحت حكم قوانين الإسلام ويدفعون الجزية (ضريبة) لدولة الإسلام.

الخيار الثالث: هو أن تقطع رقبته.

الخيار الثالث لا يدل على التسامح لكن الإسلام لم يكن الدين الوحيد الذي يَقتل الناس باسم الرب. بينما الدين والدولة هما واحد في الإسلام، معظم المسلمين يعتقدون أن النبي محمداًﷺ مات قبل أن يؤسس دولة أو أن يسمي من يخلفه. بعد مجيء الخليفة عمر بن الخطاب تأسس نظام الانتخابات لاختيار الخليفة الجديد. بينما المسلمون الشيعة يؤمنون أن خليفة المسلمين يجب أن يكون من نسل الرسول. عندما أفسد المال

والقوة خلفاء الإسلام وانحدروا بعيداً عن المبادئ الأساسية للدين الإسلامي نادى المسلمون الشيعة بإعطاء الولاية إلى الأئمة المعصومين من نسل الرسول، هم ملهمون من الرب ويمتلكون الدليل الروحي لإنقاذ البشرية من الهلاك حتى وإن اقتضى الأمر استعمال القوة لنشر رسالة الدين الإسلامي لكنهم قُتِلوا الواحد بعد الآخر إما بالسيف أو بالسم. حُكم الخلفاء أدى إلى سقوط دولة الإسلام وخضوعها إلى حكام مثل الرومان والمغول والفرس المجوس، والاستعمار البريطاني والفرنسي، وجد المسلمون أنفسهم يعيشون في أرض يحكمها غير المسلمين. مما أدى **بالبعض** للمطالبة بانفصال الدين عن الدولة باعتباره مسألة شخصية بين الإنسان وربه. لكن وجد الكثيرون في هذا تناقضاً مع مبادئ الإسلامي ووجدوا أنفسهم يعيشون في دار الحرب.

انفصال الدين عن الدولة أدى إلى انهيار دولة الإسلام واضمحلال عظمتها وقوتها العالمية.

اعتقد البعض أن من الأفضل اتباع طريقة النبي محمد ﷺ حين بدأ دعوته للإسلام فنادوا **بالجهاد المسلح** لاسترداد الأرض أو إن لم يقدروا **فالهجرة** كما هاجر النبي محمد ﷺ من مكة إلى المدينة تجنباً للاضطهاد وبحثاً عن مكان آمن يعيشون فيه. وفكر البعض اللجوء إلى **الفكر الصوفي** في الاجتهاد التي تحت ظلها ازدهر الإسلام وانتشر في عصر النبي محمد ﷺ وكذلك في عصر العباسيين. الطريقة الوحيدة التي يمكن بموجبها العيش بصورة صحيحة وفق قوانين الإسلام هو تحت حكم دولة إسلامية وبروح التسامح.

شكل دولة الإسلام في عصرنا الحاضر

بدأ الإسلام بالنهوض مرة أخرى في وقتنا الحاضر لأسباب عديدة أهمها النظم السياسية التي تكونت بعد رحيل الاستعمار وحصولهم على الاستقلال كانت فاشلة وفاسدة ولم تتمكن من إدارة البلاد تحت راية الإسلام. قائد سياسي مثل معمر القذافي في ليبيا، وضياء الحق في الباكستان حملوا شعار الإسلام لتقوية مركزهم السياسي لكنهم كانوا قادة فاسدين يفضّلون مصالحهم الشخصية على مصالح الشعب.

المبادئ الأخلاقية التي تتحكم في وتقود أفكار وأفعال القائد السياسي الصحيح هي: تربيته الدينية، المستوى الثقافي، درجة تأدبه، الرغبة في القيادة، انتسابه السياسي، مبادئه الأخلاقية، مزاجه الشخصي، الإحساس بمشاعر الآخرين، التسامح، وتقبل الأديان والأحزاب والمذاهب المختلفة وحكم البلاد من خلال برلمان يمثل جميع فئات الشعب. لا تنطبق هذه الصفات على أي من القادة في دول إسلامية مثل أفغانستان، مصر، إيران، العراق، المملكة العربية السعودية، تونس، ليبيا، سوريا، الأردن ولبنان. مما أدى بالمعارضة في بعض الدول إلى تبني الإسلام كوسيلة للجهاد ضدّ الظلم والدكتاتورية. كثير من هذه الحركات الجهادية تصنف على أنها متطرفة. واحدة من أكثر هذه التنظيمات المعارضة نجاحاً كانت في إيران حيث تمكنت القوة المعارضة من الإطاحة بنظام حكم شاه إيران واستلام السلطة سنة ١٩٧٩م. أصبحت إيران القوة الإسلامية الرئيسية في الشرق الأوسط لكنها لم تلتزم بمبدأ التسامح هي تسند وتمول وتدعم المعارضة الشيعية وفي أحيان أخرى تحارب المعارضة السنية في إيران وفي بلدان

إسلامية أخرى. الإسلام هو الدين الرسمي في إيران منذ القرن السادس عشر. على خلاف كثير من الدول الأخرى أن المذهب الشيعي هو السائد في إيران.

في مصر قام تنظيم الإخوان المسلمين باغتيال الرئيس أنور السادات سنة ١٩٨١م مما أضفى عليهم صفة التطرف بسبب أعمال العنف التي تبنتها كثير من المنظمات الدينية المتطرفة. كثير من الناس غير المسلمين ينظرون للإسلام على أنه دين إرهاب، قتلة ومجرمين لكن في الحقيقة إن التنظيمات المتطرفة تشكل جزءاً قليلاً جداً من أمة الإسلام. خلال الخمس والعشرين سنة الماضية دول إسلامية مثل **تركيا**، **ماليزيا**، **اندونيسيا** تبنت الديمقراطية كأساس لنظامها السياسي. رئيس الدولة المسلم ينتخب لكي يقود البلاد. تركيا لم تعد تعتبر الإسلام دين الدولة لكن ٩٩٪ من الشعب التركي هم مسلمون.

في الجزائر مرّت الحكومة بعدة تركيبات سياسية منذ أن أصبحت دولة اشتراكية سنة ١٩٧٦م. حالياً هي دولة ديمقراطية والمسلمون يسيطرون على معظم المناصب الحكومية. الإسلام هو دين الدولةِ ومعظم الشعب الجزائري هم من المسلمين.

مصر يشكل الإخوان المسلمون الأكثرية العظمى من المعارضة و ٩٤٪ من الشعب المصري هم من المسلمين السنّة. تمكن الإخوان المسلمون من سرقة انتفاضة الربيع العربي واستلام السلطة في سنة ٢٠١٢م حكموا البلاد لمدة سنة واحدة لكنهم فشلوا في إدارةِ البلاد وفق مبادئ الشريعة الإسلامية لأنهم لم يطبقوا مبدأ التسامح وتقبّل الأديان والأحزاب

والمذاهب المختلفة وحُكم البلاد من خلال برلمان يمثل جميع فئات الشعب مما أدى إلى ظهور معارضة قوية انتفضت وتظاهرت وأثارت الشغب مما أدى بالجيش إلى إزاحتهم من السلطة والآن انتخب قائد الجيش كرئيس للبلاد وعادت مصر إلى حكم الدكتاتورية العسكرية.

الباكستان أدمج الرئيس الباكستاني ضياء الحق دين الإسلام مع الدولة منذ سنة (١٩٧٩ ـ ١٩٨٨) لكن هذا الاندماج زاد الخلافات بين المسلمين السنّة والشيعة. في السنوات الأخيرة لجأت الباكستان إلى تأسيس حكومة برلمانية. الباكستان أصبحت معسكر تدريب للمقاومة الأفغانية أثناء الاحتلال السوفياتي لأفغانستان. ٩٧٪ من الشعب هم مسلمون و ٨٠٪ من السنّة.

أفغانستان تنظيم القاعدة وطالبان شنّوا حرباً مقدسة لإخضاع منافسيهم، استلموا السلطة في أفغانستان سنة ١٩٩٦م وأعلنوا الجهاد على العالم، فجّروا مركز التجارة العالمي في مدينة نيويورك سنة (٢٠٠١م). أميركا غزت أفغانستان وأزالت طالبان من الحكم ونصبت حامد كرزاي كرئيس جديد للبلاد. ٨٤٪ من الشعب الأفغاني هم من المسلمين السنّة.

السعودية الحكم في السعودية يستند على قوانين الشريعة الإسلامية. الحكم ملكي لكنه ليس وراثياً. الملك يختاره قادة الدين والعائلة المالكة. يلعب الإسلام دوراً أساسياً في الحكم. جميع شعب السعودية هم من المسلمين السنّة الوهابيين.

العراق كان الحكم في العراق ملكياً تابعاً للتاج البريطاني حتى سنة ١٩٥٨م حيث ثار الشعب والجيش ضدّ الملكية وتعاقبت على حكم العراق

حكومات دكتاتورية. الإسلام هو دين الدولة لكن الدستور يلتزم بمبدأ التسامح مع جميع الأديان. سنة (٢٠٠١م) اتهم العراق في التعاون مع تنظيم القاعدة لتفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك. غزت أميركا العراق سنة (٢٠٠٣م) أَسست برلماناً وانتخب رئيس الدولة. لكن ليس للبرلمان أي سلطة على رئيس الدولة نوري المالكي المُسَيّر من قبل الحكومة الشيعية في إيران مما أثار غضب الأقلية السنية في المحافظات الخمس السنية التي ثارت ضدّ حكومة بغداد وارتبطت مع تنظيم دولة العراق والشام الإسلامية على أمل إزاحة المالكي من الحكم وتأسيس دولة ديمقراطية إسلامية تضم جميع الأديان والأحزاب والمذاهب والقوميات في منطقة الشرق الأوسط. البلد غير مستقر الآن وتتنازع على السلطة تيارات دينية سنية وشيعية مدعومة من الخارج ٩٧٪ من الشعب العراقي مسلمين و٦٠٪ منهم من الشيعة.

الدولة لا يمكن أن تنفصل كلياً عن الدين ولا يمكن أن تتحد كلياً مع الدين. أحسن الخيارات هو إيجاد حل وسط. الدين كمؤسسة يجب أن يكون منفصلاً عن الدولة لكننا لا يمكن أن ننفصل عن ديننا ومبادئنا الأخلاقية. على جميع الناس أن يستخدموا معتقداتهم وأخلاقياتهم الدينية للتأثير على القرارات السياسية في البرلمان. على جميع الناس أن يكونوا نشطين في تعزيز أخلاقياتهم الدينية. واحدة من أحسن الأشياء التي يمتاز بها الدين الإسلامي هو التسامح، لكن عندما يسيّس الدين فإن صفة التسامح تكون مفقودة. يبدو أن هناك تسامحاً بين الإسلام والديانات الأخرى، وبين الجماعات الإسلامية المختلفة حتى تتعارض مفاهيم الجماعات المختلفة مع مبدأ التسامح حينها تتقاتل هذه الجماعات فيما بينها

ويزول السلام والأمان. عندما تكون جماعة دينية متطرفة أقوى من الجماعات الأخرى سوف لا تتسامح مع أحد وتفرض هيمنتها ومبادئها على الجميع، لكن عندما لا يكون قوياً في الساحة فإن الجماعات سوف تتسامح مع بعضها وتتعاون من أجل هدف واحد هو تحقيق المصالح المشتركة، والربيع العربي (ثورة الشباب) أثبت ذلك. المسيحية تتهم الإسلام بأنه دين يتعارض مع مبدأ الحرية والديمقراطية لكن الربيع العربي تحدى هذا المبدأ لمفهوم الإسلام. دول الشرق الأوسط يواجهون معضلة كبيرة هي إما أن يحكمهم دكتاتور أو حكومة إسلامية استبدادية. لكن الربيع العربي (ثورة الشباب) عبّر عن الديمقراطية الحقيقية بعيداً عن هيمنة واستبداد الدين الإسلامي حتى وإن كان طابعها إسلامياً. التيار الديمقراطي لثورة الشباب هو الذي قادهم إلى النصر في مصر وليبيا وتونس لكن في سوريا عندما انعدمت روح الديمقراطية وزال التسامح بين الجماعات الرافضة لحكم بشار الأسد فإن الحرب مستمرة إلى ما لا نهاية بين الجماعات الجهادية والحكومة من جهة وبين الجماعات فيما بينها. أفضل حل هو أن تستقل السياسة عن الدين ويستقل الدين عن السياسة وأن تتسامح الجماعات مع بعضها لأن التطرف الديني لكل جماعة سوف يمنع أي جماعة من تكوين إيديولوجية سياسة يتفق عليها الجميع، أو أن تجعل من الدين إيديولوجية سياسية تحكم بها البلد. وهذا ما حصل في مصر وليبيا وتونس، إذ بعد أن سرق الإخوان المسلمون ثورة الشباب وانفردوا في الحكم، جعلوا من الشريعة الإسلامية الإيديولوجية السياسية التي حكموا البلاد بموجبها. تظاهر الشعب ضدّ الحكومات الإسلامية وازدادت الفوضى. تدخل الجيش في مصر وأزال الإخوان المسلمين من الحكم ورجعت مصر إلى دكتاتورية

عسكرية كما كانت عليه منذ ثلاثين سنة وستبقى الدكتاتورية العسكرية في الحكم لمدة ثلاثين سنة أخرى. أما في ليبيا وتونس واليمن فالفوضى مستمرة والاقتتال مستمر بين الجماعات المتطرفة وبينها وبين الحكومة. لا يمكن حل النزاعات والاختلافات السياسية والعقائدية بالقوة. يجب تبني روح الديمقراطية، تأسيس برلمان ينتخب الشعب أعضاءه وممثليه وصياغة دستور يتفق عليه الجميع، هكذا تعيش المجتمعات المتمدنة.

انفصال الدين عن الدولة

مع أن مبدأ الانفصال تبنته كثير من الدول إلاّ أن هناك درجات متفاوتة من الانفصال تعتمد على تطبيق النظام القانوني وعلى وجهة النظر السائدة حول دور الدين في المجتمع. بينما قوانين الدولة ربما تنص على حتمية انفصال الدين عن الدولة لكن هناك مسافة قصيرة بينهما لذا فالعلاقة بين المؤسستين تكون متفاعلة لكنها مستقلة. في بلدان أوروبية عديدة وخلال قرون عديدة الدولة تبنت الدور الاجتماعي للكنيسة مما أدى إلى توسع نطاقها المدني. درجات الانفصال تختلف من **انفصال كلي** يقره الدستور كما هو الحال في الهند وسنغافورا، إلى **اندماج كلي** بين الدين والدولة، حيث هناك دين رسمي واحد في البلاد ولا يسمح للممارسات الدينية الأخرى، كما هو الحال في مالدافيا.

نظرة تأريخية

التأريخ القديم مفعم بالأمثلة على اتحاد وانفصال الدين والدولة. نموذجياً رئيس الدولة الناجح يتخذ لقب الكاهن بالإضافة إلى الألقاب

السياسية الأخرى التي يرعاها بعناية. مثال على ذلك هو إعدام الفيلسوف اليوناني سقراط. حكمت الدولة اليونانية على سقراط بالموت فأُجبرَ على تجرع السم (السليماني)، هو اتهم بإهانة آلهتهم. صدر الحكم من الكاهن الذي يطبق حكم الله على الأرض والذي هو الملك أيضاً.

في السنين الأولى من تأسيس الكنيسة الكاثوليكية كان المسيحيون مضطهدين في الإمبراطورية الرومانية لأنهم يثيرون الشغب ويحرضون الناس ضدّ الإمبراطورية، لكن الإمبراطور الداهية قسطنطين قرر تبني المسيحية كدين الدولة عام (٣١٣م) فانتهت فترة الاضطهاد وانتهت معها الانتفاضات الشعبية المسيحية. بالتدريج الكنيسة والدولة أصبحت مؤسسة واحدة. بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية أصبحت الكنيسة هي القوة الوحيدة في القارة الأوروبية والباب يعين الملوك. هذا ساهم بصورة كبيرة في انتشار الفساد في الكنيسة وأدى إلى ظهور حركة الإصلاح البروتستانتية التي قادها مارتن لوثر وانشقاق الكنيسة الكاثوليكية وانفصال الدين عن الدول الذي أقره مجلس الفاتيكان الثاني وبقي الملك لوحده يدير الأمور السياسية خارج هيمنة الكنيسة لسنين عديدة. لكن البابا هو ممثل السيد المسيح على الأرض، يجب أن يمتلك السلطة النهائية على الكنيسة وبصورة غير مباشرة السلطة على الدولة. خلال القرون الوسطى البابا طالب بحقه في تنصيب الملوك الكاثوليك في أوروبا وحاول تطبيق ذلك، بعض الأحيان ينجح وأحياناً أخرى يفشل. موضوع انفصال الدين عن الدولة خلال القرون الوسطى كان مُرَكزاً على الملوك الذين كانوا يحكمون البلاد حكماً مدنياً علمانياً لكنهم يتجاوزون سلطتهم المدنية ويعتدون على السلطات الروحية للكنيسة. هذا الخلاف غير المقرر حول من له السلطة

على الكنيسة أدى إلى صراع على السلطة وأزمات سياسية وأخيراً تم حلها سنة (١١٢٢م)، الملك تخلى عن الصولجان وسلطته الكهنوتية وضمن للكنيسة الحرية الكاملة.

حركة الإصلاح

في بداية حركة الإصلاح البروتستانتية مارتن لوثر طرح مبدأ المملكتين وكانت هذه واحدة من أهم أنصار الانفصال بين الدين والدولة في العصر الحديث. مبدأ المملكتين الذي طرحه مارتن لوثر هو بداية المبدأ الحديث بضرورة انفصال الدين عن الدولة.

سنة (١٥٣٠م) هنري الثامن ملك انكلترا غضب على الكنيسة الكاثوليكية عندما رفضت الكنيسة طلاقه من زوجته وقرر الانفصال عن الكنيسة ونصب نفسه حاكماً على كنيسة جديدة أنشأها وسمّاها الكنيسة الانكليكانية (كنيسة انكلترا) (الكنيسة الإنكليزية). الكنيسة الإنكليزية أنهت الانفصال الذي كان موجوداً بين الدين والدولة في انكلترا. ملوك بريطانيا العظمى أبقوا سلطتهم الكهنوتية على الكنيسة الإنكليزية منذ زمن هنري الثامن، هم يحملون لقب الحاكم الأعلى للكنيسة الإنكليزية. اندماج السلطة السياسية مع السلطة الدينية في إنكلترا لم ينتشر إلى دول أخرى في القارة الأوروبية بسبب اضطهادهم للكاثوليك الذي كان سببه حب الملك هنري للسلطة. هذا أدى في النهاية إلى التمرد والانشقاق والهجرة من بريطانيا إلى أميركا بحثاً عن الحرية الدينية. ثارت المستعمرات الأميركية ضدّ الملك جورج الثالث في بريطانيا وتأسس الدستور الأميركي الذي منع بالخصوص أي سلطة سياسية على الدين.

عصر النهضة الأوروبية

جون لوك فيلسوف سياسي إنكليزي قال: «ضمير الإنسان لا يخضع لسيطرة الدولة». مبدأ انفصال الدين عن الدولة اعتمد بالأساس على كتابات هذا الفيلسوف.

هو قال: «إن الحكومة لا تملك السلطة على الضمير الشخصي للإنسان لأن الضمير هو شيء لا يمكن للعقلاء التخلي عنه للحكومة أو لسيطرة أي إنسان آخر» هذا خلق الحق الطبيعي لحرية الضمير الذي يجب أن يبقى خارج سلطات أي حكومة. وجهات النظر هذه حول أهمية الضمير الشخصي والتسامح وقبول الأديان الأخرى أصبح لها تأثير كبير في المستعمرات الأميركية وفي كتابة الدستور في الولايات المتحدة الأميركية. كتب الرئيس الأميركي توماس جفرسون: «الدين هو قضية شخصية تقع بين الإنسان وربه، ليس للسلطة التشريعية أي حق في إصدار قوانين تخص تأسيس الأديان أو منعها من ممارسة طقوسها الدينية وبناء حاجز يفصل بين الدين والدولة». لائحة حقوق الإنسان التي أعلنتها هيئة الأمم المتحدة والتي تبنتها جميع دول العالم ضمنت حرية الأديان بالإضافة إلى الحريات الأخرى.

الدين والدولة في العالم

دول مختلفة لها درجات مختلفة من الانفصال بين الدولة والمؤسسات الدينية. منذ سنة (١٧٨٠م) عدد من الدول وضعت حواجز واضحة بين الدين والدولة. درجة الانفصال الحقيقي بين الدين والدولة يختلف بصورة واسعة. في بعض البلدان هاتان المؤسستان بقيتا مرتبطتين. الاختلافات

الكثيرة في الانفصال يمكن رؤيته في بلدان بعضها يتمتع الدين بدرجة عالية من الحرية والتسامح ممتزج مع نظام سياسي علماني (دنيوي) قوي الذي أبقى على الكنائس الحكومية وارتباطها المالي بها.

في بعض الدول رئيس الحكومة يتطلب منه أن يكون عضواً في الدين الحاكم وله صلاحيات تعيين القساوسة في الكنائس.

١ ـ **أستراليا**: الدستور الأسترالي يمنع الحكومة من تأسيس أي دين أو امتحان ديني للقبول في المناصب الحكومية. والجماعات الدينية قلقة لأن الحكومة الأسترالية تمنعهم من ممارسة حقهم الديني في انتقاد أو إجبار الجماعات الدينية الأخرى على الالتزام بالمبادئ الدينية الصحيحة.

٢ ـ **البرازيل**: الدستور البرازيلي الحالي يضمن حرية الأديان ويمنع السلطات من تأسيس كنائس حكومية أو أي نوع من الارتباط السياسي أو الديني مع قادة الأديان، يُسمح فقط بالتعاون فيما يخص المصلحة العامة للشعب حسب ما هو مُعَرّف بالقانون.

٣ ـ **الصين**: منذ ألفي سنة الصين دولةً وشعباً تتبع منهج كونفوشيوس. بعد الثورة الصينية سنة (١٩٤٩م) وإلى الآن، الحزب الشيوعي الصيني ليس لديه أي علاقة دبلوماسية مع الفاتيكان، والدين منفصل عن الدولة.

٤ ـ **فرنسا**: الدين منفصل عن الدولة. والدولة العلمانية تحمي المؤسسات الدينية من تدخل موظفي الدولة في شؤونها الخاصة. التظاهر بالدين والتعبير عنه في المناطق العامة محدد. هدفهم هو حماية العامة من تأثير المؤسسات الدينية.

٥ ـ **ألمانيا**: الدستور الألماني يضمن حرية الأديان ولكن ليس هناك انفصال كامل بين الدين والدولة في ألمانيا. التعليم الديني هو أحد المناهج المقررة في المدارس العامة. الدولة الألمانية تفهم نفسها على أنها ليست منحازة إلى أي اعتقاد ديني لذلك هي لا تجبر أي مُدَرِّس على تدريس الدين. لكن من جانب آخر على كلّ من يُدَرِّس الدين الحصول على رخصة رسمية من جماعته الدينية.

٦ ـ **الهند**: الهند رسمياً هي دولة علمانية وليس هناك شروط خاصة في دستورها أو في قوانينها تفضل ديناً معيناً. الدولة منفصلة في معظم أجزائها عن المنظمات الدينية. الهند يحكمها رئيس هندوسي، ونائب الرئيس مسلم، ورئيس الوزراء من السيك ووزير الدفاع ملحد.

٧ ـ **إيطاليا**: الدولة والكنيسة الكاثوليكية مستقل أحدهما عن الآخر في السيادة، كلّ في عالمه الخاص.

٨ ـ **اليابان**: انفصال الدين عن الدولة أصبح له أولوية رئيسية.

٩ ـ **المكسيك**: دور الكنيسة الكاثوليكية في المكسيك هو موضوع خلاف كبير منذ عام (١٨٢٠م) لأن الكنيسة تمتلك أراضٍ شاسعة ـ المكسيك اتجهت نحو إعلان انفصال الدين عن الدولة. الرئيس (بونيو جاريس) الذي في سنة (١٨٥٩م) حاول إنهاء دور الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في البلاد بعد الاستيلاء على جميع أراضيها وامتيازاتها، وأصدر قراراً بفصل الكنيسة عن الدولة لكنه تضمن تدخل الدولة في قضايا الكنيسة لأن الدولة ألغت النظام الكهنوتي وأممت جميع أملاك الكنيسة.

سنة (١٩٢٦م) بعد عدة حروب ثورية وفقدان الأمان، الرئيس

(بلاتركو الياس) ملحد، سن قانوناً ألغى بموجبه جميع الممتلكات الشخصية للكنائس وأغلق الكنائس غير المسجلة مع الدولة ومنع رجال الدين من الوظائف الحكومية. كان القانون غير مشهور وتظاهر الشعب ضده ونددوا به وتحاربوا لعدة سنين مع جيش الدولة وبعد أن انتهت الحرب سنة (١٩٢٩م) الرئيس (ايمليو بورتيز) أبقى على القانون لكن أوقف تطبيقه وبالمقابل حصل على ضمانات بإنهاء العدوان ضدّ الدولة. منذ ذلك الحين بقيت الكنيسة الكاثوليكية فعالة من خلال حزب العمل الوطني المكسيكي الذي فاز رئيسه (فوكس) بالانتخابات سنة (٢٠٠٠م) الذي أنهى سبعين سنة من القوانين الجائرة.

١٠ ـ **النرويج**: البرلمان النرويجي أصدر سنة (٢٠١٢م) قراراً دستورياً ضَمَن الاستقلال الكامل للكنيسة النرويجية، هي تبقى كنيسة الشعب وتستمر الحكومة في دعمها. كذلك أقر الدستور بأن القيم الأخلاقية للشعب النرويجي تستند أساساً على التراث المسيحي والإنساني، وبناءً على الدستور الملك يجب أن يكون مسيحياً (لوثرن). الحكومة سوف تستمر في دعمها المالي للكنيسة وللمؤسسات الدينية الأخرى، لكن مسؤولية تعيين القساوسة تقع على عاتق الكنيسة بدل الدولة والقساوسه هم موظفون لدى الدولة. الإدارة المركزية والمحلية للكنائس تبقى إدارة حكومية. الكنيسة النرويجية تنتظم بقوانينها الخاصة وجميع البلديات الحكومية الإدارية المحلية ملزمة قانونياً في دعم نشاط الكنائس ولها ممثلوها في الكنيسة.

١١ ـ **الفيليبين**: دستور الفيليبين يفصل الدين عن الدولة **لا** قانون

يصدر بخصوص تأسيس دين أو منع أي دين من ممارسة نشاطاته الدينية. الممارسات الحرة للدين والتمتع بالاختصاص الديني والعبادة من دون تمييز أو تفضيل هو مسموح به إلى الأبد. لا امتحان ديني يتطلب لممارسة الحقوق المدنية والسياسية.

١٢ ـ سنغافورا: هي بيت الأديان المتعددة، الحكومة تتجنب تفضيل أي دين على آخر وتمنع المجاهرة بالدين أو الفرض القسري أو توزيع المنشورات الدينية والإعلانات الدينية على جدران المباني، وإذا ألقت السلطات القبض على شخص في حوزته مطبوعات دينية ممنوعة يغرم (٢٠٠٠ $) ويسجن لمدة سنة.

١٣ ـ إسبانيا: صدر دستور إسباني سنة (١٩٣١م) فصل بموجبه الدين عن الدولة، هو تقليد للدستور الفرنسي. لكن الدولة كانت معادية للدين وهذا أدى إلى زوال الديمقراطية واندلاع الحرب الإسبانية الأهلية. بعد انتهاء الحرب واستلام الدكتاتور فرنكو الحكم استعاد الكاثوليك مركزهم المسيطر. سنة (١٩٧٨م) منع الدستور الإسباني أي دين من السيطرة على الدولة. ومنع السلطات الحكومية من التدخل في الشؤون الدينية، لكن سمح لها في أن تستمر في التعاون اللائق مع الكنيسة الكاثوليكية والديانات الأخرى.

١٤ ـ السويد: الكنيسة السويدية (لوثرن) تمتلك قوة عظيمة على المجتمع السويدي وهي تحت سيطرة جهاز الدولة. حرية الأديان تحقق في زمن الدكتاتور (كوستاف الثالث) وانفصل الدين عن الدولة سنة (٢٠٠٠م).

١٥ ـ تركيا: أكثرية الشعب التركي هم من المسلمين والحكومة

علمانية، الدستور يقر بعدم تدخل الدين في الشؤون الإدارية والسياسية للدولة. الدولة تدفع رواتب أئمة الجوامع السنة، وتوفر ثقافة دينية سنية في المدارس العامة. الدولة لها قسم الشؤون الدينية مرتبط مباشرةً برئيس الوزراء، ومسؤول عن تنظيم المذهب السني في البلاد ـ ومسؤول مثلاً عن ماذا يقال وماذا **لا يقال** في خطبة الجمعة. هذا التفسير للدولة العلمانية التي فيها الدين واقع تحت سيطرة الدولة هو يختلف كثيراً عن معنى انفصال الدين عن الدولة في مناطق عديدة من العالم.

١٦ ـ **بريطانيا**: (المملكة المتحدة) الكنيسة الإنكليزية (انكليكن) هي مؤسسة دينية بالاسم فقط، والملكة تحمل لقب رئيسة الكنيسة الإنكليزية ولا يمكن أن يكون الملك أو الملكة من الكاثوليك. ولا يمكنهم أن يتزوجوا من الكاثوليك. الملكة هي التي تعين قساوسة الكنائس، والكنيسة تقوم بوظيفة مهمة هي تتويج الملك. مسؤولون كبار في الكنيسة يحتلون مقاعد في البرلمان (٢٦ مقعداً من أصل ٧٨٩ مقعداً) ويعرفون بالنواب الروحيين على خلاف النواب الدنيويين. الارتباط بين الدين والدولة هو شكلي فقط والحكم هو علماني (دنيوي). لكن التصويت الإجماعي للنواب الروحيين له تأثير في صنع القرار في البرلمان مثال ذلك التصويت على الإجهاض أو إنهاء حياة شخص رحمةً به. ليس هناك قرار مكتوب في الدستور وليس هناك مبدأ معلن يخص حرية الأديان كما هو الحال في دول أخرى مثل ألمانيا والولايات المتحدة الأميركية. مع هذا فللأديان حرية كاملة وقوانين أخرى تحميها مثل حقوق الإنسان والمساواة، تسمح للأديان المختلفة أن تمارس نشاطاتها الدينية وأن تنشر مطبوعاتها ووجهة نظرها إلى جانب المؤسسات الدينية الأخرى.

١٧ ـ **الولايات المتحدة الأميركية**: الدين منفصل عن الدولة، هذا ما يقره الدستور، حيث نص على أن مجلس النواب يجب ألاّ يصدر أي تشريع يخص تأسيس أي دين أو تحديد حرية أي دين من ممارسة شعائرهم الخاصة. الكنائس والمدارس الدينية لا تمولها الدولة بالمال وليس هناك تفضيل لأي دين على آخر في المناصب والسياسة. لا يُمنَع أي شخص من تولي منصب حكومي إذا كانت ديانته تختلف عن دين رئيس الدولة.

* * *

الفصل الخامس عشر

أخلاقية الجماعات

كثير من المسلمين يعتقدون أنه لا يسمح لأحد رسم سورة النبي محمدﷺ . بعض اليهود يعتقدون أن اليهود هم شعب الله المختار ولليهود الحق الإلهي للأرض في فلسطين. كثير من المسيحيين الأمريكان يعتقدون أن الوصايا العشر يجب عرضها في الأماكن العامة وعلى جميع الأمريكان أن يتعهدوا بولائهم لدولة واحدة تحت حكم الله.

الممارسات الأخلاقية لبعض الجماعات هو اعتباطي في الدول المتقدمة، هم بصورة عامة يمتنعون عن فرض ممارساتهم الأخلاقية الاعتباطية أحدهم على الآخر: فاليهود لا يفرضون ختان الأطفال الذكور على غير اليهود. والمسيحيون لا يفرضون أكل لحم الخنزير على اليهود والمسلمين. ولا المسلمون في أميركا مثلاً يفرضون إطالة اللحى على اليهود والمسيحيين. الكل يعيش في توافق وانسجام ويقبل أحدهم الآخر على ما هو عليه. لكننا في الدول النامية العربية والإسلامية الاختلافات بين الجماعات دائماً تتفجر بشكل نزاعات، خاصةً الاختلافات في الممارسات الدينية لدى الجماعات المختلفة، كلّ طائفة أو جماعة تريد فرض وجهة نظرها على الجماعات الأخرى، فتصبح الحياة غير عادلة لملايين الناس.

يمكننا أن نحسن نظرتنا للسلام والرخاء بتحسين الطريقة التي نفكّر بها بما يخص المشاكل الأخلاقية. لا يحق لأي تجمع بشري لأن يمتلك امتيازات خاصة فوق الآخرين، جميع البشرية تستحق أن تمتلك الحاجات الأساسية والحرية. نحن نقرّ بهذه المثاليات مبدئياً وليس عملياً، لكن حقيقة إقرارنا وتأييدنا لها هو شيء جديد تحت الشمس. فكرة إيجاد فلسفة أخلاقية عالمية هو ليس شيئاً جديداً. هي حلم مفكري الأخلاق منذ فجر النبؤات لكنها صعبة التطبيق. ما نملكه بدل ذلك هو قيم مشتركة، وقيم غير مشتركة، بعض القوانين التي نتفق عليها وعبارات عامة نستعملها لنعبّر عن القيم التي نشترك بها وكذلك القيم التي تقسمنا.

فهم الأخلاق يتطلب شيئين:

الأول: يجب علينا فهم تركيب مشاكل الأخلاق في عصرنا الحاضر وكيف تختلف عن المشاكل التي تَطَوّر دماغنا لحلها؟

ثانياً: يجب أن نفهم تركيب أخلاقية دماغنا وكيف تلائم أنواع مختلفة من التفكير حل مشاكل مختلفة. الفرد ضدّ الجماعة (المصلحة الفردية ضدّ مصلحة الجماعة) ومصلحة جماعتنا ضدّ مصلحة جماعتكم.

الأخلاق الغريزية

نحن مُصممون غريزياً بأن نتعاون في علاقتنا الشخصية وفي علاقاتنا مع جماعتنا. وبالتفكير العملي يمكن أن نحل جميع مشاكلنا الأخلاقية ومشاكل جماعتنا.

التفكير الأخلاقي صاغته عواطفنا وعقولنا، بهذه العملية المزدوجة

تعكس الأخلاق التركيب العام لدماغ الإنسان، فلسفة أخلاقية عالمية يمكن أن تحكم بين أخلاقيات الجماعات المتنافسة تماماً كما تحكم أخلاقية الجماعة بين أفرادها المتنافسين. أخلاقية عالمية (أخلاقية مطلقة) يمكن تطبيقها لو وجدنا نظاماً موحداً لقياس القيم الأخلاقية لدى الجميع. يمكن الاستفادة من مبدأ المنفعة المتبادلة الذي بني على قيم وعملية تفكير يستفاد منها الجميع. لإيجاد ذلك المقياس العام للأخلاق الذي نحن بأشد الحاجة له لكي نسوي اختلافاتنا يجب الرجوع إلى القيم المشتركة التي هي المقياس العام للأخلاق.

المأساة الأخلاقية داخل الجماعة

لنفترض شخصين عمر وعلي في وسط البحر يريدان الوصول إلى اليابسة في قارب التجذيف الذي هما فيه للخلاص من عاصفة آتية. لا أحد منهما سوف ينجو ما لم يجذف الاثنان بقوة.

هنا المصلحة الشخصية والمصلحة العامة في توافق تام. لأن كلاً منهما يعمل ما يخدم مصلحته ومصلحة الجماعة ـ في موقف آخر التعاون يكون مستحيلاً ـ لنفترض أن قارب التجذيف الذي فيه عمر وعلي بدأ بالغرق في وسط البحر ويوجد في القارب سترة نجاة واحدة لا يمكن الاشتراك بها. هنا لا توجد مصلحة عامة. فقط اثنين من الـ «أنا» المختلفتين.

عندما يكون التعاون سهلاً أو مستحيلاً فليس هناك مشكلة اجتماعية أخلاقية تتطلب الحل.

المصلحة الشخصية والمصلحة العامة هما ليستا متجانستين بصورة تامة ولا غير متجانستين بصورة تامة، مشكلة **التعاون** هي إمكانية جعل المصلحة العامة تتغلب على المصلحة الخاصة. مشكلة التعاون هي المشكلة المركزية لوجود المجتمع. لماذا يتوجب على أي مخلوق أن يكون اجتماعياً؟ لماذا لا نفعل ما نشاء لوحدنا؟ السبب هو أن الأفراد بإمكانهم أن ينجزوا أعمالاً كبيرة لو اجتمعوا ولا يمكن لأي أحد أن ينجزها لوحده. هذا المبدأ قاد تطور الحياة على الأرض منذ البداية. مملكة النمل والنحل ومجموعة الذئاب بإمكانها أن تعمل أشياء ليس بإمكان نملة واحدة أو نحلة واحدة أو ذئب واحد إنجازها، ونحن البشر بتعاون أحدنا مع الآخر أصبحنا النوع المسيطر على الأرض. معظم التعاون بين البشر هو الذي فيه المصلحة الخاصة والمصلحة العامة متناسقة جزئياً ذلك لوجود بعض التوتر بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة، بين «أنا» ضدّ «الجماعة». لذا تقريباً جميع مشاريع التعاون هي في خطر التآكل. جميع العلاقات البشرية تتضمن الأخذ والعطاء وجميع تلك العلاقات تتحطم عندما أحد الفريقين أو كلاهما يأخذ أكثر مما يعطي. أخلاق البشر أصبحت لغزاً علمياً.

ما هو مصدر أخلاقنا؟

الانتخاب الطبيعي هو مصدر الأخلاق

الانتخاب الطبيعي يفضل المصلحة الشخصية «أنا» بلا رحمة. الأشخاص الذين يسيطرون على جميع الثروات الطبيعية ويحطمون المنافسين يعيشون بصورة أفضل، أجيالهم تتكاثر ويملؤون الأرض بنسل

أناني لا يرحم. كيف يمكن للأخلاق أن تتطور في عالم مصبوغ بالدماء؟. الأخلاق تتطور كحلٍّ لمشاكل التعاون كطريقة لتجنب المأساة الأخلاقية داخل الجماعة. الأخلاق هي مجموعة من التأقلمات النفسية التي تسمح للشخص الأناني لأن يجني فوائد تعاونه. كيف يمكن للأخلاق أن تفعل ذلك؟

جوهر الأخلاق هو حب الغير، نكران الذات، الرغبة للتضحية بالفوائد الشخصية لمنفعة الجماعة. الأخلاق تطورت لتساعد على التعاون لكن هذا الاستنتاج يأتي بمخاطر مهمة. من الناحية البيولوجية الإنسان صُمّم للتعاون، لكن فقط مع بعض الأشخاص. أخلاقية أدمغتنا تطورت للتعاون داخل الجماعة التي ننتمي إليها وفقط ضمن حلقة العلاقات الشخصية. أخلاقية أدمغتنا لم تتطور للتعاون بين الجماعات. كيف عرفنا ذلك؟ ولماذا لم تتمكن أخلاقنا أن تتطور لتفضّل التعاون بطريقة أكثر شمولية؟ لأن التعاون العام يتضارب مع مبدأ الانتخاب الطبيعي الذي يحكم هذا الكون (البقاء للأصلح).

التطور هي عملية منافسة بالفطرة: الأسد الأسرع يقبض على أكثر فرائس مقارنةً بالأسود الأخرى، ينتج أجيالاً أكثر من الأسود الأخرى، ويزيد من عدد الأسود السريعة. هذا لا يحدث لو لم تكن هناك منافسة على الموارد الطبيعية. إذا توفر طعام للأسود بلا حدود فليس هناك أفضلية للأسد الأسرع على الأسد البطيء، والجيل القادم من الأسود لا يكون أسرع من الجيل الذي قبله، لا منافسة لا تطور بالانتخاب الطبيعي.

للسبب نفسه نزعة التعاون لا يمكنها أن تتطور (من الناحية البيولوجية)

ما لم تواجه فوائد المنافسة من التعاون. التعاون تطور ليس لأنه «سار» ولكن لأنه يمنح فرصة للبقاء أحسن. تماماً كتطور الأسد الأسرع، المنافسة هي جوهر أساسي لتطور التعاون. التعاون يتطور فقط إذا أشخاص تعاونوا تغلبوا على الأشخاص غير المتعاونين. فإذا كانت الأخلاق هي مجموعة من التأقلمات لأجل التعاون، نحن الآن كائنات أخلاقية فقط لأن أخلاقية دماغ أجدادنا تغلبت على أخلاقية دماغ الجار الأقل تعاوناً. الأخلاق هي تأقلمات بيولوجية، تطورت ليس كأداة تضع الجماعة قبل الفرد ولكن كأداة تضع جماعتنا قبل جماعتكم.

المأساة الأخلاقية بين الجماعات

مأساتان أخلاقيتان تهددان سعادة الإنسان. المأساة الأصلية هي المأساة الشخصية داخل الجماعة. هذه هي مأساة المصلحة الشخصية، فشل الفرد بأن يضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة. الأخلاق هي حل الطبيعة لهذه المشكلة. المأساة الجديدة، المأساة العصرية، هي المأساة الأخلاقية بين الجماعات. التفكير الأخلاقي نفسه الذي مكننا من التعاون داخل الجماعة يقوض التعاون بين الجماعات. الأخلاق لم تتطور لتفضّل التعاون الشامل. على الضدّ من ذلك، هي تطورت كأداة للتنافس الناجح بين الجماعات. الأخلاق تطورت لتجنب مأساة الجماعة ولكن لم تتطور لتجنّب مأساة الجماعات. كيف نتمكن أن نأقلم أخلاقنا الفكرية لظروف عالمنا المعاصر؟ هل هناك أخلاق فكرية يمكن أن تساعدنا أن نعيش بسلام وسعادة سوياً؟ الأخلاق هي حل الطبيعة لمشكلة التعاون داخل الجماعة، تمكن الأفراد المتنافسين للعيش سوياً بازدهار. ماذا نحتاج

نحن في العصر الحديث؟. نحن بحاجة إلى تفكير يُمَكِّن الجماعات ذات الأخلاقية المتضاربة لأن يعيشوا سوياً ويزدهروا. نحن بحاجة إلى **أخلاقية عامة**. نحن بحاجة إلى نظام أخلاقي يحل المشاكل بين الجماعات ذات الأخلاقيات المختلفة، تماماً كالأخلاقية العادية التي تحل مشاكل بين أفراد ذوي مصالح شخصية مختلفة. فكرة الأخلاقية العامة هي ليست جديدة، على الضدّ من ذلك إنها حلم فلاسفة الأخلاق. المشكلة هي أننا نبحث عن مبادئ أخلاقية عامة تبدو صحيحاً لكن ربما لا وجود لمثل هذا الشيء. ما يبدو صحيحاً ربما يمكن تطبيقه داخل الجماعة وليس بين الجماعات. بكلمة أخرى فإن الأخلاقية العامة يمكن أن تتجنب المأساة داخل الجماعة ولكن ليس بإمكانها أن تتجنب المأساة بين الجماعات. لأجل أن نجد الأخلاقية العامة التي نبحث عنها يجب علينا أولاً أن نفهم أساس الأخلاق، ذلك النوع الذي تطور لتجنب المأساة داخل الجماعة. الأخلاق هي أداة تمكننا من التعاون، وتجنب المأساة داخل الجماعة، هي تعزز وتثبت سلوك التعاون.

نريد أن نعرف لماذا نحن نتحارب مع بعضنا البعض. نريد أن نعرف كيف تعمل الأخلاق عندما كلّ شيء يجري كما ينبغي «لا تفعل ما تكرهه لجارك» هذه هي القاعدة الذهبية السلبية، أكدتها جميع الديانات السماوية بشكل أو بآخر. يوجد بين البشر سلوك اسمه **الشفقة** تحثه العواطف، خاصة تلك العواطف القوية التي تربطنا بأقربائنا وأفراد عائلتنا. **الشفقة** هي أداة بيولوجية، ماكينة أخلاقية تمكن الأفراد المرتبطين بالجينات الوراثية لجني فوائد تعاونهم. نحن البشر نملك مشاعر تقوم بالتفكير عوضاً عنا. العواطف الإيجابية يمكن أن تسند التعاون بصورة متبادلة. أنا أغفر لك

فعلتك وأبدأ التعاون معك، أحسن من أن أبقى غاضباً وحاقداً عليك بصورة دائمة وما دمت أنا أعيش في عالم لا تجري الأمور فيه حسب ما خططت لها. قابليتنا للغفران تخفّف من ردود أفعالنا الانفعالية السلبية. منشأ الغفران هو في عمق تركيبنا البيولوجي يتبع منطق التعاون المتبادل في عالم مجهول.

تصرفاتنا الأساسية اللائقة بالأدب والاحترام تمتد ما وراء السيطرة على عدوانيتنا إلى تصرفات إيجابية ملؤها الشفقة والحنان. ما يحزننا هو أننا لسنا شفوقين بما فيه الكفاية، لكننا غالباً ما نفعل أشياء لطيفة للآخرين، حتى الغرباء من دون أن نتوقع دفع أي شيء بالمقابل. عندما نساعد الناس، غالباً ما نحس بالألم عليهم ونريد أن نريح معاناتهم. في الحقيقة الإحساس بالألم على الآخرين يدفعنا إلى التعاون معهم. هذا الإحساس يشار إليه بصورة عامة **بالشفقة**، حالة عاطفية فيها الفرد يشعر بإحساس أن هذا الشخص الآخر هو جزء منه. مراقبة شخص آخر يعاني الألم يثير فينا الإحساس نفسه بالألم تحت الظروف نفسها. شبكة الأعصاب التي تسند الشفقة على الآخرين ربما تجد منشأها في شبكة الأعصاب التي تطورت لأجل رعاية الأمومة.

قابليتنا لرعاية الآخرين ومن ضمنهم الغرباء هي بالتأكيد ميزة تطورت مع تأريخ تطور الجنس البشري. نحن جنس يهتم بالآخرين بصورة محددة. نحن نهتم أكثر بأقربائنا وأصدقائنا وكذلك بمعارفنا والغرباء. تحت الظروف الاعتيادية، نحن نمتنع عن إيذاء الغرباء، نحن نرغب بمساعدة الغرباء ولا نتوقع أي شيء بالمقابل، إذا لم يكلفنا ذلك كثيراً لأن

يهتم أحدنا بالآخر. الحب هو أكثر من أن يكون عاطفة قوية للاهتمام بالآخرين. الحب يمكّننا من التعاون مع الآخرين. بعض الأفراد يحبون قادتهم إلى حدِّ التقديس والتضحية بالنفس في سبيلهم.

الولاء للوطن، للجماعة للمنظمة ربما تَطَوّر ليُسهّل التعاون داخل الجماعات الكبيرة. هذه القابلية ربما تعتمد على قابليتنا للشعور بالخشية وحاجتنا للحماية، لذا نحن ننتمي إلى عشيرة، جماعة أو حزب. كلّ الجماعات المتعاونة يجب أن تحمي نفسها من الاستغلال. هذا يعتمد على قابليتنا لتمييز **نحن** عن **هم**، والرغبة بتفضيل نحن عليهم. بينما هناك بعض الحالات النادرة التي يعامل فيها الفرد شخصاً غريباً كواحد من عائلته، ليس هناك جماعة بشرية تعتبر هذا الشيء قاعدة عامة، ولسبب جيد هو اختلاف الثقافات ومركزية الأعراق البشرية والتحيز لأبناء العشيرة أو الطائفة. كلّ واحد منا يحتل مركزاً في منظومة اجتماعية معينة. ما يحيط بنا مباشرةً هم أقرباؤنا وأصدقاؤنا، الحلقة التي تليها معارفنا. خارج نطاق دائرة الأقارب والمعارف، الغرباء الذين تربطنا بهم علاقة من خلال انتمائنا إلى جماعات مختلفة: القرية، العصبة، العشيرة، الطائفة، المدينة، الدولة، الدين.

بالإضافة إلى هذه الانتماءات، نحن نُنظِّم أنفسنا في أحزاب سياسية، اختصاصات مهنية، طبقات اجتماعية، فرق رياضية، ومجموعات أخرى نحبها أو نكرهها. نحن البشر نعير أهمية كبيرة لموقع الناس في السلّم الطبقي الاجتماعي المبني على حب الذات المفرط. نحن نفضّل الناس المقربين إلينا. يكون من السهل التعرف على أقربائنا وأصدقائنا ومعارفنا كأعضاء متعاونة داخل تجمعنا، لكن البشر يتعاونون في تجمعات كبيرة

مثلاً بناء جسر، الدفاع عن الوطن، لأجل التعاون مع شخص غريب نحتاج إلى وسيلة لتميز ذلك الغريب الذي أتعاون معه عن الغريب الذي يمكن أن يستغلني. نحتاج إلى طريقة لتمييز الغريب المتعاون من الغريب غير المتعاون. اللغة المشتركة انتماؤنا العرقي يمكن أن يميز الشخص المتعاون من غير المتعاون كذلك اللباس، طريقة الأكل، العمل، الرقص، الغناء، وجميع الممارسات الثقافية والقواعد التي تتحكم في حياتنا اليومية يمكن أن تلعب دوراً مهماً وتساعد على التعاون. لون البشرة والاختلاف العرقي له تأثير كبير على التعاون أو التحيز العرقي. نحن بصورة فطرية لا إرادية نقسم العالم إلى نحن وهم (جماعتنا وجماعتكم) ونفضل جماعتنا على جماعتكم. فرض التعاون هو واحدة من القوى الدافعة في التأريخ: رؤساء وملوك وأباطرة استعملوا الجزرة والعصا لفرض تعاون منتج. في الديانات التقليدية الله هو جبار عظيم ورحمان رحيم، هو يضمن الجنة لمن يتعاون ويضمن النار لغير المتعاونين، الدين هو أداة تطورت خلال التطور الحضاري للبشرية لتمكننا من التعاون في مجموعات كبيرة. فكرة مخافة الله والتعاون متعلقة الواحدة بالأخرى. المؤمن بالله قلق دائماً على الناس الذين لا يخافون الله.

من منظور التطور الطبيعي، فرض التعاون يفهم على أن به منفعة شخصية لجميع المتعاونين. المتعاون يستلم مكافأة ويتجنب العقاب من مرؤوسيه. لكن في المجتمعات المشاعية كان هناك تعاون من دون رؤساء أو ملوك يقولون لهم ماذا يفعلون؟

الماكينة الأخلاقية

من خلايا بسيطة إلى حيوان اجتماعي كالإنسان قصة الحياة على الأرض هي قصة تعاون معقدة. التعاون هو السبب لوجودنا، ومع هذا فإن الإبقاء على التعاون هو تحدينا العظيم. الأخلاق هي جواب دماغ الإنسان لهذا التحدي. هناك عدة استراتيجيات صممت لتحول الشخص الأناني إلى شخص متعاون.

استراتيجية تمكن التعاون داخل الجماعة الواحدة لتفادي مأساة الجماعة: **يجب اتباع القواعد المنصوصة للتعاون والإبقاء على التعاون** وذلك بملاحقة المتحايلين داخل الجماعة وطرد المستغلين خارج الجماعة. هذه الاستراتيجية تترجم إلى حلّ لمشاكل العالم الحقيقية: ما ينطبق على الشخص الجشع ينطبق على من لا يدفع الضرائب، يلوث الطبيعة، العدواني، المغتصب وهكذا.

لكلّ من استراتيجيات التعاون الأخلاقية الفكرية لدينا بالمقابل مزاج عاطفي ينفذ الاستراتيجية.

الاهتمام بالآخرين:

لدينا عواطف تجعلنا نهتم بما يحدث للآخرين خاصةً عائلتنا، أصدقاءنا ومحبينا. عواطفنا تمنعنا من إيذاء الآخرين بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

العلاقة المتبادلة المباشرة:

أن تكون غير متعاون الآن سوف يحرمك من منافع الجماعة المتعاونة في المستقبل. مطابقة لهذه الاستراتيجية نحن البشر نملك عاطفة الغضب والاشمئزاز التي تدعونا إلى معاقبة وتجنّب الشخص غير المتعاون. في الوقت

نفسه هذه العواطف يمكن أن تغفر وتعطي فرصة ثانية للشخص غير المتعاون.

الالتزام بالتحديات والوعود:

البشر غالباً ما ينتقمون. يجب معاقبة غير المتعاونين حتى ولو كانت تكلف أكثر من الفائدة. البشر بعض الأحيان جديرون بالاحترام ويُعرّفون بميولهم للشعور بالخزي أو الشعور بالذنب وبعقاب الضمير.

البشر يمكن أن يُظهِروا ميزة الولاء من ضمنها الولاء الذي يأتي مع الحب. الولاء لسلطة عليا هو يتضمن ميزة التواضع والقابلية على الخشية.

السمعة:

إذا لم تتعاون الآن سوف يحرمك الفوائد التي يجنيها الأفراد المتعاونون في المستقبل. نحن البشر نقاضي الناس، نراقب تصرفاتهم مع الآخرين ونكيف تصرفاتنا تجاههم تبعاً لذلك. نحن حساسون جداً لمراقبة الناس لنا، الذي يجعل منا خجولين. عندما خَجَلنا يتغلب علينا وعندما يمسك بنا ونحن نخالف القوانين تحمّر وجوهنا وهذا مؤشر أننا لن نرتكب أي خطيئة في المستقبل.

التصنيف:

الأفراد المتعاونون يميز أحدهم الآخر. الفكر البشري هو فكر عشائري، وهو غريزياً مهيأ لتفضيل الأفراد داخل الجماعة.

العلاقة المتبادلة غير المباشرة:

إذا كان هناك أفراد لا يتعاونون فيجب معاقبتهم. البشر يفضل العقاب

الجماعي لحماية القيم الاجتماعية والعرف العام.

التعاون هو نموذج غريزي لا نحتاج للبحث عن سبب منطقي للتعاون لكي نتعاون. بدل ذلك نحن نملك أحاسيس تفكر عوضاً عنا. التلقائية أو حكم اللحظة الحاضرة هي مصدر كلّ شيء جيد، هي العقل الباطني الذي يستمد معرفته من الله. ولكن غريزتنا الاجتماعية هي عظيمة في تفادي المأساة داخل الجماعة.

ليس كلّ شيء تطور لأجل التعاون هو أخلاقي ولكن ليس هناك شيء أخلاقي وجد على الأرض ما لم يكن الدماغ خصصه للتعاون. لماذا إذاً خُصِّصَت أدمغتنا للتعاون؟ ربما هكذا صممها الله. نحن نملك أدمغة متعاونة لأن التعاون يوفر فوائد مادية، مصادر بيولوجية تمكن الجينات الوراثية لأن تتكاثر.

التعايش السلمي بين الجماعات

الجماعات البشرية تمتلك أدمغة مليئة بأدوات الأخلاق المصممة للتعاون لكن حياتهم أفسدها العنف الجاري بين الجماعات. وحتى في أوقات السلام هذه الجماعات تتنازع على الطريقة التي يجب أن يعيش بموجبها الإنسان.

لماذا كلّ هذا؟ لماذا خَذَلتنا عقولنا في عالم الحضارة. لماذا أخلاقية عقولنا فشلت لتفادي المأساة الأخلاقية بين الجماعات؟ هناك عائقان يمنعان التعاون بين الجماعات.

الأول: هناك أنانية على مستوى الجماعة. البشرية تقريباً دائماً تضع

نحن قبل هم.

الثاني: هناك اختلافات في القيم وعدم التوافق بما يخص شروط التعاون.

هذان العائقان يندمجان، جماعة معينة يكون لديها سبب أناني لتفضّل بعض القيم الأخلاقية على الأخرى، تكون مقبولة داخل الجماعة لكن لا يشاركهم فيها من كان خارج الجماعة في خصوصياتها. اختلافات حول الكتب الدينية، أيهما هو المصدر الصحيح، وأيهما يمتلك السلطة القضائية والأحكام الشرعية. المأساة الأخلاقية بين الجماعات سببها تفضيل أعضاء الجماعة على من هم خارج الجماعة. ليس هناك شك بأن البشرية تمتلك ميولاً متحيزة للجماعة تعزز الاقتتال بين الجماعات. نحن نمتلك نزعة فطرية للتحيز لجماعتنا. تفضيل أعضاء جماعتنا وأبناء قوميتنا ومتبعي ديننا على من هم خارج عن ذلك وهذا شيء بشري عام (أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب). هناك مادة كيميائية ناقلة للإيعازات العصبية في الدماغ تسمى أوكسيتوسين (Oxytocin) تجعل الناس تفضل أعضاء الجماعة على من هم خارجها.

جميع الحسابات البيولوجية لتطور الإنسان نحو التعاون مع من هم لا تربطنا بهم صلة الدم أو الرحم تتضمن التعاون بين أعضاء الجماعة الواحدة ولا تشمل التعاون بين الجماعات. يبدو أننا منحازين للجماعة بالفطرة. وهذا سوف يسبّب مشاكل لكن يمكن تذليلها لو حاولت الجماعات البشرية أن تعيش بسلام.

ما هي شروط التعاون؟

التحيز للجماعة يجعل من الصعب على الجماعات أن تعيش سوياً بسلام. الأنانية والمصلحة الشخصية داخل الجماعة هي ليست العائق الوحيد. جماعات بشرية مختلفة لديهم أفكار مختلفة لافتة للنظر حول الشروط المناسبة للتعاون حول ما يتوقعون وما لا يتوقعون أحدهم من الآخر. النظام العشائري يُكَرِّم ويعزِّز مبادئ الشرف، البطولة، النخوة، الشهامة، الثأر التي لها تأثير كبير على المجتمع. هم مثلاً يسمحون باستعمال العنف ضدّ من يعتدي على حرمة بيت أحد أو على زوجة أحد. وفي الوقت نفسه هم يوصمون بالعار من لا يستجيب بالعنف ضدّ من اعتدى على شرفه أو أخذ بثأر أخيه. العقلية القبلية تسيطر على معظم عقول الشعوب العربية والإسلامية ورؤسائهم ولها تأثير كبير على السياسة الخارجية لبلدانهم.

واحدة من الأسباب التي دعت صدام حسين لغزو الكويت وضمّها إلى العراق هو ما كان يقوله بعض الكويتيين عن نساء العراق كونهم يشترون النساء أثناء إجازاتهم في بغداد والبصرة. فغزوا الكويت وأباحوا حرمات نسائهم ومن ضمنهم إحدى زوجات أمير الكويت. النظام العشائري لا يحبذ العنف بدون تمييز. لكن بالأحرى هو نظام يقظ جداً لمراقبة نوع معين من السلوك غير المتعاون. هو نظام يؤكد على الاحترام والرقة في التعامل في الظروف الاعتيادية. الاختلافات الثقافية هي أمثلة على الاختلافات الأخلاقية، تعكس تنوع المواقف في الظروف الاجتماعية المختلفة.

جماعتان مختلفتان في الثقافة والتقاليد كلاهما يمتلكان تقاليد مبنية

على التعاون لكنهم يتعاونون وفق شروط مختلفة. جماعة متعاونة تؤكد على **التعاون الفعال** وضرورة تضحية الفرد لمنفعة الجماعة. والجماعة الأخرى تؤكد على **التعاون السلبي** (احترام الملكية والامتيازات الخاصة للآخرين) وتأييد العنف كرد فعلٍ على العنف (العين بالعين) أو التهديد بالقوة. في شهر أيلول سنة ٢٠٠٥ نشرت صحيفة دانماركية سلسلة من الرسوم الكاريكاتورية تصور النبي محمداً وتهجوه. هذه كانت إشارة استفزاز مقصودة وتحدٍّ لقانون الإسلام الذي يمنع بصورة علنية تصويراً مرئياً للنبي محمدﷺ. المنظمات الإسلامية في الدانمارك تظاهرت ضدّ هذا الحدث، أعقبتها مظاهرات أخرى عنيفة في جميع الدول الإسلامية أمام السفارات الدانماركية وأدت إلى قتل المئات.

القيم الأخلاقية الدينية تمنع القتل، الكذب، السرقة، والزنى. هذه الأخلاقية الدينية هي أخلاقية عامة تحمل في طياتها أخلاقية محلية وهذه الأخلاقية المحلية هي المصدر الرئيسي للصراعات. الصراع الإسرائيلي الفلسطيني هو أكثر النزاعات السياسية العالمية المثيرة للفرقة والتشويش بين ادعاءين متنافسين لملكية قطعة من الأرض خاصة ومهمة لكلا الفريقين. والمسيحيون في أفريقيا الوسطى يبيدون المسلمين ويهجّرونهم من ديارهم. وفي دارفور دولة جنوب السودان المليشيات المسيحية تبيد وتهجِّر المسلمين بعد انفصالها عن السودان. والخلافات بين الهند والباكستان حول كشمير. القيم المحلية تلعب دوراً مركزياً في كثير من الخلافات الوطنية والإقليمية، ضم روسيا شبه جزيرة القرم الأوكرانية ذات الأغلبية الروسية، منع المرأة المسلمة من لبس الحجاب في المناطق العامة في فرنسا، وموضوع الإجهاض، هذه الأخلاقية المحلية ممزوجة مع عمق

الأخلاقية الدينية. لهذا خصومات عنيفة تحدث بين الجماعات ليس فقط بسبب الاختلاف في المصالح أو تأكيد كلّ جماعة على قيمها الخاصة ولكن بسبب أن كلّ جماعة لها قيم محلية مميزة أساسها ديني.

كثير من القيم الأخلاقية التي تتمسك بها الديانات بقوة هي التزامها بالأخلاق العامة التي تروّج لها وتدعمها جميع الديانات في العالم. لكن الدين يمكن أن يكون مصدراً للأخلاق المفرقة أو مصدراً للأخلاق الموحدة. الناس منحازون في مفاوضاتهم لكنهم يقولون: إن هذا الانحياز هو لاشعوري. معرفة أي طرف من النزاع تؤيد يغير بصورة لا شعورية تفكيرك عما هو عادل. إنه يغير الطريقة التي نتعامل بها مع المعلومات.

إدراكنا لهذا الانحياز اللاشعوري لما هو عدل يجعل من الصعب على الرجال العقلانيين الوصول إلى اتفاق مما يضر كلا الجانبين. الفريقان المتنازعان دائماً في موقفين غير متماثلين، كلّ فريق شعورياً أو لا شعورياً يغريهم محاولة حياكة مفهومهم الخاص لما هو عدل ليلائم مصالحهم الخاصة. عندما كلّ فريق لديه مصلحة شخصية يتفاوض عليها وهذه المصالح الشخصية متماثلة، كلا الفريقان يضعون مصالحهم الشخصية جانباً ويجدون حلاً وسطاً مشتركاً يتفقون عليه. ولكن عندما تكون المصالح الشخصية في أشكال متعددة وغير متماثلة، كلّ فريق ينجذب باتجاه مخالف لمفهوم ما هو عدل والاتفاق يكون صعباً جداً.

ما يثير السخرية هو أن ميولنا للعدل المنحاز في بعض الأحيان قوي جداً يكون من الأحسن إذا فكر كلّ فرد بصورة أنانية بدل الأخلاقية. شخصان اثنان يتفاوضان بصورة أنانية يجدان حلاً وسطاً ينتفع منه الاثنان،

في المقابل هناك شخصان آخران يتفاوضان عما هو عدل لا يتوصلان إلى حلّ وسط. لماذا يحدث هذا؟ مفتاح النجاح المشترك لكلا الفريقين المتفاوضين هو تقديم تنازلات على المسائل غير المهمة لكي يكسبان أكثر على المسائل الأكثر أهمية. كمفاوض يفضل مصلحته الشخصية، أنت ترغب بالقيام بهذه التنازلات لأنها تؤدي إلى كسب أكبر. وإنك تفهم بأن خصمك الذي هو أيضاً يفضل مصلحته الشخصية مثلك سوف يقوم بالتنازلات التي تؤدي إلى كسب أكبر. مفاوضان اثنان أنانيان وعقلانيان يريان مواقفهما المتماثلة يرغبان بالقيام بالتنازلات الضرورية لأجل الكسب الأكبر. لكن لو كان الفريقان المتفاوضان يبحثان عن العدالة بدل النفع الخاص فإن اعتبارات أخرى أكثر غموضاً سوف تدخل في المفاوضات ومعها تدخل فرصة العدل المنحاز، وهناك مشاهد متعددة لما هو عدل حقيقي في مثل هذه الحالات ويمكنك أن تختار بينها لتلائم مصلحتك الشخصية. وبصورة مغايرة إذا كانت المفاوضات من أجل الحصول على أحسن صفقة لنفسك فالمجال ضيق للتذبذب وفرص العدل المنحاز قليلة جداً لتخلق الطريق المسدود في المفاوضات. عندما تفكر بالمفاوضات على أنها محاولة للانتفاع الشخصي المتبادل يكون من الصعب إقناع نفسك بأن هناك عدم تناسق بينك وبين شريكك في المفاوضات. شخصان اثنان تربطهما مصالح شخصية يتفاوضان من دون وهم حول مصالحهما الشخصية التي لا يمكن إخفاءها. هذا لا يعني أن نتخلى عن الأخلاق الفكرية ونؤيد خدمة المصالح الشخصية ولكن هذا يشير إلى إحدى المخاطر في الأخلاق الفكرية. العدالة المنحازة هي مدمرة بما فيه الكفاية في بعض الحالات من الأفضل ترك الأخلاق جانباً وبكل بساطة محاولة

الحصول على صفقة أحسن. في بعض الحالات نحن نملك قليلاً من الإحساس عما هو عدل فنضطر للانحياز في أحكامنا ونتبنى موقف من نثق بهم في جماعتنا. هذا يحدث خاصةً في حقل القواعد الأخلاقية العامة (سياسة بلد، فتوى دينية) التي غالباً ما يستحيل على المواطن العادي أن يلم بالتفاصيل الضرورية لاتخاذ القرار المدروس لوحده. حُكمنا على ما هو عادل أو غير عادل يعتمد بصورة خطرة على فهمنا للحقائق المتعلقة بالموضوع. خذ على سبيل المثال وجهة نظر الناس حول غزو أميركا للعراق عام ٢٠٠٣. كثير من الذين عارضوا الغزو اندهشوا من الذين أيدوا الغزو. «لماذا العراق؟» هم سألوا. «أسامة بن لادن هاجم أميركا وليس صدام حسين» من أصابتهم الحيرة والدهشة لم يعلموا بأن أكثرية الأمريكان في ذلك الوقت اعتقدوا أن صدام حسين متورط شخصياً بالهجوم على مركز التجارة العالمي في أميركا وأكثر الناس في العالم العربي يعتقدون أن أميركا وإسرائيل وراء ذلك الهجوم لاستخدامه كذريعة لغزو العراق وأفغانستان. لماذا يصعب على الناس فهم الحقائق؟ تفسير واحد ـ هو انحياز بسيط يخدم المصلحة الخاصة. عندما تكون جميع الحقائق غامضة ومشوشة يلجأ الناس لتبني جانب من الحقيقة الذي يخدم مصالحهم أكثر. في هذه الحالات يستفيد الناس من الغموض ليكونوا لهم اعتقاداً يخدم مصالحهم الخاصة. لكن في بعض الأحيان انحيازنا للجماعة يؤدي بنا إلى تكوين اعتقاد يكون أو يبدو متناقضاً مع مصلحتنا الشخصية. المفتاح هو أن ندرك أن مشكلة إيجاد الحقائق هو في الحقيقة مشكلة الجماعة التي ننتمي إليها والتي تحوي في طياتها توتراً مستمراً بين المصلحة الشخصية ومصلحة الجماعة. إنه بالتأكيد الانحياز إلى المصلحة الشخصية للجماعة يدر علينا

مكاسب أكثر لكنه يضر بأخلاقيتنا الشخصية. الأشخاص الذين يمتلكون ثقافة علمية بدل من أن يدافعوا عن الحقائق التي يعرفونها هم بكلّ بساطة يتكيفون ليدافعوا عن موقف الجماعة التي ينتمون إليها وفي بعض الأحيان يزيفون الحقائق العلمية في خدمة مصلحة الجماعة أو الحزب الذي ينتمون إليه. فيصبحون عبيداً ميئوساً منهم يخدمون أخلاقية الجماعة الفاسدة. أي اعتقاد خاطئ تلتزم به الجماعة سوف يترسخ في تقاليدهم ويصبح شعار الشرف للجماعة ـ يصعب تغييره أو تغيير أعضاء الجماعة بالتثقيف. التثقيف هو دعوة بعض الناس للاختيار بين معرفة الحقيقة من خبير خارج الجماعة أو أن يكونوا أعضاء أوفياء لجماعتهم، هم يختارون الانحياز إلى رأي الجماعة. ولاؤنا للجماعة يمكن أن يؤدي إلى اختلافنا في معرفة الحقيقة. الإدراك المنحاز للحقيقة يلعب دوراً مهماً في ازدياد شدة الخلافات بين الجماعات. أخلاقيتنا المنحازة بنيت في نظام أخلاقي نستعمله لفهم أحداث العالم حولنا. نحن أكثر إدراكاً للألم الذي نعاني منه على يد الآخرين من الألم الذي يعاني منه الآخرون على أيدينا. الجهاز العصبي لمجتمعنا، الإعلام، الكلام الذي تتناقله الأفواه كلها تنقل أخباراً عن آلام جماعتنا ولا تنقل أي شيء عن التجارب المؤلمة للآخرين. نحن نبخس تقدير تأثير الألم الذي نسببه للآخرين ونبالغ في تأثير الأشياء الجيدة التي نعملها. نحن في العالم المعاصر نحاول أن نعيش سوياً بالرغم من كلّ اختلافاتنا في القيم الأخلاقية، في الاعتقادات، الديانات، والمصالح.

ما هي المشاكل التي يواجهها العالم المعاصر؟

١ ـ الفقر:

أكثر من مليار شخص يعيشون في فقر مدقع. المشاكل المتعلقة بالفقر تتضمن: **الجوع**، سوء التغذية، انعدام المياه الصالحة للشرب، سوء نظام الصحة العامة، التعرض لملوثات البيئة السامة، انعدام الرعاية الصحية، انعدام فرص العمل، الاضطهاد السياسي واستعباد المرأة.

٢ ـ الاختلافات العنفية:

الاختلافات الدائرة الآن في دارفور في جنوب السودان وفي أفريقيا الوسطى، والعراق وفي سوريا، وفلسطين المحتلة، ودول الربيع العربي (تونس، ليبيا، مصر) التي ذهب ضحيتها الآلاف وتشرد الملايين يعيشون كلاجئين في ظروف اجتماعية مرعبة.

٣ ـ الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل:

رغم أن الحروب بين الدول قد تضاءل، إلاّ أن أسلحة الدمار الشامل يمكن أن تقع بيد مجموعة إرهابية صغيرة لتلحق ضرراً عظيماً في دولة منافسة.

٤ ـ تلوث البيئة والارتفاع الحراري للكرة الأرضية:

الضرر الذي نسبّبه للطبيعة يهدّد حياة السلام والرفاه التي نعيشها.

مشكلة تعريف ما هو عدل يظهر تقريباً في جميع المشاكل العالمية. هل هو عدل لإسرائيل أن تحتل الضفة الغربية وغزة لمعاقبة الفلسطينيين في نهوضهم ضدّ الاحتلال؟ هل هو عدل للفلسطينيين قتل اليهود المدنيين كوسيلة لمناهضة الاحتلال؟ كم هو مدى القوة التي يستعملها كلّ فريق ضدّ الآخر وكم يفوق الحدود؟ هل هو عدل أن تمتلك إسرائيل السلاح النووي

وتمنع إيران من امتلاكه؟ هل هو عدل فرض حصار اقتصادي مؤلم على شعوب أبرياء كوسيلة لاحتواء حاكم مستبد؟ هل هو عدل قتل الآلاف كي نحوّل نظاماً دكتاتورياً إلى نظام ديمقراطي؟ الخبراء في المفاوضات والعلاقات الدولية أشاروا إلى مشكلة العدالة المنحازة في قرارات هيئة الأمم المتحدة. المسؤولون في السلطة يعتقدون أنهم يتصرفون بطريقة أخلاقية صحيحة. لكن لو أردنا تغيير عقولهم فيجب أن نحتكم إلى ما يعتبرونه خيراً أو شرّاً، صحاً أو خطأً. لكن هذا مخالف إلى ما تفعله معظم الحكومات. أولاً: هم يحتكمون إلى أنصارهم في ما يعتبرونه خيراً أو شرّاً، صحاً أو خطأً، محاولين كسب تأييدهم وعزل المعارضة، وهذا يمكن أن ينجح. ولكن المعارضة تصبح صعبة التعامل معها وأقل رغبة للاستماع إلى ما يقوله. طرح قانون أخلاقي على إخواننا الكفار من منبر الحكم بلا شك يسر مشاعرنا باستقامة أخلاقنا. ولكن يربي اعتقادات خاطئة خطرة حول طبيعة العلاقات الخارجية.

الرجل الذي يحول خلافات المصالح الخاصة إلى خلافات الخير والشر بالضرورة يمنح نفسه تفوقاً أخلاقياً. هؤلاء الذين يعتبرون العلاقات الخارجية مبنية على الخير والشر يعتبرون أنفسهم يفهمون أكثر من غيرهم بما هو خير لهم. كلما كُثر إيمانهم بأنفسهم بأنهم صح كثُرت احتمالات رفضهم التسوية الملائمة ويبحثون عن النصر النهائي لمبادئهم. قليلاً ما يكثر الضرر في العلاقات الدولية من الالتزام الشديد بما هو صح أو خير.

مشكلة تعريف العدل نشأت تقريباً في كلّ ميثاق سياسي وطني، نشأت من عدم المساواة الاقتصادية والاجتماعية. البشر مثل جميع الحيوانات نحن

نمتلك دوافع أنانية لكننا على خلاف جميع الحيوانات نمتلك دوافع اجتماعية وأخلاقاً غريزية زرعها فينا الله منذ بدأ الخلق، هذه الأخلاق الغريزية تدفعنا لحل مشكلة أنا ضدّ الجماعة. لسوء الحظ هذه الأخلاق الغريزية والدوافع الأنانية والانحياز اجتمعت مرة ثانية لتعيد خلق المشاكل الأخلاقية الأساسية على مستوى أعلى، على مستوى الجماعات، جماعتنا ضدّ جماعتكم.

دوافعنا الاجتماعية نقلتنا من لهيب نار الخلافات الشخصية إلى لهيب نار الخلافات بين الجماعات. لكن لحسن حظنا عقل الإنسان هو أكثر من أن يكون حزمة من الدوافع الأنانية والدوافع الاجتماعية. نحن نفكر. لأجل رؤية **الأخلاق الفكرية** أثناء عملها وتقييم وجوه الاختلاف بينها وبين **الأخلاق الغريزية** ليس هناك مكان أحسن من البدء بالمعضلات الفلسفية التي تضع العقل ضدّ العواطف في حلبة المصارعة.

الأخلاق الغريزية والأخلاق الفكرية

إذا اعتمدنا مبدأ المنفعة المتبادلة لحل المشاكل داخل الجماعة والمشاكل بين الجماعات فنحن يجب أن نفعل ما ينتج بصورة عامة أكبر النفع لجميع من يهمهم الأمر. يجب أن نفعل ما يعزّز الخير الأكبر. لنفرض أن هناك خمسة أشخاص على وشك الموت بسبب عجز في الكلى، والكبد والقلب ولنفرض أن هناك جرّاحاً مختصاً في زراعة الأعضاء بإمكانه إنقاذ هؤلاء الأشخاص باختطاف شخص غريب، تخديره، إزالة أعضائه المختلفة وتوزيعها بين الأشخاص الخمسة. هذا يبدو ما ينتح الخير الأعظم.

هل تعتقد أنّ هذا الفعل صحيح؟ التضحية بشخص واحد لإنقاذ خمسة أشخاص. هل هذا الفعل مقبول أخلاقياً؟ معظم الناس يقولون إنّه خطأ قتل

شخص واحد لإنقاذ خمسة أشخاص حتى وإن كانت تنتج الخير الأكبر. لماذا هذا خطأ؟ لأنّه يقلّل من قيمة حقوق الإنسان. متى ولماذا حقوق الفرد لها الأسبقيّة على الخير الأكبر؟

جميع المسائل الأخلاقيّة الكبيرة ـ الإجهاض، قتل المدنيّين في الحروب، إرسال الناس للحرب، التقشّف، منع المدنيّين من حمل السلاح، عقوبة الإعدام هذه كلها حقوق الفرد مقابل الخير الأكبر. التضحية بشخص واحد في سبيل الخير الأكبر هو شيء خطأ، هو انتهاك عظيم لحقوق الفرد. **أخلاقنا الغريزية** تقول لنا: قتل شخص واحد لإنقاذ خمسة أشخاص هو خطأ. **وأخلاقنا الفكريّة** تقول لنا: قتل شخص واحد لإنقاذ خمسة أشخاص هو صحيح. أخلاقيّتان مختلفتان ومتنافستان. من يحل الخلاف بينهما؟ ومن يقرّر أنّ هذا الحل أو ذاك الحلّ صح أم خطأ؟. أن تعرف هو ليس ما تشعر به. **العواطف** تقول لا تقتل شخصاً واحداً لإنقاذ خمسة أشخاص ولكن ماذا يجعلنا نقول نعم؟ إنها قابليّة الواعظ لتنظيم وبرمجة **الأفكار** والأفعال لتخدم المصلحة الشخصيّة ومصلحة الجماعة. مناطق مختلفة في دماغ الإنسان تُعرَف بتأثيرها على العواطف، الأميكَدلا (Amygdale) تصبح أكثر فعَالة في مواقف تقتضي اليقظة والاحتراس مثل مواجهة شخص غريب من خارج الجماعة. الأشخاص المصابون بأمراض نفسيّة تقل عندهم فعالية الأميكَدلا (Amygdale) وأدمغتهم خالية من الانفعالات العاطفيّة، عندما يواجهون موقفاً يقتضي اليقظة والاحتراس يقولون نعم لقتل شخص واحد لإنقاذ خمسة أشخاص. هناك دائماً توتر بين حقوق الفرد والخير الأكبر. الأحكام الأخلاقية للطبيب مقابل مسؤولي الصحّة العامة.

هدف الطبيب هو التأكيد على سلامة وصحّة أشخاص معيّنين وواجبه مرتبط بإنقاذ المريض، هو مهتّم بالحقوق الشخصية للفرد. على خلاف مسؤولي الصحّة العامّة، فالمريض بالنسبة لهم هو المجتمع ككل ورسالتهم الأوليّة هي التأكيد على الخير الأكبر. نحن نملك عمليّتين أخلاقيّتين متناقضتين تعمل في دماغ واحد. لكن لماذا هكذا هو دماغنا؟

لماذا نمتلك استجابتين اثنتين منفصلتين، واحدة **تلقائيّة** والأخرى **موجّهة**، للمسائل الأخلاقية؟ هذا يشكل مشكلة لأنّ في بعض الأحيان يكون لدينا جوابان متناقضان. أليس من المعقول أن يكون لدينا شعور أخلاقي موحّد. عواطف أخلاقيّة متنوعة وميول تلقائية تعمل سوياً لتمكن التعاون **داخل الجماعة**؟. هذه الأخلاق الغريزيّة موجودة معنا منذ بداية الخلق فلماذا لا تكون كافية؟ لماذا نحتاج إلى الأخلاق الفكرية؟ في العالم المثالي الخالي من المشاكل، الأخلاق الغريزية هو كلّ ما نحتاجه لكن في عالمنا الحقيقي هناك فوائد لامتلاك عملية مزدوجة في الدماغ. لماذا؟

الأخلاق الغريزية فعّالة جدّاً وتستجيب بصورة تلقائيّة سريعة ولكن ليست مرنة، لا تقبل بحلول بديلة. أما **الأخلاق الفكريّة** فهي مرنة وتتقبّل الحلّ الوسط ولكن لا تستجيب بسرعة.

وجودهم سوية في دماغ واحد من المفروض أن تجني أحسن النتائج لو عرفنا متى نستعمل الواحدة أو الأخرى.

العنكبوت يختلف عن الإنسان، لديه فقط الغرائز وهذه الغرائز تخدمه جيداً في المحيط الذي يعيش فيه. نحن البشر على خلاف ذلك نعيش حياة غاية في التعقيد لهذا نحتاج **العقل**. نحن دائماً نواجه ونذلّل مشاكل غير

مألوفة لنا، كأشخاص أو كجماعات. الجنس البشري توطن في كلّ بقعة على وجه الأرض، شهادة على مرونة أدمغتنا. ضع عنكبوتاً من الغابات الأفريقية في القطب الشمالي وسوف تحصل على عنكبوت متجمّد ميّت. ولكن لو نقلت طفلاً من الأمازون في أميركا الجنوبيّة وهيأت له الرعاية الملائمة، سوف يعيش في الشمال المتجمّد. سلوك الإنسان المرن يتغذّى على ذاته. عندما نكتشف شيئاً جديداً مثل القارب، نحن خلقنا فرصاً أخرى لتطوره، مثل المجاذيف، الشراع، المحرّك، كلما زادت مرونة سلوكنا كلما زادت التغييرات في البيئة التي نعيش فيها. وكلما زادت التغييرات في البيئة التي نعيش فيها كلما زادت فرص النجاح بامتلاكنا المرونة. لذا نحن نحكم الأرض كأبطال السلوك المرن. أعطنا شجرة، يمكن أن نتسلقها، نحرقها، ننحتها، نبيعها، نضمّها إلى صدورنا، أو أن نقدّر عمرها بحسب عدد حلقاتها. الاختيارات التي نقوم بها تعتمد على الفرص الخاصة والتحدّيات التي نواجهها، واختياراتنا ليس بالضرورة هي اختيارات مشابهة إلى أفعال قمنا نحن بها أو الآخرون في الماضي. نجاحنا يعتمد على كلّ من فعالية الأخلاق الغريزية ومرونة الأخلاق الفكرية.

العواطف هي عملية غريزية تنتج سلوكاً ملائماً من دون الحاجة إلى وعي فكري لما يجب عمله. ليس جميع العمليات الغريزية هي عواطف، أشياء كثيرة هي غريزية مثل تقلّص العضلات عند الحركة، التنفس، نبض القلب، عمليّة الهضم، السمع.. الخ.

العواطف لها تأثير على السلوك، هي عملية تلقائية تقول لنا ما يجب فعله. وما تقوله لنا يختلف في مستوى الخصوصيّة. **التفكير** ليس له نهاية

هو يحرّرنا من طغيان وسيطرة الحوافز الفورية، بالسماح لنا خدمة قيم أخلاقية لا تثيرها الغرائز بما هو أمامنا، وفي الوقت نفسه الفكر لا يمكن أن ينتج قرارات جيدة من دون تدخل نوع من العواطف بصورة غير مباشرة. العملية الأخلاقية المزدوجة في الدماغ تكشف تركيبها في قرارات اعتيادية متعددة. مثلاً هل أعمل هذا الآن أو فيما بعد، هل آكل فاكهة أم الشوكولاته؟ أنا أفضّل أكل الشوكولاته الآن والفاكهة فيما بعد. هناك جهازان مختلفان يعملان في الدماغ. جهاز غريزي فوري وجهاز منضبط متأنٍ يأخذ بعين الاعتبار جميع الاحتمالات من ضمنها الكسب الحاضر وبالمستقبل. لكن الجهاز الغريزي يهتم فقط بما يمكن كسبه الآن. الفكر ينشغل في أعمال كثيرة وهو بطيء في اتّخاذ القرارات. الاستجابات الغريزية تتحقق بسرعة. في عالم المنافسة إذا وقف الكائن الحي ليفكر بصورة واضحة ما يأكله فإنه سوف تفوته وجبة الغذاء. العملية الأخلاقية المزدوجة في الدماغ لم تصمم فقط لتصدر أحكاماً أخلاقية لكن أيضاً تصدر أحكاماً في الخيارات التي نقوم بها حول الطعام، المال، والمواقف التي نريد تغييرها. بالنسبة لمعظم الأشياء التي نعملها، دماغنا يمتلك غرائز ترشدنا تلقائياً لما يجب عمله. لكن يمكننا أن نستعمل الفكر لكي يلغي الغرائز التلقائية وهذا يعتمد على علمنا بفرصة عمل هذا الشيء وتهيّئنا لاستعمال تلك الفرص. نحن بحاجة إلى نظام العواطف الغريزية وكذلك إلى النظام الفكري ونحتاجهم لأشياء مختلفة. الغرائز تعمل بصورة جيدة في مواقف متوقعة مبنيّة على دروس تعلمناها من تجربة سابقة. هذه التجربة تأتي في أشكال ثلاثة مبنيّة على ثلاث تجارب مختلفة:

الأولى: النظام الغريزي ربما صيغ في جيناتنا الوراثيّة. هنا تصميم

أدمغتنا تضمن دروساً حياتية مرّت على أجدادنا القدماء جداً، هؤلاء الذين جيناتهم لم تصل إلى أجسامنا.

الثانية: النظام الغريزي ربما صاغته **التقاليد والقيم الاجتماعية** من خلال التجربة والخطأ.

ثالثاً: هناك تجربة قديمة جداً ومؤلمة مرّت علينا عندما كنّا أطفالاً، تعلّمنا عدم لمس النار.

غرائزنا ليس من الضروري أن تكون فطريّة مثل العنكبوت، لكنّها لأجل أن تكون مفيدة لنا يجب أن تعكس الدروس التي تعلمناها من تجارب شخص ما كأن يكون هذا الشخص **أنت**، أجدادنا القدماء الذين تربطنا بهم رابطة الدم أو أجدادنا في التراث والتقاليد.

نظام الدماغ قابليّته على التفكير الموجّه تختلف أساساً عن نظام الغرائز. في الحقيقة وظيفة التفكير الموجّه هو إيجاد الحلول الدقيقة للمشاكل التي تصعب على الغرائز حلّها. خذ على سبيل المثال مشكلة تعلّم السواقة. إنه واضح أنّ ليس لدينا جينات وراثيّة تنقل لنا غريزة السواقة. تعلّم السواقة يتطلّب أولاً جهداً فكرياً موجّهاً ثمّ بعد ذلك تصبح خبرة السواقة والحركات غريزيّة. أن تكون ذكياً يتطلّب ثلاثة أشياء:

الأول: يتطلّب امتلاك الغريزة.

ثانياً: يتطلّب التفكير الموجّه.

ثالثاً: يتطلب خبرة فكريّة كونية.

يجب أن نقرر بأنفسنا ونفهم كيف تعمل أدمغتنا ربما يساعدنا أن نقرّر

بحكمة كأفراد وكجماعات كيف نعيش سويّةً في هذا العالم بسلام وسعادة وحب.

الحلول العامّة:

كيف يمكن للجماعات أن تحل خلافاتها؟ كيف يمكن تفادي مأساة اختلاف الأخلاقيات؟ هذه هي المشكلة التي نحاول حلّها والآن نحن مستعدّون للبدء بالتفكير بالحلول.

الحلّ الفلسفي:

البرجوازيّة تقول أن تكون إنساناً جيداً هو أن تكون إنساناً مسؤولاً عن أفعالك، أن تفي بوعودك، أن تحترم الملكيّة الخاصّة للآخرين، ولا أكثر من ذلك. **الاشتراكية** تقول أن تكون إنساناً جيداً هو أن تعمل أكثر من ذلك.

المجتمع العادل هو مجتمع يشترك الجميع بصورة متساوية في نَفْعِه وضَرَره. لكن الجماعات لديها اختلافات أخرى، على سبيل المثال مسائل الشرف، حول من بدأ بالاعتداء، أو من ضربَته كانت أقوى، من كلامه لا يخطئ أو من يمثل الحق، من يستحق ولاءنا، من يستحق غفراننا، وأي الأعمال بغيضة عند الله. آخذين بعين الاعتبار تلك الرؤيا المتناقضة لمفهوم الحياة الأخلاقية، كيف يمكن للجماعات أن تعيش بسلام؟ هناك جواب واحد هو أن **ليس هناك جواب صحيح**. بعض الجماعات تعمل بطريقة والجماعات الأخرى تعمل بطريقة مختلفة وهذا كلّ ما نريد قوله. هذا الجواب المشهور يتبنّاه فلاسفة الأخلاق النسبيّة. لكن هذا الجواب من

الناحية العملية هو ليس بالجواب. فلاسفة الأخلاق النسبية ربما يكونون صحاً في بعض المسائل المهمّة. هم يقولون ليس هناك حقيقة أخلاقية مطلقة. لكن يجب أن لا نهرب من الخيارات الأخلاقية. إذا لجأنا إلى الفلسفة النسبية التي ليس لديها حل مقنع، إذاً أين الجواب؟

هناك أفكار طبيعية، ربما ندع الجماعات تعمل ما هو خير للجميع فإذا كان النظام البرجوازي يعمل أفضل من النظام الاشتراكي فلنتمسّك بالنظام البرجوازي وأخلاقيّته. وإذا كانت الاشتراكية تعمل أحسن من النظام البرجوازي فلنتبن النظام الاشتراكي كنظام عالمي. إذا كان مبدأ الاحترام والتكريم الصارم يبقي على السلام بين الجماعات إذاً لنتبن ثقافة مبنيّة على الاحترام والتكريم.

وإذا ثقافة الاحترام والتكريم قادت إلى عداء غير منتهٍ بين الجماعات فلنترك هذه الثقافة وهكذا. أنا أعتقد أنّ فكرة عمل ما هو خير للجميع هي فكرة عظيمة وسوف نحاول تطوير هذه الفكرة والدفاع عنها. إذا سَأَلْتَ الجماعة **البرجوازية** ما رأيكم بهذه الفكرة «**عمل ما هو خير للجميع**» تقريباً الجميع سوف يتفقون على أنّها فكرة عظيمة. سوف يقولون إنّهم يفضّلون العمل في نظام رأسمالي. وإذا سَأَلْتَ الجماعة **الاشتراكية** عن رأيهم سوف يقولون إنّها فكرية عظيمة ويفضّلون العمل في نظام اشتراكي.

الرأسمالية والاشتراكية تتفقان على قيم أخلاقية أساسيّة واحدة هي كلاهما يريدان أن يعملا ما هو خير للجميع. اختلافهما فقط في حقيقة ما هو خير للجميع. لو سألنا الجماعة البرجوازية هل تتبنون النظام الاشتراكي كنظام عالمي؟ هم أجابوا بالنفي. هم يقولون إنّ الاشتراكية تؤدي إلى

الخراب، إنّ شعوبهم كسولة يريدون من الحكومة أن توفّر لهم كلّ شيء، هم سذّج لا يفهمون كيف يعمل العالم؟ أدمغتهم مغسولة بالدعاية الاشتراكية الفاسدة. شعوبهم الكسولة والغبيّة تطلب نصيبهم من الحكومة، هم فشلوا بالحصول عليه بأنفسهم بسبب كسلهم وغبائهم.

المجتمع لا يقاس بمجموع الفوائد التي تتصدّق بها الحكومة على شعوبها ولكن بتعهده بالعدالة. والاشتراكية هي ليست عادلة، تعاقب أحسن الناس وتكافئ أسوأهم.

وسألنا الجماعة الاشتراكية هل تتبنون النظام الرأسمالي كنظام عالمي؟ هم أجابوا بالنفي. قالوا الجميع يعلم أنّ مجتمعاً مبنياً على الطمع الشخصي ينتهي بالخراب، الرأسمالية تنتج بؤساً وشقاءً واسع النطاق، هو نظام فلسفي فاسد. مجتمع وجد على مبدأ الطمع هو مجتمع لا أخلاقي بالفطرة، وليس هناك كمية من الثراء تكفي لتشتري أخلاقاً وحباً وشفقة وأخوّة الشعوب الاشتراكية النبيلة.

الجماعة الرأسمالية والجماعة الاشتراكية هم يؤمنون ما يؤمنون به لأنّهم عاشوا كلّ حياتهم مغمورين كلّ في ثقافة وأخلاقية جماعته. أخلاقهم الغريزية مبرمجة لتخدم طريقة حياتهم كنظام لتفادي مأساة الجماعة الأخلاقية. الاشتراكية هي دائماً خطأ في نظر الرأسمالية. والرأسمالية هي دائماً خطأ في نظر الاشتراكية بغضّ النظر عن الحقيقة. كلا الجانبين يؤمنان بحقّ أن طريقة حياتهما تنتج أحسن النتائج.

مبدأ المنفعة المتبادلة

نحن الجماعات يجب أن نقيس نجاحنا من واجهة الإنتاج الاقتصادي

ـ ما هو خير للجميع هو كميّة الخيرات التي تنتجها كلّ جماعة، وهذا سوف يبسّط حساباتنا الأخلاقية، لأنّ الثراء المادي هو سهل القياس. لكن هل هذا الإنتاج الاقتصادي هو الهدف من حياتنا؟ يمكن أن نتصوّر مجتمعاً ذا إنتاجيّة اقتصادية عالية لكن كلّ فرد يعيش بائساً. هل هذا مجتمع جيد؟ ما هو مهم في الحياة؟ ماذا نريد من الإنتاج الاقتصادي؟. إذا كنّا جميعاً بؤساء فما فائدة الرخاء الاقتصادي؟ لكن إذا كنّا سعداء فليس مهماً إن كنّا أغنياء أو فقراء. إذاً ما هو مهم في الحياة **أن نكون سعداء**. عندما نُقَيِّم قانوناً أخلاقياً وسلوكاً اجتماعياً نحن نسأل هل هذا القانون أو السلوك يزيد أو يقلّل السعادة؟ لكن سعادة من نحن نتكلم عنها؟ هل السعادة تعني أشياء مختلفة لأناس مختلفين؟ كيف يمكن لأيّ فرد أن يقيس السعادة؟ ومن يقرّر ما هي السعادة وكيف يمكن زيادتها؟ أليست فكرة السعادة القصوى هي فكرة خياليّة. ماذا نعني بالسعادة؟ ماذا يتصوّر كلّ واحد منّا عندما نفكّر بالسعادة؟. السعادة هي الأشياء المسؤولة بصورة مباشرة عن وضع الابتسامة على وجوهنا، هي رفع البؤس عن الناس. السعادة هي مبدأ أخلاقي يشمل جميع البشرية. ولكي نطبّقه على الجماعات المتنازعة لنبدأ بالمجتمع البرجوازي هم يقولون: عالم فيه كلّ فرد يأخذ ما يحتاجه بغضّ النظر عما يفعله (مبدأ شيوعي: من كلّ حسب قدرته ولكل حسب حاجته) هو عالم مثالي، الناس فيه تمتلك قليلاً من الحوافز لعمل أي شيء لكن الطريقة للحصول على السعادة القصوى هو ليس الحكم على كلّ شخص أن يكون له قسط متساوٍ من السعادة. لكن يحثّ الناس على التصرّف بطريقة يحصلون بموجبها على السعادة القصوى. عندما نقيس النجاح فإننا نقيس سعادة كلّ فرد بصورة متساوية، لكن الحصول على النجاح يقابله

الفشل وهذا يتضمّن عدم التساوي في المال والسعادة. عدم التساوي هو ليس شيئاً مثالياً، ولكن يمكن تبريره على أرضيّة من دونه فإنّ الأمور تكون سيّئة للجميع.

سعادة من؟ أي مفهوم للسعادة يجب أن يسود؟ السعادة بالنسبة لي هي قراءة الكتب الفقهية، بالنسبة لك ربّما ممارسة الجنس، أو أكل الشوكولاته. سعادة من؟ السعادة هي أشياء مختلفة لأناس مختلفين، هي ليست واحدة للجميع، كيف نقارن سعادة شخص ما مع سعادة شخص آخر في ظروف متشابهة. بعض الأشخاص يفقدون عملهم هم يقولون هذه قسمة الله ويكونون مقتنعين وراضين. وبعض الأشخاص يرون الجحيم بأعينهم عندما مرتّبهم أو دخلهم السنوي ينخفض من (٢٢٠،٠٠٠) إلى (٢٠٠،٠٠٠)$. أي سياسة تزيد السعادة؟ وأيّ سياسة تقلّل سعادتنا؟

فكرتنا الرائعة هي أن تضع جميع الجماعات المتنازعة أفكارها ومعتقداتها ودياناتها جانباً وأن لا تكون طرفاً في المفاوضات وبدل ذلك تفكّر بالكسب العظيم، الكسب الأكبر، تفكّر بالشيء الذي يضاعف سعادتهم. لأجل أن نحصل على أعلى درجة من السعادة هذا يتطلب، وضع انحيازاتنا جانباً. وبدل ذلك جَمع وتقييم الأدلّة حول كيف سياسات ودساتير دول مختلفة في العالم جُرِّبت وكانت عادلة وشعوبهم كانت سعيدة؟. اختيار شخص يقوم بهذا القرار هو شيء صعب. وصانع القرار يجب أن يأتي بنتائج جيدة. مبدئياً هو يمكن أن يكون واحداً أُنيطت به مهمة صناعة القرارات جميعاً، كأن يكون فيلسوفاً أو نبيّاً أو إماماً أو سياسياً يدّعي أنّه جاء لخدمة الخير العام. لكن كلّ ما تعلمناه من التأريخ ومن

طبيعة الإنسان كإنسان يوحي لنا بأنّ السير وراء هؤلاء الأشخاص هي فكرة سيئة. بدل ذلك أن يكون هناك تمثيل ديمقراطي للجماعات، مجلس شورى. ما يهمّ الجماعات هو سعادة كلّ جماعة بالتساوي. ولا سعادة جماعة هي أكثر أهميّة من سعادة جماعة أخرى.

الدين هو مصدر الأخلاق

بالنسبة لمعظم الناس هناك مصدر واحد للقواعد الأخلاقية العامّة ـ هو الله. لكن هناك مشكلتين رئيسيّتين متعلقتان بالاستغاثة بالسلطة الأخلاقية للإله الدكتاتور، واحدة تخص سعة سلطته والثانية تخص الإرادة الإلهية. هل الشرّ أصبح شرّاً لأنّ الله حرّمه، أو الله حرّمه لأنّه شرّ؟ الزنا شرّ، الله عَرَّفَهُ كذا ونحن نعتقد أنّه شرّ. لكن هل من الممكن أن يقول الله شيئاً آخر؟ هل الله يمتلك السلطة لأن يقول الزنا مقبول وهو خير؟ الجواب طبعاً لا. فما نقوله هو أنّ الله ليس لديه السلطة لصياغة القواعد الأخلاقية. وعلينا أن نبحث عن لماذا بعض الأعمال تكون خيراً وبعضها شرّاً وبعضها صحّاً والآخر خطأً؟ أما إذا كان جوابنا نعم إنّ الله له سلطة لأن يجعل عمل أي شيء صحّاً أو خطأً لأنّه جبار عظيم وما يأمر به يكون واجباً علينا تنفيذه. لكن وفق أي معيار تكون إرادة الله وأحكامه الاعتباطية أخلاقية؟ إنه من السهل علينا أن نعتقد أنّ الأخلاق هي منفصلة ومستقلّة عن الإرادة الإلهية. لكن عن أيّ إله نحن نتكلم؟ الإله الدكتاتور الجبّار العظيم والرحمن الرحيم أم الله الكلّي الوجود؟ إلهنا هو إله كلّي الوجود والأخلاق هي إرادة الله. عندما الله الكلي الوجود رفض الزنا واعتبره شرّاً هو بكلّ بساطة انعكاس لجوهر كمال إرادته الأبدية المتمثّلة بجوهر وإرادة الإنسان الكامل. اللجوء

إلى الكتب والتشريعات الدينية المنزّلة من إله دكتاتور هو غير كافٍ لإثبات الحقيقة الأخلاقية حتى داخل تقاليد الدين الواحد. تقاليد الأديان تتنافس حول سلطة الكتب المقدّسة. إذا أردنا أن نجد الحقيقة الأخلاقية في الكتب المقدّسة يجب أن نقرّر أي تفسير لأي نص في أي كتاب من أيّ دين يمثّل السلطة الحقيقيّة. وأنّ الناس غير المتديّنين هم سوف لا يتفقون على أيّ كتاب مقدّس أو سورة أو تفسير يمثل السلطة. الاستغاثة بالكتب المقدّسة لن تحل النزاعات بين الجماعات بل يزيد عدم التوافق الأخلاقي. إله دكتاتور لا يصلح لأن يكون نموذجاً للأخلاق العامّة. الديانات العالمية تشترك في قبولها مبادئ أخلاقية عامّة: لا تكذب، لا تقتل، لا تسرق، لا تزن، ارحم جارك، لا تفضّل نفسك على الغير. هذه المبادئ الدينية تمكّننا من التعاون ولَمّ شمل الجماعة. فهي تتفادى مأساة الجماعة بأن تضع الجماعة قبل المصلحة الشخصية للفرد. لكن الديانات لا يمكنها تفادي مأساة خلافات الجماعات الأخلاقية. هم على العكس يعقّدون بدلاً من أن يسهّلوا الخلافات بين قيمنا الأخلاقية وقيمهم الأخلاقية. لأجل إيجاد الأخلاق العامّة يجب علينا البحث في مكان آخر. إذا لم يكن الدين مصدر الأخلاق فأين نبحث عن الأخلاق؟

العقل هو مصدر الأخلاق

هل بالإمكان فهم الأخلاق كمعادلة حسابية؟ هل يمكن اعتبار الحقائق الأخلاقية حقائق نظرية يمكن الوصول إليها بالتفكير المجرّد، تماماً كما يتوصل علماء الرياضيات إلى حلّ حقائق رياضية. الكذب هو إثم والسرقة هي إثم. يمكن استنتاجها مبدئياً بواسطة التفكير العلمي الخالص. كثير من

الناس لديهم موقف فكري صلب عندما يصرّون أن نظريتهم الأخلاقية تجاه مسألة معيّنة هي تختلف عن نظرة الجماعات الأخرى، مستندين في ذلك على حكمة عقولهم. كثير من الناس يعلنون أو يضمرون باطنياً في أقوالهم أنّ الجماعات الأخرى تحمل مفاهيم لا يمكن للعقل أن يقبلها. ماذا يستلزم من الأخلاق لكي يقبلها العقل؟ لنأخذ مسألة الإجهاض: هل حقّ الجنين في الحياة أكثر أهميّة من حقّ الأم في الاختيار بين (الإجهاض أو عدم الإجهاض)؟. لا يمكن حلّ هذه المسألة بالاستغاثة بالعقيدة الدينية (أي عقيدة دينية؟ وأي تفسير؟) جماعة تقول: الجنين له الحق المطلق في الحياة. جماعة ثانية تقول: الأم لها الحق المطلق في الاختيار. ماذا سوف يحسم هذا النزاع؟ ما لا يحسمه النزاع هو التفكير العملي الخالص لأنّ الأخلاق هي ليست رياضيات. التفكير لا يمكن أن يقول لنا أيّ الحقوق هي أصلح من الأخرى، حقّ الجنين أم حقّ الأم؟ التفكير الخالص لا يجيب على أسئلتنا. التفكير الأخلاقي لا يمكن أن يقول لك كيف تفكّر بموضوع الإجهاض كما يقول لك الفكر الرياضي كيف تفكر في ٥ + ٥ = ١٠؟

التفكير يمكن أن يجعل آراءنا الأخلاقية أكثر ثباتاً في داخل أنفسنا وكذلك بين الجماعات. لكن الفكر لوحده لا يقول لنا كيف نقايض بين القيم المتضادة للجماعات الأخلاقية المختلفة، ولا يقول لنا أيّ الحقوق نملك أو كيف الحقوق المتنافسة للناس أحدها أرجح من الآخر؟

فإذا لم يكن العقل هو مصدر الأخلاق فأين نبحث عن الأخلاق؟.

العلم هو مصدر الأخلاق

إذا لم يكن الدين ولا الفلسفة ولا الفكر الخالص قابلاً على حسم

النزاعات الأخلاقية إذاً يجب أن نستشير مصدرنا المفضّل للحقائق غير المنحازة: العلم.

ربّما العلم يمكن أن يجهزنا بأخلاق منطقية هي ليست واضحة لنا لكن تبقى واضحة، مدعومة بالأشياء التي نكتشفها عن أنفسنا وعن العالم حولنا.

الأخلاق هي منظومة من التأقلم السايكولوجي التي تسمح للشخص الأناني أن يجني ثمار تعاونه ضمن الجماعة. هل فهمنا لوظيفة الأخلاق الطبيعية يساعدنا على فهم حقيقة الأخلاق؟ إذا كانت وظيفة الأخلاق هي تعزيز التعاون، إذاً لماذا لا يمكن أن نقول إنّ حقيقة الأخلاق هي الأخلاق العامة التي تعزّز التعاون؟ إنها فكرة مثيرة لكن فيها مشاكل خطيرة. إذا تأكدنا من صحة الأخلاق فإنها تتطور لتعزز التعاون لكن هذا ليس كلّ شيء، مرّة ثانية الأخلاق تطورت من الناحية البيولوجية لكي تعزّز التعاون داخل الجماعة لأجل أن تزيد المنافسة بين الجماعات. البحث في نظرية التطور عن حلّ لمشكلة حقيقة الأخلاق لا تبدو فكرة جيدة. فإذا لم يكن العلم هو مصدر الأخلاق فأين نبحث عن الأخلاق؟

الضمير هو مصدر الأخلاق

العنف بصورة عامّة هو شيء خطأ، لذا إنّه شيء جيد أن نملك في دماغنا الضمير الذي يصرخ بصوت عالٍ عندما نعتزم استعمال العنف لتحقيق غاياتنا. من دون الضمير فجميعنا نُصاب بالأمراض النفسيّة. هذا الإنذار بالخطر ينبهنا أيضاً عندما يطغى علينا الغرور بالنفس والانحياز. حتى وإن اعتزمت استعمال العنف بقصد كسب الخير الأكبر فإنّ جرس

الإنذار يقول لك: احترس لأنّك تلعب بالنار. هذا صوت جيد يمتلكه الإنسان في رأسه. لكن لا تجعل من هذا الضمير نظاماً مطلقاً للأخلاق. الضمير ينقصه قابلية التفكير لتَتَبع سلسلة الأحداث. هناك أسباب كثيرة جيدة نكون فيها سعداء لامتلاكنا الضمير، لكن لا يمكننا أن نجعل من هذا الضمير يقرر فلسفتنا الأخلاقية. الضمير له تأثير مباشر على موقفنا من: حكم الإعدام، التعذيب والحرب. في جميع هذه الحالات اسْتُعْمِلَ العنف بقصد الخير الأكبر ونحن يمكن أن نرفض هذه الأفعال ليس لأنّنا أخذنا بعين الاعتبار جميع المواقف الأخلاقية لكن بسبب إحساسنا بالألم الذي تسببه. إنّه شيء جيد أن ضميرنا ينبهنا عندما نستعمل العنف. لكن هذا الضمير ليس لديه الحكمة المطلقة. هو لا يفرّق بين قتل شخص دفاعاً عن النفس أو قتل شخص لإنقاذ مليون إنسان. الضمير يقف ضدّ القتل. فمن الخطأ أن نستسلم للضمير في بحثنا عن الفلسفة الأخلاقية العالمية. إذا لم يكن الضمير هو مصدر الأخلاق فأين نبحث عن الأخلاق؟.

العدالة هي مصدر الأخلاق

أدمغتنا هي ليست مصمّمة للاهتمام كثيراً بسعادة الغرباء. في الحقيقة أدمغتنا ربما حتى هي مصمّمة لأن تكون لا مبالية وحقودة على الغرباء. حياتك هي نموذج للآخرين خاصةً لأطفالك. إذا تحسنت حياة مئات الناس كلّ سنة من خلال تبرعاتك الخيرية، الخمس والزكاة، ومستوى حياتك باقٍ كما هو ولم يتأثر بسخائك وأنت تعيش بسعادة وراحة، إنك تكون مثالاً يقتدي به الناس. تعزيز ثقافة حب الغير ربما في المدى البعيد يجني أكثر خيراً. قابليتنا للشفقة تساعد على التعاون بين الأفراد داخل

الجماعة. إنه ممكن لو ساعدنا أفراد جماعات أخرى فهم سوف ينهضون لمساعدتنا لو احتجنا لذلك. قابليتنا للشفقة هي جوهر الصفات الأخلاقية لدماغنا. لكن من الغباء أن ندع غريزة الشفقة غير المرنة في عملها أن تخدم كأساس للمبادئ الأخلاقية. الإنسان تطور لأن يعيش حياة اجتماعية مع الناس وإذا كان هدفنا سعادة العالم فيجب أن نأخذ هذا التعريف لطبيعة الإنسان في الحسبان. إذا انسحبنا بعيداً عن القيم البشرية ونظرنا إليها نراها غير مثالية حتى وإن استمرّينا في اعتناقها. من دون التهديد بالعقاب، الناس لا تتصرف بلياقة. الآخرون يقولون: العقاب هو ليس ولا يجب أن يكون الدافع للتصرف اللائق. هم يقولون نحن نعاقب المعتدي لأنّه يستحق العقاب بغضّ النظر عن الفائدة العملية للعقاب. هذه الطريقة للعقاب تسمّى الجزاء هي مفضّلة لدى ممثلي السلطات القانونية والأخلاقية.

الجزاء في عالمنا، القوم الصالحون يكافؤون والقوم الظالمون يعاقبون. لكن العالم المثالي الذي فيه الأخلاقية العامّة هي الحكم، يتمتع الجميع بالسعادة القصوى من ضمنهم القوم الضالون. جزاء القوم الضالّين هو إرسالهم إلى مناطق ترفيه وتسلية بعيدة حتى لا يعتدوا على أحد وتصلح نفوسهم. نحن نكافئ المذنب بدل معاقبته. إرسال المذنب إلى السجون سوف يقوّي فيه روح الجريمة ويزيده خبرة بعد اختلاطه بالمجرمين الآخرين في السجن.

شعورنا الغريزي بالعدالة هو ميكانيكي وغير مرن، مفيد جداً لكنه ليس بعيداً عن الخطأ. نحن البشر نحب أن نُعاقِبْ. هذا الحسّ هو مشابه لجميع الحواس الأخرى. هو دقيق ومعقّد، صيغ بخليط معقّد من الجينات

الوراثية، العادات والتقاليد (العين بالعين ـ والسن بالسن) وعوامل مميزة خاصة. لكن تذوّق العقاب هو يبقى تذوّقاً ووسيلة الأخلاق الغريزية فهو محدّد بعدم مرونته. شعورنا الغريزي بالعدالة هو مفيد جداً ولا وجود لنا من دونه. العقاب يعزّز التعاون، يشجّع الناس على التصدّق بطريقة مفيدة للجماعة بدلاً من أن تكون مفيدة للفرد. (قال الفيلسوف نيتشه: العقاب هو أم الأخلاق). نحن بطبيعتنا نعاقب لأنّ العقاب يخدم وظيفة المجتمع. نحن نعاقب المعتدين لأنه لو انعدم تهديد العقاب فالناس تتصرف بطريقة غير لائقة. وهذا تفسير عقلاني لأنّنا استخدمنا هنا الأخلاق الفكريّة.

نحن نلجأ إلى العقاب بسبب شعورنا بالغضب والاشمئزاز الخ. هذه المشاعر سببها العدوان وليس الناس التي ارتكبت هذا العدوان، إذاً العقاب هو ليس لمنع العدوان المتوقّع في المستقبل. عندما الناس تقرّر عقاب المعتدي هم يميلون إلى نسيان العوامل الخاصة المتعلقة بالمنع، بدل ذلك هم يعاقبون معتمدين بصورة رئيسية على ما يشعرون به تجاه العدوان.

الحل العملي للأخلاق

نحن جميعاً نسعى للحصول على ما هو نافع لنا. نحن نحتاج معياراً أخلاقياً مشتركاً أخلاقية عامة الأخلاقية العامّة تتطلب من كلّ جماعة أن تقدّم بعض التنازلات. وأن تبحث عن قيم مشتركة. تعريف القيم المشتركة هو أصعب مما يبدو، لأنّ الاختلافات الأخلاقية يمكن أن تختبئ وراء القيم الأخلاقية المشتركة مثل الحرية، العدالة، الحياة، المساواة، حقوق المرأة، العائلة. ما هي إذاً الأرضيّة الأخلاقية المشتركة التي تجمع بين الجماعات المتنازعة؟ الأخلاق قبل كلّ شيء يجب أن تكون نزيهة لأنّ

ليس هناك أخلاق من دون نزاهة، أن تعطي حصّة متساوية من السعادة لكلّ فرد. نحن نبحث عن أخلاقية عامة مستندين على قيم أخلاقية مشتركة. القيم المشتركة لا يجب أن تكون عالمية بصورة كاملة. فقط أن يكون لها استعمال واسع يشترك فيها أعضاء الجماعات المختلفة الذين نأمل حلّ اختلافاتهم باللجوء إلى مقياس أخلاقي عام. إذا أنت أناني إلى درجة لا تتمكن من رفع إصبع لإنقاذ حياة إنسان آخر، إذاً أنت لست جزءاً من هذه المناقشة، ولا جزءاً من الجماعة التي تحاول إيجاد تسوية بين الجماعات المتنازعة. نحن نفضّل أن نرى الآخرين سعداء وسعادتهم تزداد. إذا التزمنا جميعاً بزيادة سعادة الآخرين فإنّ لهذا مضموناً أخلاقياً عميقاً.

إنّه يعني أنّ لدينا أرضيّة أخلاقية عامّة حقيقيّة. التزامنا بالحصول على أقصى السعادة هو شيء تتّفق عليه الجماعات، نحن جميعاً سعداء للحصول على السعادة القصوى ما دام ذلك لا يتعارض مع شيء آخر يهمّنا. الحصول على السعادة القصوى هي واحدة من مكونات الأخلاق العامّة الأساسية التي تتفق عليها الجماعات. والآن ننظر إلى **النزاهة**: عندما لا يكون هناك اختلال في موازين القوى بين الجماعات تكون هناك عدالة ونزاهة. لكن الناس هم ليسوا نزيهين بالفطرة. الناس يهمّها بالمرتبة الأولى أنفسهم، عائلتهم، أصدقاءهم، وأعضاء جماعتهم. معظم الناس لا يهمّها أمر شخص غريب. ولكن في الوقت نفسه الناس تفكر أنّ الشخص الآخر هو مثلي يهمّه أمر ذاته، عائلته، أصدقاؤه، وأعضاء جماعته. هذا التفكير يحدث قفزة فكريّة مفادها هو: أنا أحب نفسي والآخرون يحبّون أنفسهم بالمقدار نفسه، لذا ما يهمّني هو ليس أكثر أهميّة ممّا يهم الآخرين، وهذا الشعور يُتَرجم في الدماغ إلى نزاهة. وهذه الترجمة لها علاقة بالشفقة التي

هي أخلاقية غريزية فيها الإنسان يتحسّس ويهتم بآلام الآخرين. شعور بالشفقة تحوّل إلى دافع نظري مثالي. الأخلاق الفكرية للإنسان بطبيعتها هي نظام استنتاجي يقيس الفائدة والخسارة في النتائج النهائيّة لأيّ مشكلة.

معظم الناس يهمّهم المال. لكن ما فائدة المال؟ المال يسمح لك بشراء ما تحتاج. لكن لماذا تحتاج هذه الأشياء؟ لأنّها تسعدني. وهذا الشيء هو غريزي عالمي. أمّا النزاهة فهي تأتي من إدراك فكري، أن تكون نزيهاً وعادلاً هي أخلاق مثالية. نحن يجب أن نجد فلسفة أخلاقية بعيدة عن الأخلاق الغريزية بعيدة عن قيود الطبيعة والتأريخ والثقافة والعادات الاجتماعيَة واللجوء إلى الدماغ بصورة كاملة كنظام خاص لحلّ المشاكل. الأخلاق الفكرية لا تأتي بفلسفة أخلاقية لكن يمكن أن تجد واحدة إذا زرعنا فيها قيمتين أخلاقيتين عالميتين هما **السعادة والنزاهة**. نحن جميعاً نريد أن نكون سعداء. لا أحد منّا يريد أن يعاني. واهتمامنا بالسعادة، والشقاء هو تقريباً خلفيّة كلّ شيء نُقَيّمه. إذا حققنا جوهر القاعدة الذهبية في مبدأ السعادة والشقاء تصبح: **سعادتك وشقاؤك هي ليست أكثر أو أقل من سعادة وشقاء الآخرين**. تصبح هذه لغة أخلاقية ثانية يتكلم بها كلّ أعضاء الجماعات. نحن جميعاً نملك أخلاقيّة فكرية مرنة يمكن أن نستعملها للوصول إلى اتفاق برؤوسنا على الرغم من الاختلافات المتضادة في قلوبنا. **هذا هو جوهر الحلّ الأخلاقي العملي الذي يقيم جسراً عبر الفجوة التي تفصل بيننا وبينهم**. الأخلاق العملية تحتاج فلسفة أخلاقية متماسكة وواضحة ترشدنا عندما يتعذّر علينا الثقة بأخلاقنا الغريزية. نموذج أخلاقي واضح يرشدنا عندما لا نستطيع أن نثق بمؤشر انفعالاتنا. يجب أن نضع ردود أفعالنا الغريزية جانباً ونلجأ إلى الاعتماد على العقل أكثر. وهذا

يعتمد طبعاً على نوع المشكلة التي نواجهها. نحن نواجه في حياتنا اليومية نوعين أساسيّين مختلفين من المشاكل الأخلاقية:

الأولى: أنا ضدّ الجماعة:

هذه هي المشكلة الأساسية للتعاون داخل الجماعة. هذه المشكلة يمكن حلّها بالاعتماد على الأخلاق الغريزية (الضمير). الشعور بالشفقة، الحب، الصداقة، عرفان الجميل، الشرف، العار، الشعور بالذنب، الولاء، التواضع، الخشية، الخجل، يدفعنا في بعض الأحيان أن نضع مصلحة الجماعة قبل مصلحتنا الخاصة.

بطريقة مماثلة الشعور بالغضب والاشمئزاز يدفعنا إلى تجنّب أو معاقبة الناس الذين يفضلّون مصلحتهم الشخصية على المصلحة العامّة. شكراً للأخلاق الغريزية فنحن أقل كذباً وخداعاً وسرقةً وقتلاً. ضميرنا مكّننا من أن نتعايش وننجح في الحياة داخل الجماعة.

الثانية: جماعتنا ضدّ جماعتكم:

نحن وأنتم، مصلحتنا ومصلحتكم، قيمنا وقيمكم. هذه هي مشكلة أخلاقية معقّدة، هي مأساة العصر الحديث ومصدر النزاعات المستمرّة في العالم. مشاعرنا ومعتقداتنا اليائسة تجعل من الصعب التعايش وقبول أحدنا الآخر.

أولاً: لأنّ عقليتنا قبلية منحازة للجماعة التي ننتمي إليها، ونفضّل جماعتنا على جماعتكم.

ثانياً: جماعات مختلفة تتعاون وفق شروط مختلفة، بعضهم اشتراكي

وبعضهم رأسمالي، البعض يستجيب بعنف للتهديد، الآخرون يؤكدون على الانسجام.

ثالثاً: جماعات مختلفة تتبع سلطات أخلاقية مختلفة تستمد قوّتها من كتب مقدّسة مختلفة، قائد سياسي أو ديني مختلف، عادات وتقاليد وثقافات مختلفة.

رابعاً: جميع هذه الاختلافات تقود إلى إدراك منحاز لما هو حقيقة وما هو عدل.

نحن نمتلك أخلاقاً غريزية تستجيب بسرعة للمواقف الأخلاقية لكن ليس فيها مرونة. ونحن نمتلك أخلاقاً فكرية لها قدرة عامة على التفكير العملي الصريح هي مرنة لكن لا تستجيب بسرعة للمواقف الأخلاقية. لذا نحن نمتلك نوعين من المشاكل الأخلاقية ونوعين من التفكير الأخلاقي. الأخلاق الغريزية اختصاصها كبح جماح الأنانية ووضع مصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد. يجب أن نصغي إلى صوت الضمير الذي ينبئنا بما هو صح أو خطأ. لكن عندما يكون هناك خلاف حول تعريف ما هو صح أو خطأ فيجب اللجوء إلى الأخلاق الفكرية، لأنّ الأخلاق الغريزية لكل جماعة تقول شيئاً يختلف عن الجماعات الأخرى. عندما تختلف الجماعات نحن نقف لنفكر، عندما نفكر بالمشاكل الأخلاقية التي تقسمنا نحن نفكر بجميع الطرق التي تجعل نحن صح وهم خطأ. بدلاً من أن نكون أكثر اعتدالاً، الناس تصبح أكثر استقطاباً. الناس تتمسّك بالأدلّة والبراهين التي تخدم مصلحتهم ويهملون الباقي. عندما نقيم الأدلة، تحيزنا يتسلل بصورة لا شعورية. إذا كانت الجماعات تحارب بعضها البعض لأنّ

أعضاءها لديهم مشاعر أخلاقية غريزية مختلفة فلا نفع من استعمال الأخلاق الفكرية لتبرير الأفعال العاطفية الغريزية. نحن بحاجة إلى استعمال الأخلاق الفكرية لكن يجب استعمالها بأكثر حكمة. أخلاقنا الغريزية تصوّر لنا أمراً أخلاقيّاً، تقول لنا: هناك بعض الأشياء **لا** تعملها بينما أشياء أخرى **يجب** عملها. هذه المشاعر مطابقة أكثر أو أقل بصورة مضبوطة لمبدأ **الحقوق والواجبات**.

إذا شعرنا أنّ فعلاً ما **يجب أن** لا نعمله، نحن نعبّر عن هذه المشاعر بقولنا: هذا ينتهك **حقوق الفرد**. وبطريقة مماثلة إذا شعرنا أنّ فعلاً ما يجب عمله، نحن نعبّر عن هذه المشاعر بالاستغاثة بالواجبات المطابقة لهذا الشعور. اختطاف شخص واحد ونزع أعضائه لإنقاذ خمسة أشخاص يولد لدينا شعوراً أنّه عمل خطأ لذلك نحن نقول: إنّه انتهاك عظيم لحقوق الإنسان. الحقوق والواجبات تتبع العواطف. هي تعبير عن العواطف الأخلاقية. عندما إحساسنا الداخلي يقول لنا اعمل كذا ولا تعمل كذا، هذه الأوامر تأتي إلينا غير قابلة للتفاوض، تعكس عدم مرونة أخلاقنا الغريزية، ولا يمكن للإدراك أن يخترقها. عدم التفاوض بُني على مبدأ الحقوق والواجبات (السلوك المطلوب) الحقوق والواجبات هي مطلقة وغير قابلة للنقاش، هي محاولة الأخلاق الفكرية ترجمة مشاعر محيرة إلى أشياء أكثر عملية لنتمكن من فهمها ومعالجتها. أي شيء يريده القلب وتتمناه الغرائز يمكن أن نقول إنه لمنفعة المصلحة العامة، لكن هذا الادّعاء يخضع للتجربة لإثبات منفعته للمصلحة العامّة وهل هذه التشريعات سوف تزيد أو تقلّل من السعادة؟. الجدل حول من له أي حقوق هو طريق مسدود. عندما تستغيث الأخلاق الفكرية بالحقوق لتبرّر الأخلاق الغريزية

فإنّك لا تساعد على حلّ المسألة بل تزيدها تعقيداً. أنت تعرف أنّ معظم الحقوق التي نتكلم عنها هي تبريرات جوفاء. ماذا تقول عن إجبار فتاة قاصر للزواج من شخص عجوز لا تعرفه ولا تحبّه؟ وماذا تقول عن التعذيب لانتزاع الاعترافات؟ أليس هذا انتهاك سافر لحقوق الإنسان. هل فقدتم أخلاقيتكم؟ الجدل حول الحقوق يمكن أن يكون بدون معنى. وفي بعض الأحيان الجدل هو بدون معنى. في بعض الأحيان ما نحتاج هو ليس الجدل، لكن السلاح. وهذا هو الوقت الذي تدافع فيه عن حقوقك. من منظور الأخلاق النزيهة ليس هناك شيء نناقشه. جماعة قويّة تسيطر على جماعة ضعيفة (العراق غزا الكويت، وأميركا غزت العراق، وروسيا غزت أوكرانيا وضمّت شبه جزيرة القرم، إسرائيل غزت جنوب لبنان، وضمّت أراضي الجولان السورية والضفّة الغربية الأردنية). الأخلاق الفكرية لا يمكن أن تحل المشكلة لوحدها. ما نحتاج هو القوّة والتزام من جهة ثالثة مثل الأمم المتحدّة مخوّلة لاستعمال القوة لحلّ النزاعات. لذا فهناك أوقات لا تكون في المحادثات أي فائدة لأنّ الخصم لا يمكن مجادلته بالحجج والبراهين، إذاً الوقت قد حان لوقف الجدل وإرسال الجنود.

لا تأخذ هذا كرخصة لتجاهل كلّ شيء قيل عن الحقوق لأنّ معظم الخلافات الأخلاقية هي ليست حالات بسيطة فيها جماعة قوية تسيطر على جماعة ضعيفة. تقريباً جميع الخلافات الأخلاقية هناك اعتبارات أخلاقية لكلا الجانبين.

هناك شيء يقال عن النظام الرأسمالي: إنّه يشجّع الناس على تطوير أنفسهم وبناء كيانهم الشخصي. وشيء يقال عن النظام الاشتراكي الذي فيه

كلّ فرد يحصل على المساعدة التي يحتاجها. هناك شيء يقال عن الجهاد الانتحاري وشيء يقال عن أرواح الناس الأبرياء. الحلّ هو ليس أن تضرب جماعة الأخرى لتؤكد إخلاصها لحقوقها. الحلّ هو مرّة أخرى أن نضع الأخلاق الغريزية (السلوك المطلوب) جانباً ونلجأ إلى الأخلاق الفكرية، نبحث عن تسوية وفق مبادئ الأخلاق العامّة التي تدرّ علينا بأكبر النفع. الأخلاق العامّة المبنيّة على النزاهة والسعادة للجميع تدعو إلى وضع أفكار ومعتقدات الجماعات جانباً، هي الحلّ الأمثل لحياة فيها الرفاه والأمن والسعادة للجميع. لكن أيّ فلسفة أو فكر يمكن أن تتبنّاه الجماعات لتحلّ محلّ معتقداتها وإيمانها ودينها وتراثها لتكون مبدأ عاماً وأخلاقية عامّة وشاملة. مأساة الجماعة تفاديناها باعتمادنا على الأخلاق الغريزية التي تحثّ على التعاون وتفضّل الجماعة على الفرد. لكن مأساة الجماعات المتناحرة نشأت لأنّ جماعات مختلفة لديها أخلاق غريزية مختلفة وهذا سَبَّبَ لهم رؤية العالم بعدسات أخلاقية مختلفة. مأساة الجماعة هي مأساة النزعة الشخصيّة وأنانيّة الإنسان. لكن المأساة بين الجماعات هي مأساة عدم المرونة الأخلاقية. هناك نزاع بين الجماعات ليس بسبب أنانيّة الجماعات أو فسادهم أو انعدام أخلاقيتهم، لكن السبب هو عدم تمكّنهم من التخلّي عن التزاماتهم الأخلاقية تجاه الجماعة التي ينتمون إليها. لكن كيف يجب عليهم أن يفكروا؟ الجواب هو واضح: يجب عليهم أن يستعملوا الأخلاق الفكرية بدل الأخلاق الغريزية. على الجماعات الدينية والسياسية والقومية أن تترجم مفاهيمها المحليّة إلى مفاهيم عالمية شاملة ومقترحاتها تكون معقولة وعرضةً للنقاش والتعديل. الجماعات المتقاتلة بحاجة إلى أخلاقية عامّة تكون مقياساً عالمياً تزن فيه القيم الأخلاقية لكلّ جماعة على انفراد. من

دون أخلاقية عامّة ليس هناك نظام للتسوية والمقايضة.

إيجاد أخلاقية عامّة هو تحدٍّ كبير. التحدّيات الأساسية تأتي من **الولاء للجماعة**. على جميع مفكّري الأخلاق أن يترجموا قيمهم الأخلاقية الخاصّة إلى مفاهيم أخلاقية عالمية. يجب أن تتخلّى كلّ جماعة عن اعتبار دينها، ونبيّها هو السبيل الوحيد إلى الجنّة والامتناع عن فرض ممارساتهم الدينية وأخلاقياتهم على الجماعات الأخرى.

نحن نبحث عن **الحقيقة الأخلاقية**: مبادئ عالمية ترشدنا إلى طريقة حياة أفضل تعرّفنا بحقوقنا وواجباتنا. هناك ثلاثة طرق أو مسالك إلى الحقيقة الأخلاقية: النموذج الديني، النموذج الحسابي، النموذج العلمي. ولا واحد منهم يعطينا ما نحتاج من دون حقيقة أخلاقية تُفرض علينا من الخارج من قبل إله، أو العقل أو الطبيعة فما علينا إلاّ القبول بأخلاقيّة عامّة أكثر تواضعاً كنظام يعمل بين الجماعات ولا يهم إن كانت تمثّل الحقيقة الأخلاقية أو لا. دعنا نستعمل الأخلاق العامّة في:

موقف الأخلاق من الجهاد

فإذا استفدنا منها هنا فيمكن الاستفادة منها في مشاكل أخرى. النقاش حول الجهاد هو مرير، دعاة السلام يقولون يجب أن نتبنى الحكمة والمرونة في المناقشات، وأن تكون عقولنا متفتحة. لكن ماذا يعني كلّ هذا؟ إذا أنت تعتقد أنّ **الجهاد** هو القتل المتعمّد للأبرياء هل هذا **تعقّل** أن نسمح للناس أن ترتكب جريمة قتل؟ إذا أنت تعتقد أنّ **منع الجهاد** هو انتهاك لحقّ الناس في ممارسة دينهم هل هذا تعقّل أن تصادر حقّ الناس في ممارسة دينهم؟

الناس تتجادل حول ما هو معقول يساهم قليلاً لحلّ المشكلة لأنّ كلّ طرف يؤمن أنّه عقلاني. لأجل أن نتقدم في المحادثات يجب أن نضع مشاعرنا الداخلية جانباً ونلجأ للعقل. هذا أدّى إلى أنّ لا أحد يريد أن يتّخذ موقفاً أخلاقياً من الجهاد.

لنأخذ أولاً مناصري الجهاد

الجهاد هو حقّ ديني يخصّ المسلمين. لكنّه خرج عن نطاق الممارسات الصحيحة للإسلام. كيف يمكن للأخلاق أن تتقبّل قتل الناس الأبرياء. **القتل** هو حرمان حقّ الحياة لأناس أبرياء، الإنسان مخلوق له حقوق.

الإنسان يمتلك روحاً إلهية والروح تمنح الإنسان حقّاً لا لبس فيه في الحياة. بناء تبرير متماسك لموقف القتل المتعمّد هو في الحقيقة صعب جداً على الأخلاق الفكرية أن تأتي به. هم يكتفون بالقول: إنّ **الجهاد مكتوب في القرآن** ومن دون مناقشة.

معارضو الجهاد مناصرو حقّ الحياة:

القتل يلغي حقّ الإنسان في الوجود. يمنع الإنسان من العيش. **الحياة هي هدية من الله**. عندما مناصرو الحياة يعلنون بكلّ ثقة أن **للإنسان حقّ الحياة** هم بهذا لا يختلفون عن الجهاديّين، هم يدّعون أنّ لديهم حجّة متماسكة وقويّة بينما هم في الحقيقة ليس لديهم إلاّ مشاعر قوية وافتراضات لا أساس لها.

بعض الناس يناصرون الجهاد وبعضهم يرفضونه، إذا لم تكن هناك أيّ

فلسفة متماسكة تسند هذا الطرف أو ذاك فمن أين جاؤوا بهذه المواقف؟ إذا لم نضع قيوداً على الجهاد إذاً نحن نسمح بالقتل المتعمد. لكن إذا حرّمنا جميع أنواع الجهاد فهذا معناه السماح للجماعة الظالمة أن تستمرّ في ظلمها لنا. ماذا علينا أن نعمل؟ نعمل ما يعمله أعضاء جماعتنا الآخرين، معظمهم يؤمن بالروح، هو شعور طبيعي لأسباب كثيرة. إذا سلمت بفكرة أنّ الإنسان يمتلك روحاً، إذاً يجب أن تعرف أنّ الروح هي الله، من الله وإلى الله. ولا يحقّ لأيّ إنسان قتل إنسان آخر. وإذا قال لنا كبار جماعتنا ومرشدينا: **خذ هذا السلاح ودافع عن دينك فما عليك إلا أن تقول لا.**

إذا حُرِّمَ الجهاد الانتحاري فالناس تتأقلم في تصرفاتها هم يبحثون عن طرق مختلفة للجهاد، هل تحريم الجهاد الانتحاري سوف يقلّل بصورة ملحوظة قتل الناس الأبرياء؟ بالتأكيد تحريم الجهاد الانتحاري من قبل علماء الدين والسلطات السياسية وقطع الدعم المالي سوف يمنع بعض الشباب المراهقين من قتل أنفسهم. الشباب المراهقون الواعون لنتائج اختياراتهم من المفروض أن يسلكوا طريقاً آخر في الحياة. جعل التبشير بالجهاد غير قانوني وتحريم الدعم المالي سوف يمنح الحياة لكثير من الشباب ويعطيهم فرصة أحسن للحياة. لكن بعض الشباب سوف يلجؤون إلى ممارسة الجهاد بطرق مختلفة خاصةً الذين لديهم تمويل مالي فإنّ تحريم الجهاد سوف لا يمنعهم من ممارسته لكن ممارسته سوف تكون أغلى وأكثر صعوبة. تحريم الجهاد الانتحاري سوف يسحب البساط من تحت أقدام ممارسيه ويسبّب لبعض الناس الأغنياء مشاكل ماليّة كثيرة فهم يضطرّون إلى شراء المرتزقة لتنفيذ مخططاتهم. تحريم الجهاد الانتحاري سوف يمنح الحياة والأمان لكثير من الناس. نحن الجهاديّون متورطون في

مؤامرة ضدّ الناس الأبرياء الذين لم يمتلكوا حتى حق الاعتراض على إلغاء وجودهم بصورة مفاجئة. إذا ضميرنا لم يحاسبنا على قتل الناس الأبرياء فنحن نريد نظرية أخلاقية تقول لنا وللناس جميعاً بأنّ هذا الإحساس الداخلي الذي نستشعره هو صحيح ولماذا هو صحيح؟. نحن نريد نظرية أخلاقية تنظّم وتبرّر إحساسنا الداخلي وتكون انعكاساً موازياً ومتطابقاً مع اعتبارات أحكامنا. لكن إحساسنا الداخلي لم يُصَمّم ليكون منتظماً ولم يُصَمّم ليقدّم حلولاً أخلاقيّة حقيقية. الأخلاق الغريزية هي فعّالة لإيجاد الجواب الصحيح معظم الأوقات ولكن ليس كلّ الأوقات. بعض إحساساتنا الداخلية تفضّل مصلحتنا الشخصيّة ومصلحة الجماعة التي ننتمي إليها على الآخرين. قبل أن نبدأ بتنظيم أخلاقنا الغريزية يجب أن نتخلّى عن الميول الغريزية المنحازة.

أحكامنا الغريزية تخدم لتعزيز نتائج جيدة: نحن نمتلك شعوراً داخلياً سلبياً لأشياء تؤدي إلى نتائج سيئة مثل العنف وشعوراً داخلياً إيجابياً لأشياء تؤدي إلى نتائج حسنة مثل مساعدة الناس. الأخلاق هي ليست ما اعتقده الفلاسفة وعلماء الفقه. الأخلاق هي ليست قائمة من الحقائق المجرّدة يمكن بطريقة ما أن يصل إليها دماغ الإنسان المحدّد. فلاسفة الأخلاق يتنافسون فيما بينهم لإيجاد الحلول الصحيحة. وهذا شيء متوقّع بسبب امتلاكنا عملية أخلاقية مزدوجة داخل أدمغتنا. هناك ثلاث مدارس أخلاقية رئيسيّة مختلفة، ثلاث طرق مختلفة تتبعها الأخلاق الفكرية لتبرّر الأخلاق الغريزية التي هي مسجونة معها في داخل الجمجمة. نحن نستعمل الأخلاق الفكرية لنشرح بصورة واضحة ما قامت به الأخلاق الغريزية. نحن نستعمل الأخلاق الفكرية لتبرير أفعال الأخلاق الغريزية. نحن

نستعمل الأخلاق الفكرية لنسمو فوق قيود الأخلاق الغريزية. ماذا يحدث لو كنت نبياً في جماعة من اليهود أو المسيح أو المسلمين؟ داخل الجماعة هناك خلافات أخلاقية بين الفرد والجماعة وبيني وبينك. هذه هي مأساة الجماعة داخل الجماعة ليس هناك خلاف أخلاقي ضخم مثل تضارب القيم الأخلاقية بين نحن وهم، لأنّ داخل الجماعة ليس هناك إلاّ نحن. لذلك فليست مسؤولية النبي هي أن يحلّ النزاعات بين أخلاقيات اليهود التي تختلف عن أخلاقيات المسيح والمسلمين. هي ليست مسؤولية النبي اليهودي أن يشكّك في الأخلاق الغريزية لليهود لكن بالأحرى هو يشرحها ينظّمها ويدوّنها في كتاب مقدّس لتكون مرجعاً يستمدّون منه الحكمة في أعمالهم. واجب النّبي هو أن يُذَكّر ما كان معروفاً لكن أصبح في طيّ النسيان. الكتب السماوية لم تُصَمّم لتحل النزاعات بين الجماعات ذات الأخلاقية المختلفة، لأنّ ما هو محلّل لدى اليهود هو محرّم لدى الإسلام والمسيح، وما هو محلّل لدى الإسلام هو محرّم لدى اليهود والمسيح. الأنبياء قاموا بعمل جيّد بشرحهم ما هو خير وما هو شرّ وأن يكون كلّ إنسان داخل الجماعة عضواً جيداً وهناك بعض الدروس لأعضاء كلّ الجماعات الأخرى. لكن عندما نأتي إلى الاختلافات الأخلاقية بين الجماعات التي هي سبب النزاعات ليس في حوزة النبي إلاّ القليل ليقدّمه (سورة الكافرون ـ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾).

مات الأنبياء وجاء بعدهم من اتّبع دينهم من **الخلفاء والملوك** هم استعملوا الأخلاق الفكرية ليس فقط لشرح أفعال الأخلاق الغريزية كما

فعل الأنبياء ولكن لتبريرها. هم اعتبروا المبادئ الأخلاقية لدينهم كحقيقة عالمية وفرضوها على الشعوب الأخرى. وهذه أدّت إلى الحروب الصليبيّة والفتوحات الإسلامية التي يعرفها التأريخ وما نشهده الآن في العالم العربي والإسلامي من حروب دامية بين الجماعات المتطرفة. لكن من له الدليل على أخلاقية هذه الجماعة أو تلك هي الحق.

يمكننا شرح الأخلاق الغريزية وتبريرها لكن ليس في شرحها ولا في تبريرها حلولاً للمشاكل الأخلاقية في عصرنا الحديث لأنّ السبب هو أخلاقية الجماعة. الطريق الوحيد للخروج من هذا المأزق هو أن نسمو فوق قيود الأخلاق الغريزية بتحويل المشكلة بالكامل إلى الأخلاق الفكرية (العقل). بدل من أن نضع ثقتنا بأخلاق الجماعة وتبريرها بدل ذلك نبحث عن اتّفاق على القيم المشتركة، واستعمال نظام **الأخلاق العامّة**.

نحن بكلّ بساطة نحاول أن نجعل من هذا العالم سعيداً قدر الإمكان. هذه الفلسفة لا تعطينا كلّ شيء نريده لكن في الوقت الحاضر هذا أحسن شيء يمكن للجماعات أن تعمله. لأجل التعايش يجب أن لا ندّعي الحقّ لأنفسنا. يجب أن نعترف بأننا جميعاً أناساً طيبين وأنّ خلافاتنا تنبع من انتسابنا إلى مجموعات ذات ثقافات وأخلاقيات مختلفة. نحن ننظر إلى التبريرات الأخلاقية لمنافسينا لكن نحن بحاجة إلى أن ننظر بدقةٍ أكثر إلى تبريراتنا الأخلاقية. يجب أن يفهم بعضنا الآخر ونكون أقل زيفاً وأكثر انفتاحاً للتسوية. هذه دروس مهمّة. لكن لسوء الحظ هي ليست ملزمة وقليل من يتّعظ بها. أن نكون منفتحين ذهنياً أكثر، وأقل تمسكاً بادّعائنا الحق، سوف يؤدّي إلى حلّ المشاكل الأخلاقية لكن هذا في ذاته ليس

الحل. لماذا التقليل من ادّعائنا الحقّ والتقليل من التبريرات الزائفة هي ليس كافياً لحلّ مشاكلنا الأخلاقية؟ لأنّ الجماعات المتطرّفة والجهاديّين الانتحاريّين هم أناس غير مسؤولين، متنكرين للأخلاق، ينقصهم الاحترام لحياة الإنسان. ثقافتهم هي القتل والموت والحياة بعد الموت. بأي شيء نؤمن وماذا هو العمل؟ فلاسفة الأخلاق وعلماء الفقه يبحثون عن حقيقة أخلاقية عامّة، ولسبب جيد. هم يبحثون عن حقيقة أخلاقية تعلو فوق التدريس الديني وتعلو فوق إرادة أيّ مَلِكْ على الأرض. هم يبحثون عن أخلاقية عامّة تحكم بين الجماعات وتدير مستقبل حياتي أفضل للجميع. الأمم المتحدّة هي قوّة تحكم بين الدول لكن دائماً تنحاز في حكمها لمصلحة القوى الكبرى التي توفر لها الدعم المالي الضروري لوجودها. وعدد قليل من الدول الكبرى (فرنسا، بريطانيا، روسيا، أميركا والصين) لها حقّ النقض الفيتو لتوقف أي قرار عادل لمصلحة الدول الضعيفة.

نحن الجماعات المتنازعة لدينا مشاعر أخلاقية قويّة، في بعض الأحيان مشاعر مختلفة جداً. لسوء الحظ لا يمكن لأي جماعة أن تنال حقّها، ماذا نعمل؟ **أول خطوة** هو أن نفهم بعضنا الآخر بصورة أحسن. أن نفهم أننا أتينا من جماعات أخلاقية مختلفة وكلّ جماعة مخلصة لأخلاقيتها. لكن هذا لا يكفي. نحن بحاجة إلى موازين أخلاقية عامّة، لتساعدنا أن نتعايش بسلام. الشيء المثالي الذي نهدف إليه هو **السعادة القصوى للجميع.**

البشرية هم تسعون بالمائة (٩٠٪) **قرود** وعشرة بالمائة (١٠٪) **نحل**، هذا يعني **أننا** بصورة رئيسية نفضّل الـ (أنا) وجزء قليل منّا يفضّل

(نحن) حرّاس يحمي خلية النحل. فأي جزء منّا يفضل السعادة القصوى للجميع؟ هذه ليست قروداً ولا نحلاً. هذه فكرة أخلاقية عامّة هي اختراع بشري مميّز، نتاج تفكير مجرّد. إذا كنا محدّدين بمصلحتنا ومصلحة الجماعة الغريزية فلا مخرج لنا. لكن لحسن حظّنا نحن جميعاً نملك القدرة ويا ليت الإرادة لاستعمال عقولنا. إذا كان لجماعة ما شعور غريزي بالصح أو الخطأ فليس غريباً أنّ حجّتك القويّة سوف تقنعهم وتغيّر رأيهم نحو تسوية سلمية وهذا يتطلّب شجاعة وإصراراً.

القواعد الأساسية
لحلّ النزاع بين الجماعات

القاعدة الأولى ـ في النزاعات الأخلاقية:

استشر لكن لا تضع كلّ ثقتك في الأخلاق الغريزية.

استجاباتك الأخلاقية التلقائية هي أداة فكرية رائعة وضعها الله فينا وصقّلتها ملايين السنين من التطور الاجتماعي وسنوات من التجارب الشخصية. في حياتك الشخصية يجب أن تثق بأخلاقك الغريزية وكن حذراً في استعمال الأخلاق الفكرية التي هي خبيرة في تقديم مصلحتك الشخصية على مصلحة الجماعة. لكن عندما تواجه مشكلة أخلاقية فيها **نحن** أفضل منهم، آن الأوان للجوء إلى استعمال الفكر المجرّد.

القاعدة الثانية ـ المطالبة بالحقوق:

المطالبة بالحقوق هو ليس لبدء النزاعات ولكن لإنهاء النزاعات.

القاعدة الثالثة ـ ركز على الحقائق:

ركّز على الحقائق واجعل من الآخرين يفكرون بالطريقة نفسها.

القاعدة الرابعة ـ احذر من العدالة المنحازة:

هناك طرق عدّة لأن تكون عادلاً ونحن نميل إلى تفضيل وغالباً بصورة غير واعية العدالة التي تخدم مصالحنا. لأنّ العدالة المنحازة هي نوع من العدالة من الصعب رؤية الانحياز فيها. خاصةً في أنفسنا. نحن نعمل هذا كأفراد ونعمل هذا كأعضاء مخلصين للجماعة التي ننتمي إليها. بعض الأحيان نضحّي بالمصلحة الشخصية لنكون أكثر انحيازاً للجماعة. هو نوع من الانحياز الأناني.

القاعدة الخامسة ـ استعمل الأخلاق العامّة:

نحن كبشر مرتبطون ببعضنا بتقلّبات مزاجنا. كلنا يريد السعادة، لا أحد منّا يحبّذ الشقاء والمعاناة. نحن جميعاً نفهم القاعدة الذهبية (لا تؤذ أحداً إذا لا تريد الأذى أن يصيبك) والمثل الأعلى للنزاهة التي تقف خلفها. ضع هذين الاثنين سويةً: نحصل على **أخلاق عامّة**، نظام مبدئي لتقديم التنازلات والتسوية. يمكن أن نتفق رغم اعتراضات أخلاقية الجماعة، لنفعل ما يأتي بنتائج أحسن، وما يجلب لنا أكثر سعادة. لإيجاد الفعل الذي يأتي بنتائج أحسن نحتاج قيماً عامّة ونحتاج أيضاً حقائق عامّة يتّفق عليها الجميع. هناك مصادر عديدة للمعرفة وأكثرها ثقةً هو العلم. العلم ليس خالياً من الأخطاء، الناس ترفض المعرفة العلمية إذا تضاربت مع اعتقادات الجماعة. لكن كلّ واحد تقريباً يلجأ إلى الأدلّة العلمية إذا هي

تخدم مصلحتهم. في منازعاتنا داخل الجماعة وفي قلوبنا يمكن أن نعتقد ما نحب. لكن في المنازعات بين الجماعات، **الحقيقة** يجب تقريرها باستعمال الأخلاقية العامّة والدلائل العلمية الملحوظة.

القاعدة السادسة ـ تقديم المساعدة للآخرين:

كأفراد نحن ليس بأيدينا أن نسنّ القواعد التي بموجبها نعيش، لكن كلّ واحد منّا يمكن أن يتّخذ قرارات مهمّة تحدّد الحياة أو الموت لناس كثيرين. القيام بتضحية قليلة تمكّن الإنسان الغني أن يحسّن حياة عشرات الناس الآخرين. كمخلوقات بشريّة أدمغتنا مبرمجة لأن تخدم **الجماعة** التي ننتمي إليها، عواطفنا نحو الناس الغرباء ضعيفة. القانون الأخلاقي (الضمير) الإلهي في داخلنا تطور لغرض لاأخلاقي للنجاح في المنافسة بين الجماعات.

هدفنا هو خلق **جماعة كونية واحدة** ترعى جميع أعضائها، ليس لكسب أي فائدة على الآخرين لكن بكلّ بساطة للعيش بسلام وأمان.

* * *

الفصل السادس عشر

الجماعة الكونية الواحدة

السلوك الأخلاقي الإلزامي للجماعة الكونية

لأجل فهم معنى السلوك الأخلاقي الإلزامي يجب علينا أن نميّز بين ثلاث وظائف أساسية لنشاط الإنسان: **الأخلاق، الثقافة، والدين**. عندما نسمّيهم وظائف أساسية لنشاط الإنسان نحن نشير إلى التوحّد الديناميكي بين العقل والجسم، العقلاني والحيوي. العقل الواعي والعقل غير الواعي، العاطفي والفكري. في كلّ وظيفة من نشاط الإنسان جميع كيان الفرد يكون داخل التجربة، وهذه هي النوعية الأساسية للإنسان. لا يمكن لأي الوظائف الثلاث لنشاط الإنسان أن تظهر بمعزل عن الوظائف الأخرى.

الأخلاق هي دستور النشاط المركزي لروح الإنسان.

الثقافة تشير إلى الروح الخلاّقة وكذلك إلى جملة الخلق.

الدين هو ما يقع وراء الخبرة المادية في اتجاه المطلق، غير المشروط في الوجود والمعنى.

أول الوظائف (الأخلاق)

هو اهتمامنا المباشر وموضوعنا الأولي. ولأجل تعريفه بصورة لائقة

يجب علينا أن نشير إلى الوظائف الأخرى باستمرار. الأفعال السلوكية تعطي الإنسان صفاته الشخصية وتجعل منه مثلاً أعلى للأخلاق. إنّ من صفات السلوك الأخلاقي الملزم وغير المشروط أنها تعطي أهميّة مطلقة لكلّ من الثقافة والدين. من دونها فإنّ الثقافة سوف تفسد وتتحول إلى مشروع جمالي القصد منه المنفعة. والدين سوف يتحول إلى عواطف مشوّهة لمفهوم وحدة الكون. لقد كشفت رسالة الأنبياء التي كُتبت في النصوص السماوية عن وجوه اختلاف قوية عند مقارنة مفهوم السلوك الأخلاقي الإلزامي للعدالة الاجتماعية مع كلٍّ من الثقافة والدين في عصورهم.

رسالة الأنبياء لها أهمية مطلقة واحدة وليس لها مماثل في أيّ من الأديان. هذه الرسالة النبوية هي مهّمة لكل من الدين اليهودي والمسيحي والإسلام. وكذلك مهمّة بالنسبة للعلم، الفن، السياسة، التربية ـ كلها سوف تكون فارغة وتدمر نفسها إذا لم تستخدم السلوك الأخلاقي الإلزامي للجماعة الكونية عند نشوئها. السلوك الأخلاقي الإلزامي يعبّر عن نفسه في الإخلاص في العمل العلمي والأدبي والديني والسياسي إلى درجة أن يضحّي الشخص بنفسه في سبيل الإنسانية والعدالة الاجتماعية. جميع العلاقات الاجتماعية والأفعال السياسية مبنية على حبّ أحدنا للآخر كنتيجة للتعبير عن الحبّ الإلهي.

هذه هي أمثلة تعبّر عن أهميّة السلوك الأخلاقي الإلزامي لكلٍّ من الثقافة والدين ومن دونه فإنها سوف تتلاشى. السلوك الأخلاقي الإلزامي هو أمر للوصول إلى الغاية التي فيها الفرد يخدم الجماعة الكونية والجماعة

الكونية تخدم الفرد. الإنسان فقط يمتلك ذاتاً شخصية وروحاً أنانية يواجه بها العالم من حوله، هذا العالم الذي جاء منه وإليه سوف يعود لكنّه منفصل عنه. هذه العلاقة الثنائية لوجود الإنسان في هذا الكون، هو منه ومنفصل عنه، تجعل من الممكن أن يسأل وأن يجد جواباً. أن يطلب ويستلم. كذات أنانية وكفرد، الإنسان يستجيب بالمعرفة والفعل لحوافز تصل إليه من العالم حوله والذي ينتمي إليه؛ ولكن لأنّه هو أيضاً يواجه عالمه، وهذا معناه أنّه متحرّر من عالمه، هو بإمكانه أن يستجيب بصورة مسؤولة بعد مداولة واتّخاذ قرارات أخلاقية فكرية بدل من أن يكون ملزماً بأخلاق غريزية هي عادةً مقرّرة مسبقاً. هذه هي عظمة الإنسان وكذلك خطره: هي تمكنه من أن يتصرف بصورة مخالفة للمطلوب أخلاقياً. هو بإمكانه أن يستسلم لقوى التحطيم التي تتحكم بالذات الشخصية (أنا) وتمنع توحده مع الكون. الإنسان هو مركب يشتمل الكون بإمكانه يستلم معلومات روحية ويحولها إلى خلق مادي. هو يمتلك العالم وبإمكانه أن يتجاوز هذا العالم ويسير بأي اتجاه يختار في التصور، التفكير والأفعال. هو بإمكانه أن يخلق لنفسه دنيا مثالية من حيث قوانينها وحكومتها وأحوالها الاجتماعية. هو بإمكانه أن يستكشف الفضاء الخارجي. الإنسان يمتلك العالم وفي مواجهته لأي من الأشياء المحيطة به هو دائماً يواجه العالم الذي يظهر له في تلك الأشياء الخاصة. الإنسان لا يواجه هذه الشجرة فقط كشجرة ولكن أيضاً كشجرة واحدة من أشجار متعددة كنموذج لنوع من عالم النباتات، كظاهرة خاصّة معبّرة عن القوة الكونية للوجود. هذه المواجهة تفترض مقدماً التحرّر من الأشكال الفردية والمقدِرة على رؤية الكون في الأشكال الفردية. التعبير عن هذه الحرية بلغة، لغة خالدة في

هذا الوجود. إنه شيء واحد والشيء نفسه لأن تمتلك العالم أن تسمو فوق العالم المحيط بك، وأن تتكلم بمسائل ذات معنى ومفهوم وبأخلاقية تسمو فوق شرح وتبرير الأخلاق الغريزية. كلّ هذا يتضمّن حريّة الإنسان الجوهرية وممارسته للسلوك الأخلاقي الإلزامي للجماعة الكونية الواحدة المفترض مسبقاً. السلوك الأخلاقي الإلزامي (العدالة الإلهية ـ الحب الإلهي) هو مطلوب من كلّ فرد لأن يتطابق مع جوهره الكامن في داخله. إنّ باستطاعة قوّة الإنسان التي وهبتها له الطبيعة أن يستخدمها في المكان والزمان المعينين ليُحَوّل ذاته الشخصية إلى الذات الإلهية، وهذا هو السلوك الأخلاقي الإلزامي. ولما كانت الذات الإلهية هي تخدم الجماعة الكونية، والجماعة الكونية تخدم الفرد، فإنّ السلوك الأخلاقي الإلزامي يصبح الفرد، وكلّ عمل أخلاقي هو عمل فيه الفرد يؤكد ذاته كفرد. لهذا فإنّ العمل الأخلاقي هو ليس عملاً يتطلب طاعة لقوانين خارجية إن كانت صادرة من إنسان آخر أو من الإله. إنها قانون داخلي صادر من ذاتنا الحقيقية، من جوهرنا، من وجودنا الطبيعي، الذي يتطلب جَلْبه إلى واقع الحياة العملية.

والعمل غير الأخلاقي هو ليس انتهاك واحدة أو عدد من القوانين المحدّدة لحرية الفرد ولكن هو عمل يتناقض مع جهد الإنسان لمعرفة ذاته الإلهية مما يؤدي إلى انفصال الذات وتمزّق وحدتها، مما يؤدي إلى خضوع الفرد لسيطرة الميول الجزئية، العواطف، الرغبات، الخوف، والقلق. السيطرة المركزية تضعف وعلى الأغلب معدومة تقريباً. وعندما يحدث هذا فإنّ الذات تتجزأ والميول والعواطف المتعارضة تجعل من الذات أرض المعركة والإرادة تصبح مستعبدة والأعمال القسرية تحل محل

حرية الاختيار. المداولة واتخاذ القرارات، الصفة المميّزة لحرية الأخلاق الفكرية تصبح مجرّد واجهة لدوافع غريزية غامرة قراراتها مفترضة سلفاً. صوت الإنسان الداخلي الصادر من عقله الباطني، صوت الإله يُخَرَس، خطوة بعد خطوة؛ وذاته المتجزئة وشخصيته المتفككة تظهر طبيعة الأعمال غير الأخلاقية مقارنةً بطبيعة الأعمال الأخلاقية. **العمل الأخلاقي** هو تجسم الذات الإلهية أو الدستور الشخصي للإنسان كإنسان، الذي هو متطابق مع عالم جميع الكائنات الحيّة. **والعمل غير الأخلاقي** هو تلاشي الذات وفقدان السلطة المركزية للإنسان هو ظاهرة للأمراض النفسية والجسدية.

العمل الأخلاقي هو انتصار دائم على القوى المحطّمة وهدفها هو تجسّم الإنسان كمركز وكشخص حرّ.

لماذا السلوك الأخلاقي الإلزامي هو غير مشروط وفي أيّ ظروف يمكن أن تطلق عليه هذه الصفة؟ خلال حياتنا اليومية نحن نستعمل أوامر لا تُحصى؛ لكن أكثريتها مشروطة (يجب عليك أن تغادر الآن إذا أردت أن تلحق بالطائرة) لكن ربما أنت تفضل البقاء رغم علمك أنّك لم تلحق بالطائرة المغادرة. هذا واضح أنّ هذا الأمر هو التزام مشروط. لكن إذا كان الصعود في الطائرة هو مسألة حياة أو موت على سبيل المثال في حالة طبيب جرّاح يجب أن يصعد في الطائرة لكي يصل إلى مدينة معيّنة لغرض إنقاذ مريض من الموت كأن يكون بحاجة إلى زرع كلية أو قلب. فإنّ السلوك المشروط يصبح سلوكاً غير مشروط وإلزامي. فإذا الطبيب الجرّاح تقاعس وأهمل موعد مغادرة الطائرة فإنّ عمله يكون غير أخلاقي وله تأثير محطّم على نفسية الطبيب. ربما نتساءل إذا كان قرار أخلاقي معيّن يصنّف

كعمل ملزم أخلاقياً وغير مشروط إذا كان القرار فيه خطورة أخلاقية كأن يكون قراراً خطأ في مسألة معيّنة. الجواب هو: إنّ صاحب الذات الإلهية هو لا يشير إلى المحتوى ولكن إلى شكل القرار الأخلاقي. أي اختيار أخلاقي نقوم به رغم الخطورة العظيمة في القرارات الجريئة إذا كان القرار أخلاقياً هو من المفترض أن يكون مطابقاً للضمير الإلهي. وإذا كان هناك شك لدى أي شخص في أي الخيارات هي إلهية هو يجب أن يُذكر أن أيّ الخيارات يكون عادلاً في الموقف المعيّن، لكن أي من الخيارات يجب أن يكون مصحوباً بإدراك كامل للوجود الإلهي. الشك المصاحب لعدالة أي قرار أخلاقي هو لا ينكر حقيقة الأهميّة المطلقة لذلك القرار. إنّ الإصرار على أنّ رجل الدين هو الممثل الشرعي للذات الإلهية على الأرض له انتقاداته. لأنّ من الممكن أن يكون صاحب الذات الإلهية غير متديّن. لكن البعض يقول: إنّ الأوامر الأخلاقية هي دينية لأنّها أنزلت من الله على أنبيائه، وهي تمثل إرادة الله. وهذا لوحده يجعل منها أوامر غير مشروطة وملزمة. هذه الحجّة تنفي أي وجود للأخلاق لدى عامّة الناس. وأيّ سلوك أخلاقي إلزامي يجب الموافقة عليه بأمر من الله وأن يُصان في كتب مقدّسة وفق تقاليد دينية معيّنة. لكن إرادة الله يجب فهمها على أنّها ليست إرادة مفروضة على الإنسان من خارج كيانه، هي ليست قانوناً استبدادياً فرض علينا من قبل إله دكتاتور في السماء السابعة جوهره يختلف عن جوهر الإنسان، لذلك فنحن نقاومه ونرفض قوانينه. إنّ إرادة الله في الحقيقة هي بكلّ صدق جوهر كيان الإنسان مع جميع احتمالات التصرّف الممكنة، هي طبيعة الإنسان الجيّدة. بما أنّ الإرادة الإلهية هي جوهر كيان الإنسان لذلك فنحن نتقبّل السلوك الأخلاقي الملزم على أنه صحيح. إنه

ليس قانوناً غريباً يتطلب طاعتنا ولكن هو الصوت الداخلي الصادر من العقل الباطني لكل إنسان يمتلك ذاتاً حرّة. الإنسان يحقّق وجوده من خلال ممارسته لما هو مطلوب أخلاقياً كجوهر لكيان الإنسان. ولكن لماذا ما هو مطلوب أخلاقياً هو سلوك غير مشروط وإلزامي؟ هل لي الحق بأن أترك جميع احتمالات التصرف الممكنة غير مكتملة، أن أبقى شخصاً غير كامل أن أكون مخالفاً لطبيعتي الجيدة أن أحطم نفسي؟ ككائن له حرية مخالفة ذاته فإنّ من حقّي أن أمتلك هذا الاحتمال وأن أقضي على نفسي! السلوك الأخلاقي يكون غير مشروط فقط إذا اخترت أن أؤكد طبيعة جوهري وهذا شرط! الجواب على هذه المناقشة هو أنّ للإنسان طبيعة أزلية. ولا يوجد قانون خارج طبيعة الإنسان يمنعه من تحطيم نفسه، جسدياً، نفسياً، أخلاقياً. ولكن يوجد هناك صوت صامت في داخلنا لا يعطينا الحق في تحطيم أنفسنا. هو إدراكنا أنّنا ننتسب إلى عالم روحي يتجاوز حريتنا المحدودة وقابليتنا لتأكيد أو نفي أنفسنا. لهذا فإني أحافظ على تأكيدي الثابت بأنّ الصفات غير المشروطة للأخلاق الإلزامية هي صفات دينية. لكن هذا الدين هو ليس من ابتداع شخص ما خضع لأوامر خارجية. بل هو دين له وجود في العقل البشري فقط ويخضع لأوامره الأخلاقية فقط. هذه هي الصفة الدينية الجوهرية للأخلاق الإلزامية وللمطالب السلوكية. ماذا يتوجّب على الشخص أن يعمل؟ يجب عليه أن يتصرف كشخص. هل هناك مبادئ معيّنة للتصرف الأخلاقي؟ إذا كان هناك وجود لمثل هذه المبادئ الأخلاقية كيف يمكن استعمالها في حياتنا اليومية المتغيرة على الدوام؟ هل هذه المبادئ الأخلاقية مطلقة أم نسبية؟ هناك اختلاف واضح بين أخلاقية العصور القديمة وعصرنا الحديث. بين أخلاقية الغرب

وأخلاقية الشرق. بين البرجوازية والاشتراكية. بين المحافظين والأحرار. الاختلاف في السلوك الأخلاقي لنفس الحدث في الزمان والمكان المعيّن بين طبقات المجتمع الواحد وبين الأديان المختلفة وبين الأعمار المختلفة وبين الأجناس المختلفة لنفس المجتمع. هذا يؤيد بصورة قويّة بأنّ الأخلاق هي نسبية تخصّ جماعات مختلفة وليست مطلقة تخص جماعة كونية واحدة. منذ فترة من الزمن علماء الاجتماع الداعمون لمبدأ الأخلاق النسبية بحثوا عن طبيعة سلوك البشر عند المجتمعات البدائية. أخلاقية الإنسان البدائي كان من المفروض أن تستعرض تكيف أفكارنا الأخلاقية الحاضرة لتلائم طبقات المجتمع المختلفة ـ الإقطاعية، البرجوازية، الاشتراكية، المسيحية، الإسلام.

قانون معيّن يخص على سبيل المثال: القتل، السرقة، الكذب، وهكذا. هم وجدوا أن مجتمعاً معيّناً يختلف عن الآخر في أحكامه على نفس القضية، والخلاصة كانت أنّ ليس هناك أرضيّة مشتركة في الفكر الأخلاقي بين المجتمعات والثقافات المشتركة. الأخلاق حسب هذه النظرة تتكيّف مع المجتمع. لهذا فإنّ أخلاقيات مجتمعات مختلفة هي مختلفة باختلاف مجتمعاتها. دراسة المجتمعات وكذلك فهم عامة الناس هو أنّ هذا المبدأ هو السائد. لكن تفهم المنظور الديني الحديث هو أنّ المجتمعات البشرية هي شيء واحد، هم جماعة كونية واحدة، وليس بإمكاننا أن نقارن جزءاً من المجتمع مع جزء آخر. يجب علينا أن نفهم أهمية الفرد في ضوء المجتمع. عند ذاك فسوف نكتشف بأنّ الاختلاف في ما هو مطلوب أخلاقياً بين المجتمعات والفئات المختلفة هو ليس تناقضاً ولكن هو تعبير مختلف لمبدأ أساسي واحد هو كلنا من الله. جهل هذه

الحقيقة أنتج أخلاقاً نسبية ساذجة بين عامّة الناس. الإنسان بطبيعته أو منذ خلقه لديه إدراك للأخلاق الطبيعية المقبولة عالمياً. هذا الإدراك هو في حيازة كلّ إنسان لكنه يتشوّه بتأثير الثقافة والمجتمع وبابتعاد الإنسان عن جوهره.

قانون الطبيعة هو قانون الأخلاق الفكرية، هو الفكر العملي. مصدر الأخلاق ومصدر الطبيعة هو الجوهر الإلهي الموجود في عقل الإنسان. لكن الإنسان فقد بصورة كاملة جوهره. ليس للإنسان معرفة بطبيعته الحقيقية ما لم تعط له من خلال نبوءة إلهية. القوانين الإلهية التي أنزلت على الأنبياء لا يمكن أن تختلف أو تتناقض مع طبيعة الإنسان الإلهية. القوانين المتجسمة في طبيعة الإنسان الجوهرية هي تأكيد لقانون الطبيعة. لا يمكن للإنسان أن يفقد طبيعته الجوهرية ما دام هو إنسان. الصوت الصامت داخل جوهر الإنسان يقاضيه على أفعاله.

تكوين مبادئ أخلاقية صلبة تخضع لتفسيرات مجتمعات مختلفة وتتكيّف لتلائم مواقف اجتماعية معيّنة. لكن على الرغم من اختلاف المجتمعات والأديان ونتيجة لذلك اختلاف المنظومة الأخلاقية. بعض المبادئ الأخلاقية الأساسية المتّفق عليها تبرز. هي مدفونة في الطبيعة الجوهرية للإنسان وفي تركيب هذا الوجود. أخلاق المجتمع الكوني الواحد يجب أن توحد ما بين المطلق والنسبي. يجب أن تكون مقبولة عالمياً. الاختلاف بين المنظور الديني الحديث ومنظور الديانات التقليدية (اليهودية ـ المسيحية ـ الإسلامية) هو أنّ المنظور الديني الحديث يؤمن أنّ بالإمكان استخلاص مطالب سلوكية معيّنة مبنيّة على مبادئ كونية معيّنة من

خلال التفكر. هذه المطالب السلوكية إذا تمّ التوصل إليها بالفكر المطلق هي مقبولة في جميع العصور وفي جميع المواقف. ولا حاجة إلى تنبؤات نبي أو وحي من الله لكي يتم اكتشافها. وليس هناك تغيّر في مسار الأحداث التأريخية. لكن الديانات التقليدية تعتمد بصورة مطلقة على القوانين الإلهية التي أنزلت على الأنبياء. الديانات التقليدية لا تثق بالفكر. وهذا يتضمن فساد الإنسان في جميع أجزاء طبيعته، فساد الجسم وفساد العقل، فساد التفكير وفساد الغريزة. وفي هذا انفصال الإنسان عن طبيعته الحقيقية في جميع أجزاء حقيقة كيان الإنسان. الديانات التقليدية تنفي وجود التلقائية وتضع أخلاقية التشريعات الدينية فوق كلّ شيء. نظام لا يمكن تغييره، قوانين أخلاقية صلبة تتعارض مع الروح الخلاّقة في الحياة. هي تنفي وجود الروح الإلهية الخلاقة التي تلهم كلّ إنسان في الإنتاج والأعمار والتقدم.

هل هناك مصدر ديني للأخلاق؟

الرجل الذي يسلب حقوق المرأة ويعاملها وكأنها سلعة اشتراها بعد أن دفع ثمن مهرها. الأب الذي يتعامل مع ابنه وكأنه مُلك له لأنّه أنجبه. الدكتاتور الذي يفرض نفسه على الناس بالقوة. أين هي العدالة الاجتماعية؟ ما هو مفهوم العدالة من الناحية الأخلاقية؟ عندما يلاقي شخص ما شخصاً غريباً في تجمّع بشري (جمعية) فإنّ معنى هذا أنّ الغريب أصبح جزءاً من تلك الجمعية ومشتركاً معها ومتّحداً معها. والرغبة في اتّحاد من كان منفصلاً أساسه الحب. وجميع تلك التجمعات هي متجسّمة الحب. والعدالة تصبح جزءاً من هذا الحب إذا تم الاعتراف

بالشخص الغريب كشخص غير منفصل وملتزم بالجماعة الكونية الواحدة. بهذه الطريقة **الحب** أصبح المبدأ الأخلاقي الأساسي والغاية القصوى. هذا الحب يضم **العدالة** تحت لوائه. العدالة لا تختفي ولكن تتطور لتصبح عدالة خلاقة فيها القضاء والإنقاذ للناس. عدالة غير مشروطة هي جوهر الحب. الحب الإلهي هو نوع من الحب يُعَبّر عن تجاوز حدود الذات الشخصية، الأخلاق الغريزية والسمو فوق الدين.

الإنسان هو اتّحاد بين الأبعاد المتعددة والمتناقضة وليس مُرَكباً من أجزاء. لهذا فإنّ جميع تلك الأبعاد المتناقضة والمكوّنة لكيانه الشخصي تشارك في كلّ قرار وعمل أخلاقي. ومن هذا المنطلق يمكن الحكم على **الزهد** من مفهوم الحب الإلهي ـ أولاً ليس هناك شيء خلقه الله هو سيّئ في ذاته. العالم المادي هو ليس منافياً لمبادئ العالم الروحي الذي تسعى الروح للتحرّر منه. الرغبة في الاتّحاد مع الحقيقة المادية من خلال الحواس والذي يعبّر عنه في الأكل والشرب وممارسة الجنس، وتملّك الأشياء المادية هو تعبير عن الحب الإلهي النزيه ولكن من دون إسراف. الحب المادي هو جزء من الحب الإلهي النزيه. إذا الحب المادي تغلّب على الحب الإلهي فإنّ من الضروري على الشخص أن يبدي مقاومة باسم الحب الإلهي فيلجأ إلى حياة الزهد بصورة جزئية أو كلية. إن انتظام الشخص في حياة الزهد لكي يصلح ذاته هو ممارسة للحب الإلهي النزيه وهذا يختلف تماماً عن الامتناع عن الأشياء لأنّها ذات طبيعة مادّية. الحب المادي يمنع الحب الإلهي النزيه من تقديم المساعدة للآخرين كما يمنع الحب الإلهي النزيه الحب المادي من أن يسيطر على حياة الإنسان وتحطيم جوهره الإلهي. **الحب هو واحد** ذو أنواع مختلفة ومرتبط أحدها بالآخر

رغم انفصال وتضارب أحدهم مع الآخر. **الحب الإلهي** مرتبط بالعدالة أو النزاهة ويتجاوز حدود الحب البشري الزائل. فقط وبناءً على هذا المبدأ فبإمكاننا أن نسمي الحب المصدر النهائي للمطلوب أخلاقياً ـ هو الأخلاق النسبية والأخلاق المطلقة.

الديانات السماوية تعاملت مع مشكلة القرارات الأخلاقية الأساسية في الكتب المقدّسة. قوانين مكتوبة لا يمكن أن تطبّق في جميع المواقف الحياتية اليومية. وهذا حقيقة فيما يخص الوصايا العشر التي أنزلت على النبي موسى، وتوصيات النبي عيسى المسيح فوق الجبل، والشريعة الإسلامية. **لا تقتل** هي كلمة لم تحكم على الشخص كونه لم يطبّق القانون الإلهي فقط ولكن تجمد احتمالات إبداعاته وقوّة خلقه في اللحظة الحاضرة التي لم تكن موجودة في الماضي وسوف لا تعود مرّة أخرى. الروح على الضدّ من ذلك تفتح آفاق العقل على جميع هذه الاحتمالات وتحكم بالحب في المواقف المعيّنة. بهذه الطريقة فإنّ مسألة صفة المطلق والنسبي للمطلوب أخلاقياً تكون قد تمّ حلّها مبدئياً. الحب كونه المبدأ النهائي للأخلاق هو دائماً واحد. الحب يدخل في موقف معيّن وبقوّة الروح هو دائماً يختلف. لذلك فإنّ الحبّ حرّرنا من الأعراف والتقاليد الأخلاقية، وحرّرنا من السلطات التي تدّعي معرفة القرارات الصحيحة ومن دون أن تستمع إلى حاجات اللحظة الحاضرة. الروح هي روح التجديد، هي تكسر قيود سجن القوانين الأخلاقية النسبية حتى وإن كانت تمتلك سلطة التقاليد والعادات المقدّسة. الحب يمكن أن يرفض أو يقبل أي عرف أخلاقي. الحب دائماً يتفحّص صلاحية الأعراف الأخلاقية ويختار. الحب لا يمكن أن يحاكم نفسه ولا يمكن لأي أحد أن يحاكمه.

معظم الناس يخضعون لقيادة الأخلاق التقليدية عندما يتبعون السلوك الأخلاقي الإلزامي.

مقدار كبير من العادات الأخلاقية ضرورية لكن مقداراً كبيراً من العادات الاجتماعية الأخلاقية التي يتبعها كلّ شخص هي ضرورية من أجل البقاء. تلك القوانين المكتوبة على الألواح مثل الوصايا العشر هي حكمة الإنسان الإلهية في جميع العصور، هي هبة مقدّسة مدفونة في ضمير الإنسان. لكنّها يمكن أن تصبح مُحَطِّمة لو أعطينا صلاحيات مطلقة وحلّت محلّ الحب الإلهي الذي يصغي دائماً إلى صوت اللحظة الحاضرة. هذا الحب الذي هو المبدأ الأساسي للعلاقات الاجتماعية الأخلاقية.

عنصر الدين في الحافز الأخلاقي

إنّ القانون الأخلاقي المقدّس هو الحافز وراء السلوك الأخلاقي التابع لسيطرة الحب الإلهي. السؤال هو هل هناك عنصر ديني في عملية الحافز الأخلاقي؟ هذا السؤال يقودنا إلى مفهوم القانون الذي يبدو هو الوحيد وراء الحافز الأخلاقي. وأي حوافز أخرى تبدو وكأنها تدخل شروطاً تنفي طبيعة الأخلاق الإلهية غير المشروطة. السلوك المطلوب أو الأخلاق الإلزامية تتخذ شكل الأوامر وإذا عمّمت تصبح قانوناً. القانون الأخلاقي نشعر به كقانون فقط لأنّ الإنسان انفصل عن التركيب القانوني لطبيعته الجوهرية وأصبح يمتلك ذاتاً شخصية (أنا). هذا القانون هو ملكه. هذا القانون هو طبيعته. وهذا القانون لم يكن قانوناً آمراً وخارجاً عنه إذا هو لم يحاول كسره. ولكن إذا هو انفصل عنه، إذا هو اختلف عنه في وجوده، فالقانون يصبح قانوناً له. ولما كان جميع البشر يشتركون في هذه المعضلة

فالجميع يقفون تحت هذا القانون. وحتى الحب أصبح قانوناً لهم (حب أخاك كما تحب نفسك).

إذا كان الحب يقرّر وجودنا. إذا الحب هو التركيب القانوني الذي بموجبه نحن واحد، فإنّه لا يصبح قانوناً يفرض علينا أو تعبيراً عما هو مطلوب أخلاقياً. إنه يصبح تعبيراً عن وجودنا واحداً مع الحب وليس معارضاً له.

الله منع آدم من أن يأكل من شجرة المعرفة، أو أن يأكل التفاحة. نحن نتساءل ما هي ضرورة منع الله آدم من أكل التفاحة؟ إذا كان آدم واحداً مع ذاته الحقيقية فإنّ هذا الأمر السلبي لا ضرورة له. لكنه كإنسان هو يمتلك حرّية مخالفة طبيعته الحقيقية. في حالة الإغراء هو لم يكن قد ارتكب الإثم بعد ولكن الرغبة في ارتكابها موجودة فيه، وهذا يعني أنه مبدئياً كان منفصلاً عن وحدته الطبيعية مع الله. القانون ظهر عندما الأعراض الأوليّة للانفصال ظهرت وحالة خلق الإنسان البريئة في الله قد اهتزّت. القانون كان تحذيراً ليعيد الإنسان إلى منشئه البريء. البريء لم يعد بريئاً. ولم يكن مذنباً. هي حالة على حدود الاثنين. واسم هذه الحالة هي **الرغبة**. عندما يكون الإنسان على حدود البراءة والإثم تظهر القوانين الأخلاقية التي تمتلك القوّة المحفّزة لتطبيق السلوك الأخلاقي الإلزامي والمطلوب. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل بإمكان القوانين الأخلاقية التي تفترض مسبقاً انفصال جوهر الإنسان عن ذاته أن تحفّزنا لأنّ نحوّل أنفسنا باتّجاه اتّحاد الجوهر مع الذات؟ الجواب لا يمكن. لأنّ وجود القوانين الأخلاقية مبني أصلاً على هذا الانفصال. القوانين الأخلاقية تعبّر عن انفصال الإنسان

عن طبيعته الحقيقية. فكيف يمكنها أن تتغلب على هذا الانفصال؟ الأمر بأن نكون طيبين لا يجعلنا طيّبين. إنها ربما تسوقنا إلى ارتكاب الإثم! معالجة مريض مدمن على شرب الخمر وأمره بعدم شرب الخمر سوف ينتج مقاومة عظيمة في هذا المريض. المريض سوف ينسحب ليمارس حريّته الشخصية وأن يناقض نفسه حتى يمكن أن يدمر نفسه. المريض في فعله هذا هو يدافع عن عنصر مهم في حرية الإنسان.

فقدان الإرادة للاستجابة إلى تلك الأوامر الأخلاقية يجعل من هؤلاء الأشخاص مرضى. القانون لا يمكن أن يوقف الإدمان ـ القوة المحفّزة للقانون لها تأثير كبير في التثقيف **أولاً**: داخل الأسرة، في المدرسة، وفي جميع دور الثقافة الأخرى. المشاكل التي تواجه القوة المحفّزة للقوانين الأخلاقية في دور التعليم هو هل المطلوب السلوكي مدعوم بالقوة أم بالتعقّل؟. هناك دائماً سلطة تقف وراء التثقيف الإلزامي وهذه السلطة دائماً تدّعي أنها عقلانيّة. الطفل ربما يقاوم أوامر والديه لكي يثبت نفسه. الطبيعة الأساسية للطفل هي جزئياً متّحدة مع محتويات تلك الأوامر إلى درجة أنها متّحدة معها، والأوامر أثبتت أنّها ليست أوامر غريبة فرضت عليه من قبل سلطة أبوية ولكنها تعبير عن مطلب موقف معيّن كتحديد ساعات الدراسة في المدرسة، لذلك إنه من المهم جداً لعملية التعليم أن تساعد الطفل على فهم المغزى والهدف من تلك الأوامر التي استلمها. إذا لم يتم إنجاز هذا الشيء وإذا كانت الأوامر هي تعبير عن رغبة السلطات في فرض الأوامر فقط لتأكيد ذاتها بغضّ النظر عن المواقف المحدّدة فإنّ الطفل سوف يلجأ إلى التمرّد وأشياء ثلاثة يمكن أن تحدث. الطفل ينجح في تمرّده ويخلق لنفسه شخصية مستقلّة.

الطفل ينجح في تمرّده ظاهرياً ولكنّه ينهار نفسياً وتصبح صفة التمرّد والعناد ملاصقة له طيلة حياته.

الطفل يفشل في تمرده ظاهرياً وينهار نفسياً مخلفاً شخصية متحطّمة خانعة خاضعة. هذه أمثلة تُظْهِر المشاكل التي يواجهها القانون الأخلاقي في سياق الحياة اليومية. أستنتج من ذلك الآباء، المعلّمين، وفلاسفة التعليم أنّ القانون يجب إزالته ويحلّ محلّه السماح المنظم. هذا أدّى إلى تطبيق القوانين الأخلاقية بصورة بريئة وتلقائية. بعد أن أصبح الأطفال مراهقين وشباباً أكثريتهم تأقلموا وانسجموا مع القوانين الأخلاقية، وقادوا حياتهم من دون دليل إلى جوهرهم الطبيعي وإمكانياتهم الكامنة. القوانين الأخلاقية جيدة ومقدّسة وروحية في ذاتها ونحن كمخلوقات عقلانية يجب أن نخضع لقوانين الرب ومن دون تلك القوانين لا يمكننا أن نعرف الإثم. القانون هو تعبير عن جوهر الإنسان وما يجب أن يكون ولكن في الحقيقة الإنسان انفصل عن جوهره والقانون يشير إلى انفصاله هذا. القانون يأمرنا بعمل الخير الذي لا يمكننا عمله لأننا انفصلنا عنه بفعل قوة تَنْكُر طبيعتنا الحقيقية. أنا لست من ارتكب الإثم ولكن الإثم هو جزء من تكويني. القانون يرشدنا إلى جوهرنا الحقيقي ويحذرنا من انفصالنا عنه. القانون يجعلنا نعي الإثم الجاثم في داخلنا. في غياب القانون فإن الإثم هو شيء ميت. عندما تأتي الأوامر يعود الإثم إلى الحياة. القانون الآمر ينتج أنواعاً مختلفة من الرغبات السيئة ولا يحفّزنا لقهر تلك الرغبات أو يحفّزنا لتوحيد الإرادة البشرية مع الإرادة الإلهية. ما أعمله هو خطأ وهو مخالف لإرادتي. تنفيذ الأوامر الإلهية شيء مستحيل في حالة انفصال الإنسان عن ربّه ولكن قبوله للمغفرة التي وهبها الله له هو الدافع للعمل الأخلاقي. ذاتنا الشخصية

تعارضت مع جوهر وجودنا الإلهي، نحن انفصلنا عن جوهرنا الإلهي. الله فرض علينا قوانين غامضة نكرهها ونكره هذا الإله الذي فرضها علينا لأنّنا لا يمكن أن نطبقها وهو يعاقب من ينتهك حرمة تلك القوانين. لا يمكن للإنسان أن يدرك أنّ هذه القوانين هي تعبير عن حقيقة جوهر وجوده. هو يشعر بها كشيء غريب وأوامر فرضها عليه إله دكتاتور.

الوصايا العشر في الديانات التقليدية ـ اليهودية، المسيحية والإسلامية أحكمت علاقة الإنسان بالإله والتي بنيت على الخوف والحب وهذه القوانين الأخلاقية تلائم مجتمعاً قبلياً قروياً إقطاعياً.

جميع الأنظمة الاجتماعية إن كانت إقطاعية، برجوازية، اشتراكية، دينية أو مدنية تَحكُم بالقوانين وهذه الأنظمة تبنّت **الحل الوسط** الذي يوفق بين طبقات المجتمع المختلفة وهذه حقيقة تطبق على الجماعات البشرية وكذلك الأفراد وهذه الحقيقة تشمل أكثرية الجنس البشري والمواقف البشرية في جميع العصور. حدث هذا لأنّ القوانين الأخلاقية أصبحت متجسمة في قوانين الدولة، في قواعد السلوك المرعيّة، وفي المبادئ التعليمية. وتستعمل قوة التقاليد والعادات والرأي العام، والتهديد والوعيد في فرضها على الشعب. بهذه الطريقة الأوامر الأخلاقية القانونية أصبحت تمتلك قوّة لإنتاج أفعال أخلاقية في مؤسساتها وتحقيق العدالة الاجتماعية. إنّ طاعة القانون يجعل من وجود المجتمع ممكناً. من وجهة نظر السلوك الأخلاقي غير المشروط والمنظور الديني الحديث والحب كمبدأ أساسي للسلوك الأخلاقي فإنّ هذه الطرق للحثّ على العمل الأخلاقي فيها تسوية، وهذا شيء لا يمكن تجنّبه في ورطة الإنسان الحالية.

لكن هذه التسوية هي بعيدة كلّ البعد عن الطبيعة الحقيقية للأخلاق الإلهية. هذه حقيقة ليس فقط لأنّ البشرية انفصلت عن الله، الصراع الدائم بين الذات الشخصية والذات الإلهية للإنسان، الغموض الذي يغطي ما هو عمل صالح وما هو عمل آثم. امتزاج الدافع الأخلاقي مع الدافع غير الأخلاقي في كلّ عمل. ولكن أيضاً بسبب المؤسسات الاجتماعية والعادات الفردية نمتلك ميولاً لا يمكن مقاومتها في إدامة أنفسنا من دون إعارة اهتمام إلى مطالب العدالة الإلهية الخلاقة والحب الإلهي في المواقف الجديدة وتحت ظروف خاصة في حياة المجتمع وحياة الفرد.

الاعتراف بهذا المظهر من معضلة البشر هو عمل متواضع تتطلبه عملية تقييم الذات النزيهة. لكن هذا الطلب لا ينفذه معظم الناس. هم يُقيّمون إنجازاتهم الأخلاقية الغامضة على أنّها في منتهى الكمال أخلاقياً. هم يعتبرون أنفسهم مثالاً للأخلاق وجيدين وينظرون نظرة تحتيّة إلى من يعتبرونهم عديمي الأخلاق. هم لا يشاهدون الغموض في جودتهم والمزيج في دوافعهم. هم ليسوا ريائيين ولكنهم واثقون بأنفسهم وبمواقفهم الأخلاقية العالية. هم لا يشعرون أنهم بحاجة إلى مغفرة ربّانيّة أو إنسانية. هم يدافعون عن القوّة المحفّزة لقانون الخلاق. يشيرون إلى أنفسهم كمثال يقتدى بهم. ولكن بعض هؤلاء الرجال الأخلاقيين وبعض الرجال اللاأخلاقيين. اللا أخلاقيين في نقطة ما سوف يمسكهم الضمير الإلهي ويفهمون عمق اختلافه معهم حتى مع أحسن وأنبل رجالهم. لا يمكن المساومة مع الضمير الإلهي وهو لا يخدع أحداً، يقف وجهاً لوجه مع القانون الأخلاقي العاري الذي لا يملك أي قوة محفّزة. إنّ القوة المحفّزة في الضمير الإلهي هي الحب الإلهي الذي يدفعنا للاتحاد مع جوهر الوجود

في كلّ شيء وفي النهاية مع الخير الذي هو أساس الوجود والمعرفة. الحب في جميع أنواعه يدفع إلى التوحد مع جوهر الخير في الأشياء والأشخاص ومع الخير بصورة عامّة. الله هو الخير والخير هو الله. وحب الخير هو حب الله. هذا الحب يرمز له بطريقتين: **أفلاطون** يقول: إنّها قوّة الإنسان الإلهية في حب الإله التي ترفع العقل إلى الإله. **وأرسطو** يقول: إنها القوة الإلهية التي تجذب إليها كلّ شيء زائل وتنتج بهذا الانجذاب حركة النجوم والكون وعقل الإنسان. إنها ليست الالتزام الأخلاقي وعظمة أوامره الغريبة التي تحفّز على العمل الأخلاقي ولكن قوّة الجذب والدفع التي هي هدف الأوامر الأخلاقية. إنها الخير. قواعد الأخلاق لا تجهز حافزاً أخلاقياً في المستوى الشخصي أو على مستوى الجماعة ما لم تفهم على أنّها محطة في الطريق إلى شيء مطلق في الوجود والمعنى ـ الإله.

وهدف كلّ شيء زائل هو المشاركة في الحياة الأبدية واستلام نعمة الله، هذه النعمة لا يستلمها الإنسان إلاّ إذا كان مستعداً لاستلامها. هي تخلق حالة من التوحد التي فيها الشرخ الفاصل بين ذاتنا الشخصية وذاتنا الإلهية والأجزاء المتناثرة تمّ التحامها وجميع قواعد الأوامر الأخلاقية تمّ تحطيمها. عندما تكون هناك نعمة ليس هناك أوامر وليس هناك شقاء في طاعة تلك الأوامر. تمّ الاتّحاد مع شيء كان منفصلاً ومعه أنجزت جميع القوانين الأخلاقية. هناك نعمة في كلّ اتّحاد إنسان مع إنسان آخر والعدالة الاجتماعية لم تنتهك حرمتها. عناصر النعمة الإلهية تتخلّل حياة كلّ شخص. إنها القوة الشافية التي تتغلب على الانشقاق بين ذاتنا الشخصية وذاتنا الإلهية الذي أدّى إلى انفصال الحياة عن الحياة، وحياة ضدّ حياة. عندما تظهر عناصر النعمة الإلهية فإنّ الأوامر الأخلاقية تكون قد تمّ تطبيقها.

طلبنا نعمة الله فأُعطيت لنا ولكن ما أُعطي لنا يمكن فقدانه. وسوف نفقدها إذا الإنسان نسي بأنّ النعمة الإلهية أنجزت ما هو ملزم أخلاقياً وأنها أكدت ولم تحل محلّ القواعد الأخلاقية غير المشروطة. لهذا ففي اللحظة التي نفقد فيها نعمة الله فإنّ أوامر القواعد الأخلاقية سوف تستحوذ علينا وتنتج التجربة المؤلمة في كوننا غير قادرين على أن نكون ما يمكن أن نكون وما يجب أن نكون. هذه المعاناة تحت وطأة القوانين الأخلاقية تدفعنا إلى التساؤل عن معنى وجودنا في ضوء الأوامر الأخلاقية غير المشروطة التي تشعرنا بمعضلة انفصالنا.

إنّ النعمة الإلهية تتضمن مقداراً من الغفران ـ الله غفر لمن كان عنده ذنوب وقَبِلَ من كان غير مقبول. قَهَرَ الألم المصاحب لشعورنا بالتقصير في عدم تطبيقنا للقواعد الأخلاقية. وتتضمن النعمة الإلهية مقداراً من الإنجاز إذ الله غرس فينا الروح والحب وبارك فينا إنجازاتنا القليلة. السؤال هو هل النعمة الإلهية تمحي قوّة الحافز الأخلاقي لمن كان مرفوضاً لكنه تمّ قبوله؟ هل النعمة تصبح غطاء للخارجين عن القانون؟

لكن الشجاعة في قبول من كان غير مقبول هو عمل النعمة، هو خلق قوّة روحية جديدة. القانون يطلب ولكن لا يسامح. القانون يحاكم ولكن لا يقبل. لذلك المسامحة والقبول هي شروط إنجاز القانون يجب أن تأتي من شيء أعلى من القانون أو من شيء فيه الانفصال بين الذات الشخصية والذات الإلهية قد تمّ التغلب عليه والقوّة الشافية تكون قد ظهرت متمثلة في الأنبياء. الأخلاق لا تعتمد على الديانات التقليدية. الأخلاق هي دين بحدّ ذاتها. والنعمة الإلهية كقوّة والحب هو مصدر مطلق للقواعد الأخلاقية والنعمة الإلهية هي القوّة المحفّزة للسلوك الأخلاقي.

الضمير

الإنسان دائماً وفي كلّ مكان يستعرض شيئاً يشبه الضمير ولكن محتوياته معرّضة للتغيّر دائماً. ما هي العلاقة بين الجانب الشخصي والجانب الموضوعي للضمير؟ الضمير هو مفهوم أخلاقي ولكن له أهميّة أساسية للدين. ما هي العلاقة بين المعنى الأخلاقي والمعنى الديني للضمير؟ الضمير يصف عملية مراقبة الذات الشخصية. غالباً يحاكم الذات الشخصية، يدفع الشخص إلى مواجهة ذاته الشخصية ويؤدي إلى الشعور بالذنب أو تطهير الذات. الأعمال الشريرة اكتشفت الذات الشخصية. مقاضاة الضمير للذات الشخصية تعيد الإنسان إلى جوهره الحقيقي. الجريمة والعقاب هي صفات المجتمعات البدائية والضمير رفع الإنسان إلى مرتبة عالية.

الذات الشخصية والضمير يعتمد أحدهم على الآخر في نموهم. الذات تكتشف نفسها عند شعورها بالانشقاق بين ما هي وما يجب أن تكون ـ الشخصية الأساسية للضمير ـ الشعور بالذنب يصبح واضحاً. الضمير أصبح مفهوماً عاماً بالنسبة للمتديّنين وغير المتديّنين. قبول التشريعات الدينية على سبيل المثال هو ليس مطلباً من مطالب الضمير. الضمير لا يفرض قانوناً ولكن يتّهم ويدين من لم يطبق القانون. نتيجة لذلك لا يعتبر الضمير نوعية خاصة من الدين ولكن عنصراً من طبيعة الإنسان. الإنسان الذي لم يستلم التشريعات الدينية ولم يقرأ الكتب السماوية له ضمير يحاسبه وهو يتبع ويطيع قوانين الطبيعة بصورة غريزية، هم يمثلون القانون لأنفسهم وحتى وإن لم يكن عندهم قانون هم

يستعرضون تأثير القانون المكتوب في قلوبهم. ضميرهم يجعل منهم شهوداً عندما يتهمهم أو يبرّئهم. الضمير يشهد على وجود القانون إن كان قانوناً دينياً أو قانون الطبيعة. ولكن الضمير لا يحتوي القانون. **ليس هناك دين معيّن للضمير**. وليس هناك أي علاقة بين الضمير الأخلاقي والإيمان الذي هو أساس الحياة الدينية.

الشعائر الدينية مثل ذبح النذور والتضحية والهدايا لا يمكن أن تنقي ضمير المتعبّد، لكن تقرّب أحدنا من الآخر بقلوب نقيّة وبإيمان مطلق، فإنّ قلوبنا سوف تلمع بريقاً بصفائها ونقائها وبخلاصها من الضمير الفاسد. فقط غفران الله ورحمته يمكن أن يرشدنا إلى الأعمال الأخلاقية المطلقة والضمير الجيد سوف يتبع. لكن تأكيد الإيمان ليس له أي علاقة بالضمير. حياة الزهد وحياة الفسق والخلاعة جميعهم يعبدون الأوثان ويمتلكون أخلاقية مزدوجة. ابق على إيمانك وجودة ضميرك. بعض الأفراد بحثوا في ضميرهم الجيد وانتهوا بالحزن على إيمانهم. هم كانوا قساة على ضمائرهم ـ لا يمكن للفرد الذي يمتلك أخلاقية مزدوجة أن يكون صاحب ضمير جيد. إن من كانت ذاته مجزّأة وأخلاقه مزدوجة وتَملكه الشيطان يكون ضميره فاسداً. الضمير النقي يحكم على أعمالنا. لكن كيف يتمكن الضمير من التميّيز بين عمل الخير وعمل الشر؟ كمال عقلنا يقودنا إلى تمييز عمل الخير. العقل يمتلك دليلاً تلقائياً لا يخطئ هي شرارة من النور الإلهي في عمق أرواحنا. هي نور ذكائنا الحدسي. يجب أن نعمل الخير ونبتعد عن الشرّ. كلّ مخلوق يجب أن يعيش حسب قانون الطبيعة، كلّ مخلوق يجاهد من أجل سعادته. الضمير هو الحاكم العملي والمراقب على تنفيذ هذه المبادئ في المواقف المعيّنة. نحن مجبورون باتّباع

ضمائرنا. نحن بالطبع مسؤولون أيضاً عن عدم معرفتنا بعمل الخير. لكنّنا لا يسمح لنا بأن نعمل شيئاً ضدّ ضمائرنا حتى وإن كان ما نعمله من الناحية الموضوعية صحيحاً. الإنسان يمتلك معرفة بالمبادئ الأخلاقية وقانون الطبيعة لا يخطئ. لكنه يمتلك ضميراً يمكن أن يخطئ في كلّ قرار يتّخذه. من أجل منع أخطاء جسيمة من أن تحدث، السلطات الدينية تنصح المتديّنين باتباع إمام معيّن أو شيخ معيّن أو مرشد معيّن. بهذه الطريقة الضمير يصبح أكثر وأكثر معتمداً على السلطات الدينية، ومعرفة الخير بصورة تلقائية حُجِبَتْ عن الإنسان. والاتّصال المباشر بين الإنسان وربّه حلّ محلّه المرجعيّة، الشيخ أو إمام الجامع صاحب الفتوى. لكن أصحاب الفتوى لهم خيارات متعددة يستمدّون سلطاتهم من معتقدات مختلفة، تختلف في تفسيراتها للنصوص الدينية وبذلك هناك احتمالات متعددة وحلول متعددة للظرف الواحد. هذه الحلول المتعددة سوف تحطّم استقلالية الضمير الواثق من نفسه في الفرد. بالرغم من جميع هذه التحريفات فإنّ هناك علماء دين يقومون بتثقيف وتنقية الضمائر الفاسدة لبعض الناس. لكن طغيان وشمولية الضمائر الفاسدة يدعو إلى القيام بحملة تثقيف عامّة وعلى جميع مستويات طبقات المجتمع وانتماءاتهم السياسية، الدينية والقومية. عملية التثقيف يجب أن تكون أرضيتها تفسيراً جديداً لمعنى ووظيفة الضمير. الضمير هو المعرفة المباشرة لقانون الطبيعة المغروس في الإنسان، هو تلك الروح المفعمة بالحيوية والنشاط التي تدفع الإنسان إلى الاكتشاف والتقدم وعمل الخير، هو ذلك الصوت الذي يتكلم من أعماقنا. إننا لا نتكلم مع أنفسنا لكن الله يتكلم في داخلنا. من الهاوية التي تقع فيها القلوب نحن نستلم الحقيقة إذا كنّا منفتحين لها. إنّ الشخص

المتحمّس يفهم هذا الصوت الإلهي في داخله كحقيقة ملموسة، هو يرمز له بالضمير. بهذه الطريقة الضمير أصبح علامة مميزة للدين وليس حاكماً على الأفعال الأخلاقية. الضمير كتعبير عن النور الإلهي في داخلنا يمتلك صفة التنبؤ. لكن ما هي محتويات تلك التنبؤات؟ وما هو الاختلاف بين الفكر التحليلي والنور الإلهي؟ الجواب على كلا السؤالين هو صفة النشوة في الروح الإلهية. حريّة الضمير هي تعبير عن السلطة الدينية للنور الإلهي في داخلنا يعبّر عن نفسه من خلال ضمير الفرد. ولما كان من الصعب التمييز بين النور الإلهي والفكر التحليلي، فإنّ حرّية الضمير تعني بالحقيقة حرّية الفرد لاتّباع تفكيره المستقل ليس في الأخلاق فقط ولكن في الدين أيضاً. قوّة تنبؤ الضمير تعتمد على قوة الانسجام العاطفي بين الفرد وذاته، بين الفرد والفرد الآخر، بين الفرد والوجود الكوني.

الأعمال الأخلاقية مبنيّة على الموازنة بين النزعة إلى عمل الخير وبين الأنانية التي يشير إليها الضمير. يعمل الضمير بصورة أحسن وأكثر دقّة كلما زاد انسجامنا مع الكون. تعاطفنا مع الإنسان الآخر هو أساس الضمير. نحن نشعر بوجودنا من خلال وجود الإنسان الآخر، نستمع إلى موافقته أو رفضه لأفعالنا وكأنها أحكامنا.

انسجام الأفراد في المشاعر والأفكار هو الانسجام مع الكون لأنّ مبدأ الكون هو الانسجام. الضمير والالتزام الأخلاقي المطلق يجب أن يكون فوق دوافع الخوف والسرور فوق السلطات الإلهية والسلطات البشرية وهذا هو التعريف المنهجي للضمير والأخلاق المطلقة. يجب أن يكون إدراكنا للضمير كواجب. إنه يجب علينا أن نمتلك ضميراً لكي ننجز كلّ شيء وفقاً

لما يمليه علينا الضمير. لكن محتويات هذا الضمير تعتمد على نوع العمل الاجتماعي أو الديني الذي نمارسه وعلى الفترة التأريخية الخاصة والزمان والمكان.

ضمير الحركة الثورية البرجوازية التي ثارت على النظام الإقطاعي هو متوافق تماماً مع حاجات المجتمع للتغير التكنولوجي، النفسي والاقتصادي لتلك المرحلة من تأريخ البشرية. الضمير أصبح واجباً لخدمة ماكنة الإنتاج البرجوازية. هذا معنى خفي للضمير حتى بالنسبة إلى الفلسفة التي تؤمن بأنّ الإنسان منقاد بغروره وحبّه لذاته بصورة مطلقة. حقيقة الضمير كواجب طاهر مستقل عن كلّ شيء خارج عن حرّيته المطلقة. في اللحظة التي يمارس فيها الضمير حريته المطلقة فإنها تتحول إلى طاعة عمياء لنظام محسوب جيداً من الخدمات الاقتصادية. الضمير وُجِدَ لتلبية حاجات المجتمع وطبقاته. فالبرجوازية لها ضميرها الخاص، والطبقة العاملة لها ضميرها الخاص، وضمير البرجوازية هو خطأ من وجهة نظر ضمير الطبقة العاملة. إنّ فقدان الاتجاه الصحيح للضمير يؤدي إلى فسح المجال لدخول محتويات لا أخلاقية فيه. الجنس البشري يجب تدجينه وهذا ما حصل عندما قهرت الطبقة الحاكمة شعوبها. إنه من مصلحة هذه الطبقات الحاكمة أن تخمد بالقوة وبالعقوبة الشديدة غريزة العدوان، نزعة القوة والسيطرة، التحطيم، الوحشية، روح الثورة لدى شعوبها. هم نجحوا في إخماد تلك النزعات لكنّهم لم ينجحوا في إبادتها. لهذا فإنّ غريزة العدوان انقلبت إلى الداخل وتحولت إلى نزعات لتحطيم الذات. الإنسان تحوّل ضدّ نفسه كوسيلة لمعاقبة نفسه. الجهاد الانتحاري كظاهرة لهذا الكبت الاجتماعي في بلدان مثل السعودية وأفغانستان. الإنسان انفصل عن طبيعته الحيوانية

القديمة التي استمدّ منها القوّة، السرور، وروح الخلق. لكنه لم يتمكن من أن يمنع غرائزه أن تبقى حيّة. هذه الغرائز تحتاج إلى أن تُخمد دائماً، وكان نتيجة هذا ظهور الضمير الفاسد، شيء عظيم في تطوّر الجنس البشري، لكنّه شيء قبيح إذا ما قارناه بهدف الإنسان الحقيقي ـ ضمير الأخلاق المطلق. إذا فقدنا هذا الضمير فلا وجود للدين لأنّه الضمير الإلهي. فإذا قبلنا النعمة الإلهية التي تخترق عالم القوانين يجب أن نتبنى هذا الضمير الذي يخلق السعادة في نفوسنا ويقبل صراع الشرّ والخير في داخلنا. نحن نعيش في فترة تاريخية تمتاز بالتطرف والتحول الثوري في المجتمعات تفرض علينا قسراً أفكاراً وأخلاقيات تلك الفئات المتنازعة. أين من كلّ هذا الصراع **ضمير الأخلاق المطلق**؟. هل هذا الضمير يمثل عالماً مثالياً فوق قوى التغيير؟ إنه ضمير يقع فوق التأريخ في وجوده وقيمه وأوامره. هل من الممكن لهذا الضمير الإلهي أن يتبع تيار التغيير في التأريخ ويتحول بسرعة ويواكب حركة التغيير في مجتمعاتنا في هذه الأيام؟. إذا حصل هذا فسوف يفقد القوة والسلطة لإعادة صياغة حياة الإنسان ولم يبق مطلب للسلوك الأخلاقي الإلزامي يفرضه الضمير لأنّ محتويات هذه المطالب سوف تختلف من فترة تأريخية إلى أخرى. أما إذا كان الضمير الإلهي فوق حركة التأريخ ثابتاً ولا يتغير فكيف له أن يؤثّر في الإنسان الذي يعيش هذا التأريخ ويتحول به. هل يصبح هذا الضمير شيئاً غريباً خارجاً عن حياة الإنسان العملية منفصلاً عنه في منأى لا يمكن المساس به نخشاه ولكن ليس له أي تأثير في حياتنا اليومية. هناك ثلاثة أنواع من الحياة والتفكير تمثل ثلاثة حلول مختلفة لمشكلة الأخلاق في التأريخ المتغيّر.

أولاً: الله أو ما وراء الطبيعة. يؤكد أبدية وعدم تغيّر السلوك

الأخلاقي. العالم يُدرك كنظام مركّب من أشياء أبدية الوجود، خلقها الله. هي مكوّنة من مادّة وجوهر روحي ثبّت الله فيها قانون الطبيعة والقانون الذي يحكم حياة الإنسان وعلاقاته الاجتماعية. من تبنّى الحل الإلهي ـ ما وراء الطبيعة وكذلك من تبنّى حل الطبيعة، كلاهما يكونان سلماً صاعداً لتسلسل القوّة والقيم التي تسيطر على الطبيعة ومن المفروض أن تسيطر على حركة ونشاط الإنسان. علماء الدين لا يمكن أن يتنكروا للمواقف الحياتية، والتغيرات التأريخية. علماء الدين يجب أن يتأقلموا في مفاهيمهم الأخلاقية ويتبنوا مفاهيم أخلاقية جديدة تتماشى مع حاجات مشاكل الساعة. تأقلم لكن من دون فقدان أسس الأخلاق الثابتة. لكنّهم لم ينجحوا بصورة كاملة في التعامل مع حاجات الساعة المتزايدة. هم تأقلموا لأجل أن يكونوا عمليّين ويلبّون حاجات المجتمع في اجتهاداتهم وفتاواهم لكن وحده الدين وتماسكه وسلطته التي لا تُنازَع قد فُقِدَت وزال وجودها. هم لم يؤثروا بشيء على روح الأخلاق المعاصرة والاتجاه الذي يسير فيه المجتمع. الثمن الذي دفعه رجال الدين هؤلاء هو فقدان التأثير الثابت، والشامل الذي كانوا يمتازون به على هذا العالم المتغير.

ثانياً: مبدأ القوة. الحقيقة هي كذبة تنفع فئة معيّنة. القيم الأخلاقية تُنتَج وتُسحب في الحركة المستمرّة للحياة، من الناحية البيولوجية ينتجها ويسحبها النوع الأقوى من الكائنات الحيّة. من الناحية الاجتماعية تنتجها وتسحبها النخبة الجديدة. أما من الناحية السياسية تنتجها وتسحبها الجماعات الثورية بهيجانها العنيف. **التغيير** كونه الصفة الرئيسية للحياة. هو أيضاً الصفة الرئيسية للأخلاق. ليس هناك نموذج مستقل فوق الحياة. ليس هناك معيار تقاس بموجبه القوة لكي يُحكَم عليها، ليس هناك قاعدة

عامّة للحياة الجديدة. الحياة الجديدة هي حياة الأقوى، هي حياة العنف أو حياة الفئة الحاكمة، أو حياة العرق المنتصر. هذا يتضمّن بأنّ الفرد بدل أن يكون منقاداً بالقاعدة العامّة للأخلاق التي يعبّر عنها ضميره هو يكون ملزماً بأن يدمج ضميره الشخصي مع ضمير الجماعة. هو يجب عليه أن ينسّق معاييره مع معايير الجماعة المتمثلة في قائد الجماعة. إنّ هذا الضمير يمتاز بصفة قبلية بدائيّة. ليس هناك قاعدة عامّة فوق الخبرة العملية للحياة. هل الخبرة العملية للحياة في اللحظة الحاضرة تنتج الأخلاق؟. وما هو مقياس الأخلاق الحقيقية؟ الأخلاق الغريزية تقود إلى أخلاق الحسّ العام لأنّ هناك مجتمعاً له اعتقاد عام قوي وقواعد سلوكيّة أخلاقيّة مرعية يدافع عنها قادة المجتمع لكن المجاميع غير المقتنعة بهذا النظام الاجتماعي يطالبون بنظام جديد للحياة لأنّ الأخلاق الغريزية لهذه المجموعة تختلف كليّاً عن الأخلاق الغريزية لقادة المجتمع فتنتفض على الحكام، لهذا فإنّ مبدأ القوّة كمصدر للأخلاق أصبح باطلاً وغير عملي.

ثالثاً: العقل. هناك مبادئ أبديّة، قانون الطبيعة الأخلاقي، من دون أن تقرّ به وتنسبه لنفسها المؤسسات الدينية. هذه المبادئ هي كالنجوم تبقى دائماً بعيدة عن فهم كلّ إنسان لكنّها كالنجوم ترشدنا في الاتّجاه الذي يجب على الإنسانية أن تسلكه. عندما نكتشفها لا يمكنها أن تختفي مرّة أخرى. مع أنّ فهمها نظرياً وتطبيقها هي عملية تصبو إلى الكمال. بهذه الطريقة فإنها تتأقلم مع كلّ ظرف اجتماعي. هل هذا هو الحلّ للمشكلة الأخلاقيّة في عالمنا المتغيّر؟ الجواب نعم و لا.

هي تبيّن الطريق الذي يجب علينا أن نسلكه وهذا يعني أنّها تحتوي في

مضامينها شيئاً ثابتاً وغير متغيّر، لكن جميع معايير وقواعد الأخلاق تتغير. يجب أن تكون هناك قوّة للتغير داخل مبادئ الأخلاق. يجب على الشيء الثابت وقوّة التغيير في الأخلاق أن تتّحد. **الحرية و العدالة الاجتماعية هما** مقومات قانون الطبيعة المطلق وموجودة في فكر الإنسان في جميع العصور والأماكن.

الجنس البشري من المفروض أن يفهم هذه المبادئ نظريّاً وعمليّاً. إنها قانون الطبيعة نفسها المبادئ نفسها التي دائماً هي معروفة واستلمناها، في الحقيقة هي تشير إلى الاختلافات الكميّة وليس إلى التغيّرات النوعيّة، ليس إلى خلق جديد في عالم الأخلاق. الأخلاق في عالمنا المتغيّر تتغيّر كمياً. الحرية والمساواة هي ليست شيئاً جديداً علينا لكن المبادئ التي بنيت عليها تمثل نمطاً خاصاً، نوعاً خاصاً من الحرّية والمساواة تلائم العالم القديم والعالم الجديد. هم لا يمثلون مبادئ شاملة الإدراك تعتنقها جميع الشعوب في جميع العصور ولا هي خَلاقة بما فيه الكفاية لكي تكون عنواناً يمتثل به الجيل الجديد. هذه المبادئ هي ليست أبديّة بما فيه الكفاية لتكون مبادئ مطلقة ولا هي مؤقّتة بما فيه الكفاية لكي تلائم عالمنا المتغيّر.

الحب الإلهي

هل هناك مصدر للأخلاق بعيداً عن خيارات الأخلاق المطلقة التي تنهار مع كلّ تغيّر جذري في التأريخ وخيار الأخلاق النسبية التي تعمل من نفسها أخلاق مطلقة؟ أنا أعتقد أن هناك حلاً، هو متضمن في أساس أخلاقيات جميع الديانات هو الحب الإلهي. الحب الإلهي (الحب

المطلق) يقدّم لنا مبدأً أخلاقياً عنصره أبدي ولا يتغير، فهمه يعتمد على فهم عمل قوّة الخلق الغريزية في ذاتنا الإلهية. الحب هو فوق القانون وكذلك فوق قانون الطبيعة. نحن يمكن أن نعبّر عنه كقانون. الحبّ كمصدر للأخلاق يجعل من الأخلاق لأن تكون الحلّ الأمثل في جميع العصور. الحبّ كمبدأ أساسي في قانون الطبيعة يجب أن يكون المبدأ الأساسي في جميع القوانين المدنية، هو أساس الحريّة والمساواة، هو يصون كرامة الإنسان، يمنع قتله المتعمّد وإهانته وتعذيبه وقمع حرّيته وظلمه. لكن أخذه كقانون أبدي وإصدار تشريعات في مواقف مختلفة هو استراتيجية خاطئة. للقانون نتائج مميتة وللحب قوّة تبعث فينا النشاط والحيوية. الحبّ لوحده يمكن أن يغيّر نفسه تبعاً لكلّ مطلب معيّن لكلّ شخص ولكلّ موقف اجتماعي من دون أن يفقد وجوده الأزلي، جلالته، وشرعيّته غير المشروطة. الحب يمكن أن يكيّف نفسه لكلّ مظهر من مظاهر الحياة المتغيّرة. جميع التغيّرات التي حدثت في التأريخ كانت مصحوبة بوعي قوي للأخلاقية المفترض التزامها في تلك الحقبة من التأريخ. لذلك فإنّ الأخلاق في عالمنا المتغيّر يمكن فهمها على أنّها أخلاق الوقت المناسب. الاستجابة إلى مطلب أخلاقي في عالم متغيّر هي أخلاق يقرّرها الوقت المناسب. لكن فقط الحبّ بإمكانه أن يَظْهَر في كلّ وقت مناسب. القانون لا يمكنه، لأنّ القانون هو محاولة فرض ما هو يخصّ فترة زمنيّة معيّنة على جميع الأزمنة. أخلاق مثالية ظهرت في الوقت المناسب وكانت مشروعة في حينها هي الآن تعتبر مثالية للتأريخ فقط هي شكل من الحياة فيها التأريخ يجد نهايته.

العدالة الاجتماعية

إنّ الحبّ يتضمّن العدالة. المحِب والمحبوب يساوي أحدهم الآخر. العدالة يجب أن تشمل جميع البشر، الرجل والمرأة، الأطفال، العبيد. هنا **مبدأ الحب** كسر طوق غطرسة وكبرياء القوميّات، والأجناس البشرية والأعراق والطبقات الاجتماعية. لكنّه عمل هذا كقانون عقلاني شامل وليس كحب خالص.

الجار هو موضوع الحب المباشر وكلّ شخص يمكن أن يُعتَبَر جاراً. عدم المساواة بين الناس يمكن التغلّب عليها إذا اعتبرنا أنفسنا من الله وإلى الله. عدم المساواة بين السيّد وعبده هاجمتها الديانات السماويّة. الفوارق الاجتماعية والنفسيّة في المجتمع الإقطاعي لم تتعارض مع عنصر المساواة المتضمّنة في مبدأ الحب. الاهتمام الكبير الذي قدّمه نبلاء ذلك النظام لعامّة الناس كان يعتبر من أعلى مستويات العدالة المطلوبة من مبدأ الحب.

في المجتمع البرجوازي العدالة هي أيضاً فُسِّرَت بلغة قانون الطبيعة العام، قانون العقل والإنسانية. العدالة أصبحت عدالة أمام القانون والمطلوب هو فرص اقتصادية متساوية. هذا كان متوافقاً مع مبدأ الحب وضدّ دكتاتورية وظلم الأنظمة القديمة. ولكن وفق معيار فرصة العمل المتساوية كلّ شخص أصبح مجرّد إيديولوجية لتصون فرص الشراء المقتصرة على الأقلية. الفكرة المتحرّرة للمساواة أصبحت تناقض الحب.

فكرة جديدة للمساواة ظهرت: هي ضمان الأمن والسلام لكلّ شخص. فهْم خلاق جديد لعنصر المساواة المتضمن في عنصر الحب يمكن أن يُجلب في زماننا لمعالجة الخلافات الأخلاقية بين الجماعات

المتنازعة. سوف يكون شيئاً جيداً إذا كانت المساواة في توافق مع مطلب الحب في المواقف الأخلاقية المختلفة. إنّ الحبّ هو أبدي، يخلق شيئاً جديداً في كلّ وقت وفي كلّ موقف. الأخلاق تعتمد على مبدأ الحب من جهة وعلى الوقت المناسب المتغيّر مع التغيّرات الاجتماعية من جهة أخرى. الجنس البشري مرّ بعدّة مراحل من التغيّرات الاقتصادية والاجتماعية ابتداءً بالمشاعيّة ثم الإقطاعية والبرجوازية ثم الرأسمالية الاشتراكية. هو سيطر على الطبيعة وسخّرها لصالحه وفي علاقاته الاجتماعية التي تجمع بين المتناقضات (حياة الزهد ـ الحياة المادية، السيطرة على النفس ـ حرّية التعبير، الانتظام ـ حرية الخلق) هذا هو الوقت المناسب لممارسة الحب الإلهي. ليس بمقدور حياة الزهد والتعبّد في الديانات السماوية أن تجهزنا بحلول لمعضلة الأخلاق. وليس بمقدور العقل والسيطرة على النفس التي تتّصف بها المجتمعات الرأسمالية الاشتراكية أن تجهزنا بحلول لمعضلة الأخلاق. وليس بمقدور الأحزاب القومية والأممية والأنظمة الفاشيّة التي تمجّد قوميتها وعرقها وترفعهما فوق الجميع وتؤلف حكومة دكتاتورية عسكرية مركزية ذات نظام صارم بمقدورها أن تجهّزنا بحلول لمعضلة الأخلاق. وليس بمقدور حكومات إسلامية مستبدّة تفرض الشريعة الإسلامية على شعوبها تستطيع أن تحلّ معضلة الأخلاق. هذه الأنظمة بحاجة إلى الحبّ الإلهي في الظرف والوقت المناسب. وليس بمقدور علم النفس أن يجهّزنا بنظام جديد للأخلاق. إذا كان الحب هو المبدأ الأساسي للأخلاق والوقت المناسب هو الأسلوب الذي يتجسّم فيه محتواه المادّي فليس هناك ضرورة لقانون أخلاقي أو مؤسسات رسميّة تفرض بها المبادئ الأخلاقية. وإذا وجدت

هذه القوانين أو المؤسسات الرسميّة فمن الضروري أن يكون وجودها أساسه الحب وليس لفرض السيطرة. كل فرد حتى من امتلك الروح الخلّاقة بحاجة إلى نظام مدروس فيه تجارب وحكمة الماضي وهذا النظام يحرّره من عبء ضرورة اتّخاذ القرارات الأخلاقية المتعدّدة لوحده، ترشده إلى التصرّف بصورة صحيحة في معظم المواقف الحياتية. لهذا السبب فإنّ جيل الشباب الضائع في مختلف البلدان هم أشدّ توقاً وحاجة إلى قوانين ومؤسسات رسمية تحرّرهم من حملهم الثقيل ومسؤوليتهم المستمرّة في اتّخاذ قرارات نهائية تخص حياتهم ومستقبلهم. ليس بإمكان أيّ نظام أخلاقي أن يمتلك قوّة حقيقية من دون قانون ومؤسسات. هناك حاجة ملحّة للثقافة في وقتنا الحاضر.

الحب يتطلب القانون والمؤسسات ولكن بمقدور الحبّ أن يكسر قيود القانون والمؤسسات إذا تطلبت الحاجة في الزمان والمكان المعيّنين قانوناً جديداً ومبادئ أخلاقية جديدة.

العدالة هي قانون محدّد في فترة زمنية معيّنة لهذا لا تملك العدالة صفة الشموليّة. العدالة هي شيء ثانوي ومبدأ مشتق، بينما الحب يظهر إلى الوجود في وقت مناسب وآخر. هو مبدأ أساسي وخلّاق. الحب هو الحياة في تماسكها الحقيقي. الأشكال والتركيب الذي يظهر فيه الحب هي الأشكال والتركيب الذي تكون فيه الحياة ممكنة. فيه الحياة تتغلّب على قوّة تحطيمها الذاتيّة، وهذا هو معنى **الأخلاق**: هو التعبير عن الطريقة التي فيها الحب يدمج نفسه في السلوك والحياة تحافظ على بقائها.

* * *

الفصل السابع عشر

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان هو مصدر الأخلاق

لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشريّة وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحريّة والعدل والسلام في العالم.

ولما كان تناسي حقوق الإنسان وازدراءها قد أفضيا إلى أعمال همجيّة آذت الضمير الإنساني وكان غاية ما يرنو إليه عامّة البشر انبثاق عالم يتمتّع فيه الفرد بحريّة القول والعقيدة ويتحرّر من الفزع والفاقة.

ولما كان من الضروري أن يتولّى القانون حماية حقوق الإنسان لكي لا يضطر المرء آخر الأمر إلى التمرّد على الاستبداد والظلم.

ولما كان من الجوهري تعزيز تنمية العلاقات الودّية بين الدول.

ولما كانت شعوب الأمم المتحدّة قد أكّدت في الميثاق من جديد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية وحزمت أمرها على أن تدفع بالرقي الاجتماعي قدماً وأن ترفع مستوى الحياة في جوّ من الحرية أفسح.

ولما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالتعاون مع الأمم المتحدّة على ضمان اطراد مراعاة حقوق الإنسان والحرّيات الأساسية واحترامها.

ولما كان للإدراك العام لهذه الحقوق والحريّات الأهمية الكبرى للوفاء التام بهذا التعهد.

فإنّ الجمعية العامّة تنادي بهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنّه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافّة الشعوب والأمم حتى يسعى كلّ فرد وهيئة في المجتمع، واضعين على الدوام هذا الإعلان نصب أعينهم، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريّات عن طريق التعليم والتربية واتّخاذ إجراءات مطردة، قومية وعالمية، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعّالة بين الدول الأعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها.

المادة ١ :

يولدون جميع الناس أحراراً متساويين في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميراً وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً بروح الإخاء.

المادة ٢ :

لكلّ إنسان حقّ التمتّع بكافّة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر، دون أيّ تفرقة بين الرجال والنساء. وفضلاً عمّا تقدّم فلن يكون هناك أي تمييز أساسه الوضع

السياسي أو القانوني أو الدولي لبلد أو البقعة التي ينتمي إليها الفرد سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة مستقلاً أو تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أو كانت سيادته خاضعة لأيّ قيد من القيود.

المادة ٣ :

لكلّ فرد الحقّ في الحياة والحريّة وسلامة شخصه.

المادة ٤ :

لا يجوز استرقاق أو استعباد أي شخص، ويُحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافّة أوضاعها.

المادة ٥ :

لا يُعَرّض أيّ إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطّة بالكرامة.

المادة ٦ :

لكلّ إنسان أينما وجد الحقّ في أن يُعْتَرَف بشخصيته القانونية.

المادة ٧ :

كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحقّ في التمتّع بحماية متكافئة عنه دون أيّة تفرقة، كما أنّه لهم جميعاً الحق في حماية متساوية ضدّ أيّ تميّز يخلّ بهذا الإعلان وضدّ أيّ تحريض على تمييز كهذا.

المادة ٨ :

لكلّ شخص الحقّ في أن يلجأ إلى المحاكم الوطنية لإنصافه عن أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التي يمنحها له القانون.

المادة ٩ :

لا يجوز القبض على أيّ إنسان أو حجزه أو نفيه تعسّفاً.

المادة ١٠ :

لكلّ إنسان الحقّ على قدم المساواة التامّة مع الآخرين في أن تنظر قضيّته أمام محكمة مستقلّة نزيهة نظراً عادلاً علنيّاً للفصل في حقوقه والتزاماته وأيّة تهمة جنائية توجّه إليه.

المادة ١١ :

١ ـ كلّ شخص متّهم بجريمة يعتبر بريئاً إلى أن تثبت إدانته قانوناً بمحاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه.

٢ ـ لا يُدان أيّ شخص من جرّاء أداء عمل أو الامتناع عن أداء عمل إلاّ إذا كان ذلك يعتبر جرماً وفقاً للقانون الوطني أو الدولي وقت الارتكاب، كذلك لا تُوقع عليه عقوبة أشدّ من تلك التي كان يجوز توقيعها وقت ارتكاب الجريمة.

المادة ١٢ :

لا يُعَرض أحد لتدخل تعسّفي في حياته الخاصّة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته ولكلّ شخص الحقّ في حماية

القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات.

المادة ١٣ :

١ ـ لكلّ فرد حريّة التنقل واختيار محل إقامته داخل حدود كلّ دولة.

٢ ـ يحقّ لكل فرد أن يغادر أيّة بلاد بما في ذلك بلده كما يحقّ له العودة إليه.

المادة ١٤ :

١ ـ لكلّ فرد الحق في أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هرباً من الاضطهاد.

٢ ـ لا ينتفع بهذا الحق من قُدِّمَ للمحاكمة في جرائم غير سياسية أو لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة ١٥ :

١ ـ لكلّ فرد حق التمتع بجنسيّة ما.

٢ ـ لا يجوز حرمان شخص من جنسية تعسّفاً أو إنكار حقّه في تغييرها.

المادة ١٦ :

١ ـ للرجل والمرأة متى بلغا سنّ الزواج حقّ التزوّج وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله.

٢ ـ لا يبرم عقد الزواج إلاّ برضا الطرفين الراغبين في الزواج رضاً كاملاً لا إكراه فيه.

٣ ـ الأسرة هي الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها حق التمتّع بحماية المجتمع والدولة.

المادة ١٧ :

١ ـ لكلّ شخص حقّ التملّك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره.

٢ ـ لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسّفاً.

المادة ١٨ :

لكلّ شخص الحقّ في حريّة التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحقّ حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحريّة الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سرّاً أم مع الجماعة.

المادة ١٩ :

لكلّ شخص الحق في حريّة الرأي والتعبير ويشمل هذا الحق حريّة اعتناق الآراء دون أيّ تدخّل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقّيها وإذاعتها بأيّة وسيلة كانت دون تقيّد بالحدود الجغرافية.

المادة ٢٠ :

١ ـ لكلّ شخص الحق في حريّة الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية.

٢ ـ لا يجوز إرغام أحد على الانضمام إلى جمعية ما.

المادة ٢١ :

١ ـ لكلّ فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشؤون العامّة لبلاده إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يُختارون اختياراً حرّاً.

٢ ـ لكلّ شخص الحق نفسه الذي لغيره في تقلّد الوظائف العامّة في البلاد.

٣ ـ إنّ إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة. ويعبّر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة دوريّة تجري على أساس الاقتراع السرّي وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أي إجراء مماثل يضمن حريّة التصويت.

المادة ٢٢ :

لكلّ شخص بصفته عضواً في المجتمع الحقّ في الضمانة الاجتماعية وفي أن تحقّق بواسطة المجهود القومي والتعاون الدولي وبما يتفق ونظم كلّ دولة ومواردها الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي لا غنى عنها لكرامته وللنمو الحر لشخصيته.

المادة ٢٣ :

١ ـ لكلّ شخص الحق في العمل، وله حرية اختياره بشروط عادلة مرضية كما أنّ له حقّ الحماية من البطالة.

٢ ـ لكلّ فرد دون أي تمييز الحق في أجر متساوٍ للعمل.

٣ ـ لكلّ فرد يقوم بعمل الحق في أجر عادل مرضٍ يكفل له ولأسرته عيشة لائقة بكرامة الإنسان تضاف إليه، عند اللزوم، وسائل أخرى للحماية الاجتماعية.

٤ ـ لكلّ شخص الحقّ في أن ينشئ وينضم إلى نقابات حماية لمصلحته.

المادة ٢٤ :

لكلّ شخص الحق في الراحة، وفي أوقات الفراغ، ولاسيّما في تحديد معقول لساعات العمل وفي عطلات دورية بأجر.

المادة ٢٥ :

١ ـ لكلّ شخص الحق في مستوى من المعيشة كافٍ للمحافظة على الصحّة والرفاهيّة له ولأسرته، ويتضمّن ذلك التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبيّة وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة، وله الحقّ في تأمين معيشته في حالات البطالة والمرض والعجز والترمّل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته.

٢ ـ للأمومة والطفولة الحقّ في مساعدة ورعاية خاصّتين، وينعم كلّ الأطفال بالحماية الاجتماعية نفسها سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعي أو بطريقة غير شرعية.

المادة ٢٦ :

١ ـ لكلّ شخص الحق في التعلم، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى والأساسية على الأقل بالمجّان، وأن يكون التعليم الأولي إلزامياً وينبغي أن يعمّم التعليم الفني والمهني وأن ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة التامّة للجميع وعلى أساس الكفاءة.

٢ ـ يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماءً كاملاً وإلى

تعزيز احترام الإنسان والحرّيات الأساسيّة وتنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية، وإلى زيادة مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام.

٣ ـ للآباء الحقّ الأول في اختيار نوع تربية أولادهم.

المادة ٢٧ :

١ ـ لكلّ فرد الحقّ في أن يشترك اشتراكاً حرّاً في حياة المجتمع الثقافي وفي الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدّم العلمي والاستفادة من نتائجه.

٢ ـ لكلّ فرد الحقّ في حماية المصالح الأدبية والماديّة المترتبة على إنتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني.

المادة ٢٨ :

لكلّ فرد الحقّ في التمتّع بنظام اجتماعي دولي تتحقق بمقتضاه الحقوق والحرّيات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحقّقاً تامّاً.

المادة ٢٩ :

١ ـ على كلّ فرد واجبات نحو المجتمع الذي يتاح فيه وحده لشخصيته أن تنمو نموّاً حرّاً كاملاً.

٢ ـ يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرّياته لتلك القيود التي يقررها القانون فقط، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرّياته واحترامها ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي.

٣ ـ لا يصحّ بحال من الأحوال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع أغراض الأمم المتحدّة ومبادئها.

المادة ٣٠:

ليس في هذا الإعلان نصّ يجوز تأويله على أنّه يخوّل لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحرّيات الواردة فيه.

المحتويات